التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة النحل

لفضيله
الدكتور محمد السيد طنطاوى
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

﴿ ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ﴾

[الجزء الرابع عشر]



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه.

أما بعد : فقد سبق لى ـ بحمد الله وتوفيقه ـ أن قمت بتفسير سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر .

وهأنذا أقدم للقارىء الكريم تفسير سورة النحل ، وقد حاولت فيه أن أكشف عما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وإرشادات حكيمة ، ومجادلات بالتى هى أحسن .

وقد مهدت لتفسيرها بكلمة ، بينت فيها زمان نزولها ، وعدد آياتها . وسبب تسميتها بهذا الاسم ، والمقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، ونافعا لعباده ، وشفيعا لنا يوم نلقاه ـ سبحانه ـ .

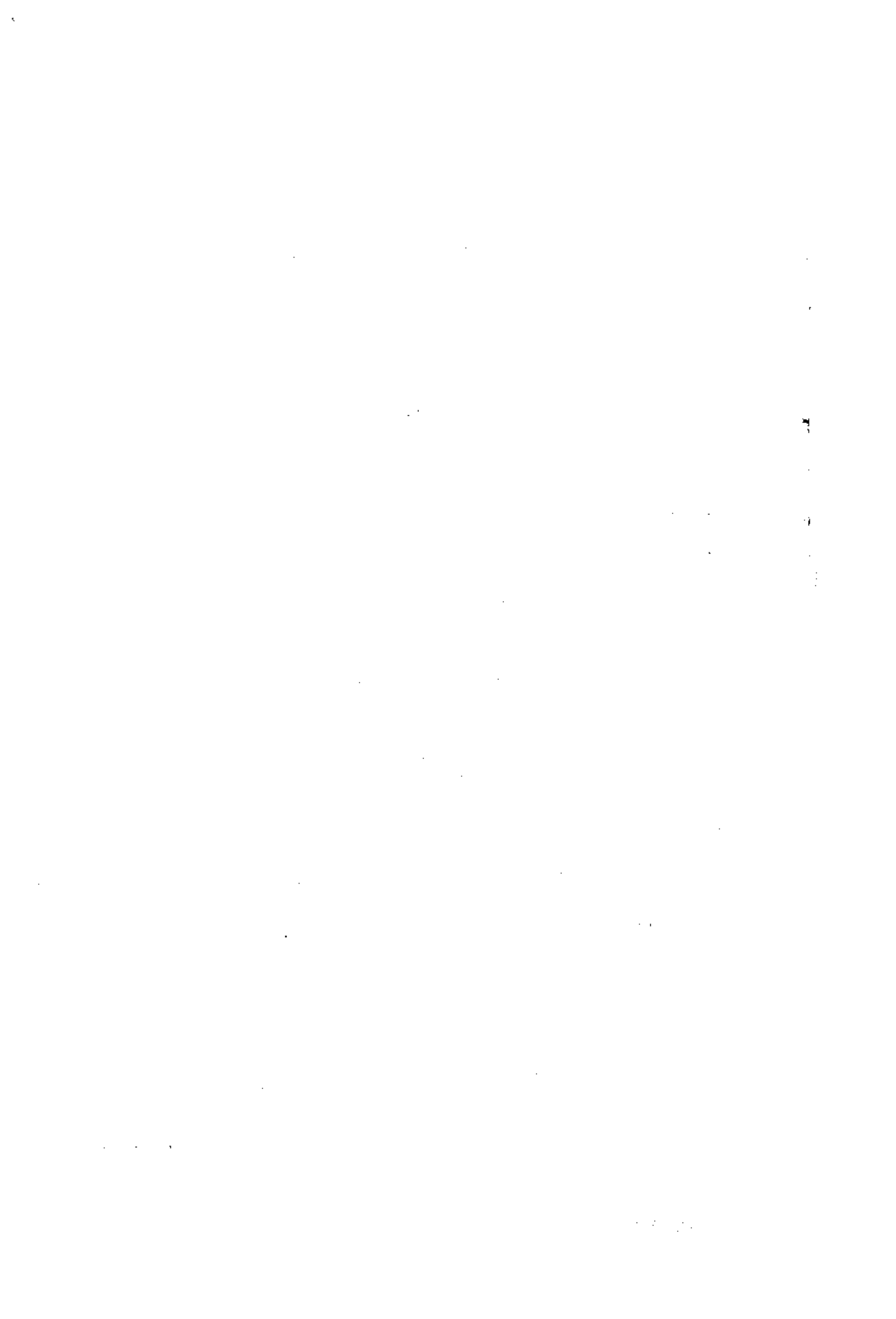
وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة فى : غرة المحرم سنة ١٤٠٤ هـ ٧/١٠/١٩٨٣ م .

المؤلف

محمد سيد طنطاوى
الأستاذ بجامعة الأزهر
كلية أصول الدين



تعريف بسورة النحل

١ - سورة النحل هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سورة : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء والمائدة ، والأنعام، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر .

أما في ترتيب النزول ، فكان ترتيبها التاسعة والستين ، وكان نزولها بعد سورة الكهف[1] .

٢ - وعدد آياتها ثمان وعشرون ومائة آية .

٣ - وسميت بسورة النحل ، لقوله - تعالى - فيها ، « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ...»[2] .

وتسمى - أيضا - بسورة النعم ، لأن الله - تعالى - عدد فيها أنواعا من النعم التي أنعم بها على عباده .

٤ - وسورة النحل من السور المكية : أي التي كان نزولها قبل الهجرة النبوية الشريفة .

قال القرطبي : وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمى سورة النعم بسبب ماعدد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هي مكية إلا قوله - تعالى - وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به . . . ، الآية . نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد . . . .»[3] .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ طبعة المشهد الحسيني . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم

(٢) الآية رقم ٦٨ .

(٣) تفسير القرطبي جـ ١٠ ص ٦٥ .

وقال الآلوسى : وأطلق جمع القول بأنها مكية . وأخرج ذلك ابن مردويه عن ابن عباس ، وابن الزبير - رضى الله عنه - . وأخرجه النحاس من طريق مجاهد عن الحبر أنها نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها ، فإنهن نزلن بين مكة والمدينة فى منصرف النبى - صلى الله عليه وسلم - من غزوة أحد »(١) .

والذى تطمئن إليه النفس ، أن سورة النحل كلها مكية ، وذلك لأن الروايات التى ذكروها فى سبب نزول قوله - تعالى - : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ... » الخ السورة ، فيها مقال . فقد ذكر الإمام ابن كثير عند سردها ، أن بعضها مرسل وفيه مبهم ، وبعضها فى إسناده ضعف ...(٢)

٥ - (ا) وإذا ما قرأنا سورة النحل بتدبر وتفكر ، نراها فى مطلعها تؤكد أن يوم القيامة حق ، وأنه آت لا ريب فيه ، وأن المستحق للعبادة والطاعة إنما هو الله الخالق لكل شىء .

قال - تعالى - : أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ، أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون .

(ب) ثم تسوق ألوانا من الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، عن طريق خلق السموات والأرض وخلق الإنسان والحيوان ، وعن طريق إنزال الماء من السماء ، وتسخير الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم .. وغير ذلك من النعم التى لا تحصى .

استمع إلى بعض هذه الآيات التى تحكى جانبا من هذه النعم فتقول : خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون .

وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٨٩ (٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٩٦

ثم تقول : وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم .

(ح) وبعد أن توبخ السورة المشركين لتسويتهم بين من يخلق ومن لا يخلق تحكى جانبا من أقاويلهم الباطلة التى وصفوا بها القرآن الكريم ، وتصور استسلامهم لقضاء الله العادل فيهم يوم الحساب ، فتقول : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا : أساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة . ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون . . .

إلى أن تقول : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ، بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون . فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين » .

(د) وكعادة القرآن الكريم فى قرنه الترغيب بالترهيب ، وفى عقده المقارنات بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، جاءت الآيات بعد ذلك لتبشر المتقين بحسن العاقبة .

جاء قوله ـ تعالى ـ : وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . . .

(هـ) ثم تعود السورة الكريمة مرة أخرى إلى حكاية أقوال المشركين حول مسألتين من أخطر المسائل ، وهما مسألة الهداية والإضلال ، ومسألة البعث بعد الموت بعد أن حكت ما قالوه فى شأن القرآن الكريم .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى أقوالهم ثم يرد عليها بما يبطلها فيقول : وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين. ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت،

فنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين .

إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين . وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين » .

(و) ثم تهدد السورة الكريمة أولئك الجاحدين لنعم الله ، الماكرين للسيئات ، بأسلوب يستثير النفوس ويبعث الرعب فى القلوب ، وتدعوهم إلى التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، لعل هذا التفكر يكون سببا فى هدايتهم ، وتخبرهم بأن الله - تعالى - هو الذى نهاهم عن الشرك ، وهو الذى أمرهم بإخلاص العبادة له . . .

استمع إلى القرآن وهو يصور هذه المعانى بأسلوبه البديع فيقول : أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم . أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا ، لله وهم داخرون .

ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون . وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون . . .

(ز) ثم انتقلت السورة إلى سرد أنواع من جهالات المشركين ، ومن سوء تفكيرهم ، حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، ويشكروا الله - تعالى - على توفيقه إياهم إلى الدخول فى الإسلام .

لقد ذكرت السورة الكريمة ألوانا متعددة من جهالات الكافرين ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ، تالله لتسألن عما كنتم تفترون . ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ...

ويجعلون لله ما يكرهون ، وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون .

(ح) هكذا تصور سورة النحل ما كان عليه المشركون من غباء وغفلة وسوء تفكير ، ثم تعود — سورة النعم — مرة أخرى إلى الحديث عن نعم الله — تعالى — على عباده ، فتتحدث عن نعمة الكتاب ، وعن نعمة الماء ، وعن نعمة الأنعام ، وعن نعمة الثمار والفواكه ، وعن نعمة العسل المتخذ من بطون النحل وعن نعمة التفاضل فى الأرزاق ، وعن نعمة الأزواج والبنين والحفدة ...

قال — تعالى — : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون. وإن لكم فى الأنعام لعبرة، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ...

إلى أن يقول - سبحانه - : والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون .

(ط) ثم تسوق السورة الكريمة مثلين مشتملين على الفرق الشاسع ، بين المؤمن والكافر ، وبين الإله الحق والآلهة الباطلة ، فتقول : ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا ، هل يستوون ؟ الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون. وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو كل على مولاه أينما توجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم .

(ى) وبعد إيراد هذين المثلين البليغين ، تعود سورة النعم إلى الحديث عن

أنواع أخرى من نعم الله على خلقه، لكي يشكروه عليها، ويستعملوها فيما خلقت له . فتتحدث عن نعمة إخراج الإنسان من بطن أمه، وعن نعمة البيوت التي هي محل سكن الإنسان ، وعن نعمة الظلال ، وعن نعمة الجبال ، وعن نعمة الثياب . . .

قال ـ تعالى ـ : والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون .

والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ، أثاثاً ومتاعا إلى حين ،

والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون .

(ك) ثم بعد أن تصور السورة الكريمة أحوال المشركين يوم القيامة عندما يرون العذاب ، وتحكى ما يقولون عندما يرون شركاءهم ، وتقرر أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيكون شهيدا على من بعث إليهم . . .

بعد كل ذلك تسوق السورة الكريمة عددا من الآيات الآمرة بمكارم الأخلاق والناهية عن منكراتها فتقول : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . . . »

(ل) وبعد هذه التوجيهات السامية المشتملة على الترغيب والترهيب ، وعلى الأوامر والنواهي . تتحدث آيات السورة عن آداب تلاوة القرآن، وعن الشبهات التي أثارها المشركون حوله مع الرد عليها بما يدحضها ، وعن حكم من تلفظ

بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، فتقول : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . . .

ثم تقول : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذ لسان عربى مبين . . .

ثم تقول : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم »

(م) ثم تعود السورة الكريمة لضرب الأمثال ، فتسوق مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم بالنعم فلم يقابلوها بالشكر ، فانتقم الله — تعالى — منهم . كما تسوق جانبا من حياة سيدنا إبراهيم كمثال للشاكرين الذين استعملوا نعم الله فيما خلقت له .

استمع إلى قوله — تعالى — : وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان . فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »

ثم إلى قوله — تعالى — : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

(ن) وأخيرا تختتم السورة الكريمة ، بتلك الآيات الجامعة لأحكم الأساليب وأكملها وأجملها وأنجعها فى الدعوة إلى الله — تعالى — وفى معاملة الناس فتقول : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

٦ ـ وبعد ، فهذا عرض إجمالى لأهم المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، ومنه نرى :

(أ) عنايتها الفائقة بإقامة الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى صدق رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دعوته ، وعلى أن يوم القيامة حق ، وعلى أن القرآن من عند الله ـ عز وجل ـ .

(ب) كما نرى تفصيلها القول فى بيان آلاء الله ـ تعالى ـ على خلقه، وقد سبحت السورة فى هذا الجانب سبحا عظيما ، فذكرت الإنسان بنعمة خلقه ، وبنعمة تسخير الأنعام والشمس ، والقمر ، والنجوم، والماء ، والجبال ، والأشجار .. كل ذلك وغيره لمنفعته ومصلحته .

(ج) كما نلمس اهتمامها بضرب الأمثال للمؤمن والكافر ، والشاكر والجاحد والإله الحق والآلهة الباطلة ... وذلك لأن فى ضرب الأمثال تقريب للبعيد وتوضيح للخفى ، بأسلوب من شأنه أن يكون أوقع فى القلوب، وأثبت فى النفوس وأدعى إلى التدبر والتفكر .

(د) كما ندرك حرصها على إيراد أقوال المشركين وشبههم، ثم الرد عليها بطريقة تقنع العقول ، وترضى العواطف ، بأن الإسلام هو الدين الحق ، وبذلك يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم .

(هـ) كما نحس عند قراءتها بعنايتها بتوجيه المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وأمهات الفضائل ، كالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، والوفاء، والصبر والشكر ... ونهيهم عن الرذائل كالغدر والجحود ، ونقض العهود ، والاستكبار ، والظلم ...

وأخيرا فإن المتأمل فى هذه السورة ـ أيضا ـ يراها حافلة بأسلوب الترغيب والترهيب ، والتبشير والإنذار ، والوعد والوعيد .

الوعيد للكافرين بسوء المصير إذا ما لجوا فى ضلالهم وطغيانهم كما فى قوله

ـ تعالى ـ : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون » .

والوعد للمؤمنين بالحياة الطيبة فى الدارين ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

والآن فلنبدأ فى التفسير التحليلى لسورة النعم ، ونسأل الله تعالى ـ أن يرزقنا التوفيق والسداد .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(التفســير)

قال تعالى : « أَتَى أَمرُ اللهِ فلا تستعجلُوه ، سبحانَه وتعالَى عما يُشركونَ (١) يُنزِّلُ الملائكةَ بالرُّوحِ من أمرِه على من يشاءُ مِن مِنْ عبادِه ، أن أنذِرُوا أنَّه لا إلهَ إلا أنا فاتَّقونِ (٢) خلقَ السمواتِ والأرضِ بالحقِّ تعالَى عمَّا يُشركونَ (٣) خلق الإنسانَ مِنْ نُطْفَةٍ ، فإذا هو خصيمٌ مبينٌ (٤) والأنعامَ خلقَها ، لكُمْ فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تأكلُونَ (٥) ولكم فيها جمالٌ حينَ تريحُونَ وحين تَسْرحُونَ (٦) وتحملُ أثقالَكُم إلى بلدٍ لمْ تكونُوا بالغيهِ إلا بشِقِّ الأنفُسِ ، إنَّ ربكُمْ لرءوفٌ رحيمٌ (٧) والخيلَ والبغالَ والحميرَ لِتركبُوهاَ وزينةً ، ويخلقُ مالاَ تعلمونَ (٨) وعلى اللهِ قصدُ السبيلِ ومنها جائرٌ ، ولَوْ شاَء لهدَاكُم أجمعينَ (٩) .

إفتتحت السورة الكريمة ، بتهديد الكافرين الذين كانوا ينكرون البعث ، وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، ويستبعدون نصر الله تعالى ـ لأوليائه ، فقال ـ تعالى ـ : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » ، والفعل « أتى » هنا ، بمعنى قرب ودنا بدليل «فلا تستعجلوه» لأن النهى عن الإستعجال يقتضى أن الأمر الذى استعجل حصوله لم يحدث بعد .

والمراد بأمر الله : ما اقتضته سنته وحكمته ـ سبحانه ـ من إثابة المؤمنين ونصرهم ، وتعذيب الكافرين ودحرهم .

والفاء فى قوله « فلا تستعجلوه » للتفريغ . والإستعجال : طلب حصول

الشيء قبل وقته . والضمير المنصوب فى « تستعجلوه » يعود على أمر الله، لأنه هو المتحدث عنه ، أو على الله ـ تعالى ـ ، فلا تستعجلو الله فيما قضاه وقدره .

والمعنى : قرب ودنا مجيء أمر الله ـ تعالى ـ ، وهو إكرام المؤمنين بالنصر والثواب ، وإهانة الكافرين بالخسران والعقاب ، فلا تستعجلوا ـ أيها المشركون ـ هذا الأمر ، فإنه آت لاريب فيه ، ولكن فى الوقت الذى يحدده الله تعالى ـ ويشاؤه .

وعبر عن قرب إتيان أمر الله ـ تعالى ـ بالفعل الماضى « أتى » للإشعار بتحقق هذا الإتيان ، وللتنويه بصدق المخبر به ، لكأن ما هو واقع عن قريب، قد صار فى حكم الواقع فعلا .

وفى إبهام أمر الله ، إشارة إلى تهويله وتعظيمه ، لإضافته إلى من لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

وقوله « فلا تستعجلوه » زيادة فى الإنذار والتهديد ، أى : فلا جدوى من استعجالكم ، فإنه نازل بكم سواء استعجلتم أم لم تستعجلوا .

والظاهر أن الخطاب هنا للمشركين ، لأنهم هم الذين كانوا يستعجلون قيام الساعة ، ويستعجلون نزول العذاب بهم ، وقد حكى القرآن عنهم ذلك فى آيات .

منها قوله ـ تعالى ـ : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق . ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد » [1]

ومنها قوله سبحانه ـ : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده . وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » [2]

---

(١) سورة الشورى . الآية ١٨

(٢) سورة الحج . الآية ٤٧

وقال بعض العلماء : ويجوز أن يكون الخطاب هنا شاملا للمؤمنين ، لأن عذاب الله ـ تعالى ـ وإن كان الكافرون يستعجلونه ، تهكما به ، لظنهم أنه غير آت ، فإن المؤمنين يضمرون فى نفوسهم استبطاءه ، ويحبون تعجيله للكافرين »(١)

وقوله : « سبحانه وتعالى عما يشركون » جملة مستأنفة ، قصد بها إبطال إشراكهم ، وزيادة توبيخهم وتهديدهم .

أى . تنزه الله ـ تعالى ـ وتعاظم بذاته وصفاته ، عن إشراك المشركين ، المؤدى بهم إلى الأقوال الفاسده ، والأفعال السيئة ، والعاقبة الوخيمة والعذاب المهين . وقوله « يشركون » : قراءة الجمهور ، وفيها التفات من الخطاب فى قوله « فلا تستعجلوه » إلى الغيبة ، تحقيرا لشأن المشركين ، وحطا من درجتهم عن رتبة الخطاب ، وحكاية لشنائعهم التى يتبرأ منها العقلاء .

وقرأ حمزة والكسائى « تشركون » تبعا لقوله ـ تعالى ـ « فلا تستعجلوه » وعلى قراءتهما لا التفات فى الآية .

ثم بين ـ سبحانه ـ لونا من ألوان قدرته ، ورحمته بعباده ، حيث أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، فقال تعالى ـ : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ..... »

والمراد بالملائكة هنا : جبريل ـ عليه السلام ـ ومن معه من حفظة الوحى . أو المراد بهم جبريل خاصة ، ولا مانع من ذلك ، لأن الواحد قد يسمى باسم الجمع إذا كان رئيسا عظيما .

والمراد بالروح : كلام الله ـ تعالى ـ ووحيه الذى ينزل به جبريل ، ليبلغه إلى من أمره الله بتبليغه إياه .

وقد جاء ذكر الروح بمعنى الوحى فى آيات منها لقوله ـ تعالى ـ : « وكذلك

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ، لفضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ج ١٤ ص ٩٧

أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ... »[١]

والمعنى : ينزل ـ سبحانه ـ الملائكة بكلامه ووحيه ، على من يشاء إنزالهم إليه من عباده المصطفين الأخيار .

وأطلق ـ سبحانه ـ على وحيه اسم الروح ، على سبيل التشبيه ، ووجه الشبه ، ان بسببهما تكون الحياة الحقه .

فكما أن بالروح تحيا الأبدان والأجساد ، فكذلك بالوحى تحيا القلوب والنفوس وتؤدى رسالتها فى هذه الحياة .

وفى قوله ـ سبحانه ـ « من أمره » : إشارة إلى أن نزول الملائكة بالوحى ، لا يكون إلا بسبب أمر الله لهم بذلك . كما قال ـ تعالى ـ حكاية عنهم : « وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا »[٢] .

وقوله : « على من يشاء من عباده » رد على مطالب المشركين المتعنتة ، والتى من بينها ماحكاه الله ـ تعالى ـ عنهم فى قوله : « وقالوا لولا نزل هـــذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ... »[٣]

فالآيه الكريمة تبين أن نزول الملائكة بالوحى ، إنما هو على من يختاره الله ـ تعالى ـ لنزول الوحى عليه ، لا على من يختارونه هم ، وأن النبوة هبة من الله ـ تعالى ـ لمن يصطفيه من عباده .

قال ـ تعالى ـ : « الله أعلم حيث يجعل رسالته »[٤] .

---

(١) سورة الشورى : الآيه ٥٢ (٢) سورة مريم : الآيه ٦٤
(٣) سورة الزخرف الآيه ٣١
(٤) سورة الأنعام الآيه ١٢٤

وقوله : « ان أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » بيان للمقصود من نزول الملائكة بالوحي على الأنبياء .

أي : أنزل ـ سبحانه ـ ملائكته بوحيه على أنبيائه ، لكي ينذر هؤلاء الأنبياء الناس ، ويخوفوهم من سوء عاقبة الإشراك بالله ، ويدعوهم إلى أن يخلصوا العبادة لله ـ تعالى ـ وحده ، ويبينوا لهم أن الألوهية لا يصح أن تكون لغيره ـ سبحانه ـ .

قال الآلوسي ما ملخصه : وقوله : « أن أنذروا » بدل من « الروح » على أن « أن » هي التي من شأنها أن تنصب المضارع ، وصلت بالأمر كما وصلت به في قولهم : كتبت إليه بأن قم . . . .

وجوز بعضهم كون « أن » هنا مفسرة ، فلا موضع لها من الاعراب ، وذلك لما في تنزل الملائكة بالوحي من معنى القول . كأنه قيل : يقول ـ سبحانه ـ بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده أن أنذروا . . . »(١)

واقتصر هنا على الانذار الذي هو بمعنى التخويف ، لأن الحديث مع المشركين ، الذين استعجلوا العذاب ، واتخذوا مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى .

والفاء في قوله «فاتقون» فصيحة : أي ، إذا كان الأمر كذلك ، من أن الألوهية لا تكون لغير الله ، فعليكم أن تتقوا عقوبتي لمن خالف أمري ، وعبد غيري .

قال الجمل : وفي قوله « فاتقون » تنبيه على الأحكام الفرعية بعد التنبيه على الأحكام العلمية بقوله . « أنه لا إله إلا أنا » ، فقد جمعت الآيه بين الأحكام الأصلية والفرعيه »(٢) .

---

(١) تفسير الالوسي ج ١٤ ص ٩٤

(٢) حاشية الجمل حـ ٢ ص ٥٥٧

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ أنه منزه عن أن يكون له شريك، وأنه قد أنزل الملائكة بوحيه على من يشاء من عباده، وأنه لا إله يستحق العبادة سواه ...

بعد كل ذلك بين الأدلة الدالة على قدرته ووحدانيته، بأسلوب بديع، جمع فيـــه بين دلالة المخلوق على الخالق، ودلالة النعمة على منعمها، ووبخ المشركين على شركهم، تارة عن طريق خلقه وحده ـ سبحانه ـ للسموات والأرض، وتارة عن طريق خلقه للإنسان، وتارة عن طريق خلقه للحيوان وللنبات، ولغير ذلك من المخلوقات التي لا تحصى ..

قال ـ تعالى ـ: «خلق السموات والأرض بالحق، تعالى عما يشركون».

والباء في قوله «بالحق» للملابسة. والحق: ضد الباطل، وهو هنا بمعنى الحكمة والجد الذي لا هزل فيه ولا عبث معه، كما قال ـ تعالى ـ: «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين. ما خلقناهما إلا بالحق».

أي: خلق ـ سبحانه ـ بقدرته النافذة السموات وما أظلت، والأرض وما أقلت، خلقا ملتبسا بالحكمة الحكيمة، وبالجدية التي لا يحوم حولها لهو أو عبث.

وقوله «تعالى عما يشركون» تنزيه وتقديس لذاته وصفاته، عما قاله المشركون في شأنه ـ عز وجل ـ من أن له ولدا أو شريكا،

قال ـ تعالى ـ: «ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، إذا لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون»[1].

وقد صدر ـ سبحانه ـ هذه الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته، بخلق السموات والأرض، لأن خلقهما أعظم من خلق غيرهما، ولأنهما حاويتان لما لا يحصى من مخلوقاته ـ سبحانه ـ.

قال ـ تعالى ـ: «لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن

---

(١) سورة المؤمنون. الآية ٩١

أكثر الناس لا يعلمون »(١) .

ثم ساق ـ سبحانه ـ دليلا آخر على انفراده بالألوهية عن طريق خلق الإنسان فقال : « خلق الإنسان من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين » .

والمراد بالإنسان هنا جنس الإنسان .

وأصل النطفة : الماء الصافى . أو الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها : نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا قطرت ، أى سال منها الماء وتقاطر .

والمراد بالنطفة هنا : المنى الذى هو مادة التلقيح من الرجل المرأة .

والخصيم : الكثير الخصام لغيره ، فهو صيغة مبالغة . يقال : خصم الرجل يخصم ـ من باب تعب ـ إذا أحكم الخصومة ، فهو خصم وخصيم .

والمبين : المظهر للحجة ، المفصح عما يريده بألوان من طرق البيان .

أى : خلق ـ سبحانه ـ الإنسان ـ من منى يمنى ، أو من ماء مهين خلقا عجيبا فى أطوار مختلفة ، لا يجهلها عاقل ، ثم أخرجه بقدرته من بطن أمه إلى ضياء الدنيا ، ثم رعاه برعايته ولطفه إلى أن استقل وعقل . . . .

حتى إذا ماوصل هذا الإنسان إلى تلك المرحلة التى يجب معها الشكر لله ـ تعالى ـ الذى رباه ورعاه ، إذا به ينسى خالقه ، ويجحد نعمه ، وينكر شريعته ، ويكذب رسله ، ويخاصم ويجادل بلسان فصيح من بعثه الله ـ تعالى ـ لهدايته وإرشاده ، ويقول ـ كما حكى القرآن عنه ـ : « يحيى العظام وهى رميم . . . » .

وإذا فى قوله ـ سبحانه ـ « فإذا هو خصيم مبين » هى التى تسمى بإذا الفجائية التى يؤتى بها لمعنى ترتب الشىء ، على غير ما يظن أن يترتب عليه .

---

(١) سورة غافر . الآية ٥٧

وجيء بها هنا لزيادة التعجيب من حال الإنسان ، لأنه كان المنتظر منه بعد أن خلقه الله ـ تعالى ـ بقدرته ، ورباه برحمته ورعايته ، أن يشكر خالقه على ذلك ، وأن يخلص العبادة له ، لكنه لم يفعل ما كان منتظرا منه ، بل فعل ما يناقض ذلك من الإشراك والمجادلة فى أمر البعث وغيره .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله — تعالى — : « ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شيء جدلا »[1] .

وقوله — تعالى — : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، وكان الكافر على ربه ظهيرا »[2] .

وبعد أن بين — سبحانه — مايدل على وحدانيته وقدرته عن طريق خلقه للسموات والأرض والإنسان ، أتبع ذلك ببيان أدلة وحدانيته وقدرته عن طريق الحيوان فقال ـ تعالى ـ : « والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ، ومنافع ، ومنها تأكلون ... » .

والأنعام : جمع نعم ، وهى الإبل والبقر والغنم . وتطلق على الإبل خاصة .

وانتصب الأنعام عطفا على الانسان فى قوله : « خلق الانسان من نطفة .. » أو هو منصوب بفعل مقدر يفسره المذكور بعده . أى : وخلق الأنعام خلقها .

والدفء : السخونة . ويقابله شدة البرد . يقال : دفئ الرجل ـ من باب طرب ـ فهو دفئ ـ كتعب ـ ودفآن ، إذا لبس مايدفئه ، ويبعد عنه البرد .

والمراد بالدفء هنا : مايتخذ من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها لهذا الغرض .

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٣ .

(٢) « الفرقان » ٥٥ .

وعطف « منافع » على « دفء » من باب عطف العام على الخاص ، إذ المنافع تشمل ما يستدفأ به منها وغيره .

وخص الدفء بالذكر من عموم المنافع ، للعناية به ، وللتنويه بأهميته فى حياة الناس .

أى : ومن مظاهر نعم الله — تعالى — عليكم — أيها الناس — ، أن الله — تعالى — خلق الأنعام ، وجعل لكم فيها ماتستدفئون به ، من الثياب المأخوذة من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، فتقيكم برودة الجو وجعل لكم فيها منافع متعددة ، حيث تتخذون من ألبانها شرابا سائغا للشاربين ، ومن لحومها أكلا نافعا للآكلين .

وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى — : « وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون » .

وقوله — سبحانه — : « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » بيان لنوع آخر من أنواع منافع الحيوان للانسان .

قال أبو حيان فى البحر : والجمال مصدر جمل — بضم الميم — ، يقال رجل جميل وامرأة جميلة وجملاء ، قال الشاعر :

فهى جملاء كبدر طالع   بذت الخلق جميعا بالجمال

والجمال يكون فى الصورة بحسن التركيب ، بحيث يدركه البصر فتتعلق به النفس ...

ويكون فى الأخلاق ، باشتمالها على الصفات المحمودة ، كالعلم والعفة والحلم .. ويكون فى الأفعال ، بوجودها ملائمة لمصالح الخلق ، وجلب المنفعة لهم وصرف الشر عنهم ... »[1]

---

(١) تفسير البحر المحيط ج ٥ ص ٤٧٥ — بتصرف وتلخيص — .

وجمال الأنعام من النوع الأول، ومن جمالها - أيضا - كثرتها ودلالتها على صاحبها من أهل السعة واليسار.

وقوله «تريحون» من الإراحة. يقال: أراح فلان ماشيته إراحة، إذا ردها إلى المراح، وهو منزلها الذى تأوى إليه، وتبيت فيه.

و «تسرحون» من السروح، وهو الخروج بها غدوة من حظائرها إلى مسارحها ومراعيها.

يقال: سَرَحْتُ الماشية أسرحها سرحا وسروحا، إذا أخرجتها إلى المرعى.

ومفعول الفعلين «تريحون وتسرحون» محذوف للعلم به.

والمعنى: ولكم - أيها الناس - فى هذه الأنعام جمال وزينة، حين تردونها بالعشى من مسارحها إلى معاطفها التى تأوى إليها، وحين تخرجونها بالغداة من معاطفها إلى مسارحها ومراعيها.

وخص - سبحانه - هذين الوقتين بالذكر، لأنهما الوقتان اللذان تتراءى الأنعام فيهما، وتتجاوب أصواتها ذهابا وجيئة، ويعظم أصحابها فى أعين الناظرين إليها.

وقدم - سبحانه - الإراحة على التسريح، لأن الجمال عند الإراحة أقوى وأبهج، حيث تقبل من مسارحها وقد امتلأت بطونها، وحفلت ضروعها، وازدانت مشيتها...

وقال - سبحانه - : «تريحون وتسرحون» بالفعل المضارع، لإفادة التجديد والتكرار، وفى ذلك ما يزيد السرور بها، ويحمل على شكر الله - تعالى - على وافر نعمه.

قال صاحب الكشاف: «من الله بالتجمل بها، كما من بالانتفاع بها لأنه من أغراض أصحاب المواشى. بل هو من معاظمها. لأن الرعيان

إذا روحوها بالعشي، وسرحوها بالغداة فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء، أنست أهلها، وفرحت أربابها، وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس . .

فإن قلت: لم قدمت الإراحة على التسريح – مع تأخر الإراحة في الوجود؟

قلت: لأن الجمال في الإراحة أظهر، وإذا أقبلت ملأى البطون، حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها»[1].

ثم بين – سبحانه – منفعة ثالثة من منافع الأنعام، التي سخرها الله – تعالى – للإنسان فقال: «وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم».

والضمير في قوله «وتحمل» يعود إلى الإبل خاصة، لأنها هي التي يحمل عليها.

والأثقال: جمع ثقل. وهو ما يثقل الإنسان حمله من متاع وغيره.

والمراد بالبلد جنسه، لأن الارتحال قد يكون إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى غيرهما.

والشق – بالكسر – المشقة: ومن كل شيء نصفه، والباء للملابسة. أي: إلا بمشقة شديدة. كأن نفوسكم قد ذهب نصفها خلال تلك الرحلة الطويلة الشاقة التي لم تستخدموا فيها الأنعام.

قال القرطبي: «وشق الأنفس: مشقتها وغاية جهدها. وقراءة العامة بكسر الشين ...

قال المهدوي: وكسر الشين وفتحها في «شق» متقاربان. وهما بمعنى المشقة ...

---

(١) تفسير الكشاف حـ ص .

وقرأ أبو جعفر « إلا بشق الأنفس » ـ بفتح الشين ـ وهما لغتان مثل رق ورق ...

والشق ـ أيضاً ـ بالكسر ـ النصف . وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى . أى : لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوة وذهاب شق منها ... »[1]

والمعنى : ومن فوائد هذه الأنعام ـ أيضا ـ، أنها تحمل أمتعتكم وأثقالكم من بلد إلى بلد آخر بعيد ، هذا البلد الآخر البعيد ، لم تكونوا واصلين إليه بدونها ، إلا بعد تعب شديد ، وجهد مضن ، وكلفة تذهب معها نصف قوتكم..

والتنكير فى « بلد » لإفادة معنى البعد ، لأن بلوغ المسافر إليه بمشقة ، هو من شأن البلد البعيد ، الذى يصعب الوصول إليه بدون راحلة .

وجمله « لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » التى هى صفة لبلد ، تشير إلى هذا المعنى .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى ـ : « الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ، ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون »[2] .

وقوله ـ سبحانه ـ : « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم ، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون »[3] .

وجملة « إن ربكم لرءوف رحيم » تعليل لخلقه ـ سبحانه ـ الأنعام لخدمة الإنسان .

أى : خلق لكم هذه الأنعام ، لأن رءوف رحيم بكم ، حيث لم يترككم تحملون أثقالكم بأنفسكم ، وتقطعون المسافات الطويلة على أرجلكم ، بل

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٠ ص ٧١ .
(٢) سورة غافر الآيتان ٧٩ ، ٨٠ .
(٣) سورة يس . الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

أوجد هذه الأنعام لمنافعكم ومصالحكم . ثم ذكر ـ سبحانه ـ أنواعا أخرى من الحيوان المنتفع به ، فقال ـ تعالى ـ : والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق مالا تعلمون » .

قال الجمل : الخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه ، بل من معناه وهو فرس . وسميت خيلا لاختيالها فى مشيها . والبغال جمع بغل : وهو المتولد بين الخيل والحمير ... »[1]

واللام فى قوله « لتركبوها » للتعليل .

ولفظ « وزينه » مفعول لأجله ، معطوف على محل « لتركبوها » .

والزينة : اسم لما يتزين به الإنسان .

قال القرطبى : هذا الجمال والتزيين وإن كان من متاع الدنيا ، إلا أن الله تعالى ـ أذن به لعباده ، ففى الحديث الشريف : « الإبل عز لأهلها ، والغنم بركة والخيل فى نواصيها الخير » خرجه البرقانى وابن ماجة فى السنن ... »[2]

والمعنى : ومن مظاهر فضله عليكم ، ورحمته بكم ، أنه خلق لمنفعتكم ـ أيضا ـ الخيل والبغال والحمير ، لتركبوها فى غزوكم وتنقلاتكم ، ولتكون زينة لكم فى أفراحكم ومسراتكم .

وأتى ـ سبحانه ـ باللام فى « لتركبوها » دون مابعدها ، للإشارة إلى أن الركوب هو المقصود الأصلى بالنسبة لهذه الدواب ، أما التزين بها فهو أمر تابع للركوب ومتفرع عنه .

قال صاحب الظلال : وفى الخيل والبغال والحمير ، تلبية للضرورة فى الركوب ، وتلبية لحاسة الجمال فى الزينة .

وهذه اللفتة لها قيمتها فى بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص ٥٥٩

(٢) تفسير القرطبى جـ١٠ ص ٧٩

فالجمال - المتمثل فى الزينة - عنصر له قيمة فى هذه النظرة . وليست النعمة هى هى مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ، بل تلبية الأشواق الزائدة عن الضرورات . تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الانسانى المرتفع على ميل الحيوان ، وحاجة الحيوان »[1] .

وقال بعض العلماء : وقد استدل بهذه الآية ، القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل بالركوب والزينة يدل على أنها مخلوقه لهـــذه المصلحه دون غيرها . . .

وأجاب المجوزن لأكلها ، بأن ذكر ماهو الأغلب من منافعها - وهو الركوب والزينة - لاينافى غيره ...

وقد ورد فى حل أكل لحوم الخيل أحاديث منها مافى الصحيحين وغيرهما ، من حديث أسماء قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم — فرسا فأكلناه . . . .

وثبت - أيضا - فى الصحيحين من حديث جابر قال : نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن فى الخيل »[2] .

وقد بسط الإمام القرطبى القول فى هذه المسألة ، ورجح حل أكل لحوم الخيل وساق الأدلة والأحاديث فى ذلك ثم قال : « وكل تأويل من غير ترجيح فى مقابلة النص ، فإنما هو دعوى ، لايلتفت إليه ، ولايعرج عليه »[3] .

ويعجبنى فى هذه المقام قول الامام البغوى : ليس المراد من الآيه بيان التحليل والتحريم ، بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه ، وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته ، والدليل الصحيح المعتمد عليه فى إباحة لحوم الخيل أن السنة مبينة للكتاب .

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن حـ١٤ ص ٢١٦١ للأستاذ سيد قطب .

(٢) تفسير القاسمى حـ١٠ ص ٣٨٧٠ .

(٣) راجع تفسير القرطبى حـ١٠ ص ٧١ ، وتفسيرا ابن كثير حـ ص٤٧٦ طبقة دار الشعب .

ولما كان نص الآية يقتضى أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة ، وكان الأكل مسكوتا عنه ، ودار الأمر فيه على الإباحة والتحريم، وردت السنة النبوية بإباحة لحوم الخيل ، وبتحريم لحوم البغال والحمير فوجب الأخذ بما جاء فى السنة التى هى بيان للكتاب »[1] .

هذا وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمه بما يدل على عظيم قدرته ، وسعة علمه ، فقال : « ويخلق مالا تعلمون » .

أى : ويخلق — سبحانه — فى الحال والاستقبال ، مالا تعلمونه — أيها الناس — من أنواع المخلوقات المختلفة سوى هذه الدواب ، كالسفن التى تمخر عباب الماء ، والطائرات التى تشق أجواز الفضاء ، والسيارات التى تنهب الأرض نهبا لسرعتها ، وغير ذلك من أنواع المخلوقات التى لا يعلمها سواه — سبحانه - والتى أوجدها لمنفعتكم ومصلحتكم ..

وهذه الجملة الكريمه تدل على أن القرآن من عند الله - تعالى - فقد أوجد - سبحانه - العقول البشريه ، التى ألهمها صنع الكثير من المخترعات النافعه فى البر وفى البحر وفى الجو ، والتى لم يكن للناس معرفة بها عند نزول القرآن الكريم ...

وتشير - أيضا - إلى مزيد فضل الله - تعالى - على الناس ، حيث أخبرهم بأنه سيخلق لهم فى مستقبل الأيام من وسائل الركوب وغيرها ، مافيه منفعة لهم ، سوى هذه الدواب التى ذكرها .

فعليهم أن يستعملوا هذه الوسائل فى طاعة الله — تعالى — ، لا فى معصيته وعليهم أن يتقبلوا هذه الدلائل ، وأن يفتحوا عقولهم لكل ما هو نافع .

ورحم الله صاحب الظلال ، فقد قال عند تفسيره الآيه ما ملخصه : يعقب الله — تعالى — على خلق الأنعام والخيل والبغال والحمير بقوله « ويخلق

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٦٠

مالا تعلمون ، ليظل المجال مفتوحا في التصور البشرى ، لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والركوب والزينه ...

وحتى لا يقول بعض الناس : إنما إستخدام آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير ، فلا نستخدم سواها ، وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ماعداها ...

ولقد جدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينه ، لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان . ستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان : والقرآن يهيء لها القلوب والأذهان ، بلا جمود ولا تحجر ، « ويخلق مالا تعلمون »[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - دلائل وحدانيته وقدرته ، عن طريق خلق السموات والأرض والإنسان والدواب ... أتبع ذلك ببيان أنه - عز وجل - كفيل بالإرشاد إلى الطريق المستقيم لمن يتجه إليه فقال - تعالى - : « وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين » .

والقصد : الاستقامه . والسبيل : الطريق والقصد منه : هو المستقيم الذى لا إعوجاج فيه .

يقال : سبيل قصد وقاصد ، أى : مستقيم . قال الشاعر :

ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيل ، ومنه ذو دخل

قال الجمل بما ملخصه : « وعلى الله » أى : تفضلا « قصد السبيل » على تقدير مضاف ، أى : وعلى الله بيان قصد السبيل . وهو بيان طريق الهدى من الضلالة ، وهو من إضافة الصفه إلى الموصوف ، والقصد مصدر يوصف به . يقال : سبيل قصد وقاصد أى : مستقيم ، كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه . والمراد بالسبيل : جنسه ... »[2]

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢١٦١

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٦١

والضمير فى قوله « ومنها جائر » يعود إلى السبيل . والجائر : المائل عن الاستقامة ، المنحرف عن الجادة وهو صفة لموصوف محذوف . أى : ومنها سبيل جائر .

أى : على الله ـ تعالى ـ وحده ، تفضلا منه وكرما ، بيان الطريق المستقيم وهو طريق الحق ، الذى يوصل من مسلكه إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهذا الطريق الحق : هو الذى جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ومن الطريق ما هو حائد عن الإستقامة ، وهو كل طريق يخالف ما جاء به خاتم الرسل ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عقائد وشرائع وآداب .

قال ـ تعالى ـ : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه . ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . »[1] .

فالمراد بالطريق القصد : الطريق الموصل إلى الإسلام . والمراد بالطريق الجائر : الطريق الموصل إلى غيره من ملل الكفر والضلال .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة ، ببيان أن الهداية والإضلال بقدرته ومشيئته ، فقال ـ تعالى ـ : « ولو شاء لهداكم أجمعين » .

أى : ولو شاء ـ سبحانه ـ هدايتكم ـ أيها الناس ـ إلى الطريق المستقيم ، لهداكم جميعا ، ولكنه ـ عز وجل ـ لم يشأ ذلك ، بل اقتضت حكمته أن يخلق الناس مستعدين للهدى والضلال ، وأن يترك لهم إختيار أحد الطريقين فكان منهم من استحب العمى على الهدى ، وكان منهم من سلك الطريق المستقيم . وسيجازى ـ سبحانه ـ الذين أساؤا بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

قال تعالى ـ : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل . إما شاكرا وإما كفورا »[2] .

---

(١) سورة الأنعام . الآية ١٥٣ (٢) سورة الإنسان الآيتان ٢ ، ٣

وقال ـ سبحانه ـ : «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا . . .»[1] .

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر فضله على عباده عن طريق خلق الأنعام وغيرها من البهائم ، التى لهم فيها منافع ، أتبع ذلك ببيان نعمه عليهم فى إنزال المطر ، فقال ـ تعالى ـ :

« هو الذى أنزل من السماء ماء ، لـكم منه شرابٌ ، ومنه شجرٌ فيه تُسيمُون (١٠) يُنبتُ لـكم به الزَّرْعَ ، والنخيلَ ، والأعنابَ ، ومن كل الثمرات ، إنّ فى ذلكَ لآيةً لقومٍ يتفكرُونَ (١١) :

والمراد بالسماء : السحاب المرتفع فى طبقات الجو ، حيث ينزل منه الماء بقدرة الله ـ تعالى ـ والشراب : اسم المشروب الذى يشربه الإنسان والحيوان وغيرهما .

والشجر : يطلق على النبات ذى الساق الصلبة على سبيل الحقيقة ، ويطلق على العشب والكلأ على سبيل المجاز ، وهو المراد هنا ، لأنه هو الذى ترعاه الأنعام .

والضمير فى قوله ـ سبحانه ـ «ومنه شجر» يعود على الماء ، باعتباره السبب فى وجود الشجر .

قال الآلوسى : قوله ـ سبحانه ـ «ومنه شجر» أى : نبات مطلقا سواء أكان له ساق أم لا . كما نقل عن الزجاج ، وهو حقيقة فى الأول ، ومن إستعماله فى الثانى قول الراجز :

نعلفها اللحم إذا عز الشجر والخيل فى إطعامها اللحم ضرر

فإنه قيل : الشجر فيه بمعنى الكلأ ، لأنه الذى يعلف . . .»[2] :

---

(١) سورة يونس الآيه ٩٩ (٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٠٥

وقوله : «تسيمون» من الاسامة ، بمعنى إطلاق الابل وغيرها للسوم، أى الرعى . يقال : أسام فلان إبله للرعى إسامة ، إذا أخرجها إلى المرعى . وسامت هى تسوم سوما ، إذا رعت حيث شاءت .وأصل السوم : الابعاد فى المرعى .

والمعنى : هو ـ سبحانه ـ وحده وليس غيره : الذى غمركم بنعمه ، حيث أنزل لكم من السحاب ماء كثيرا ، هذا الماء الكثير المنزل بقدر معلوم ، منه تأخذون ماتشربونه وما تنتفعون فى حوائجكم الأخرى، وبسببه تخرج المراعى التى ترعون فيها دوابكم .

فالآيه الكريمه دليل آخر من الأدلة على وحدانيه الله ـ تعالى ـ وقدرته ، وبديع خلقه ، حيث أنزل ـ سبحانه ـ المطر من السماء ، ولو شاء لأمسكه ، أو لأنزله غير صالح للشراب .

قال ـ تعالى ـ : « أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون »[1] .

وأتى ـ سبحانه ـ بلفظ « فى » المفيدة للظرفيه ، فى قوله ـ تعالى ـ « فيه تسيمون » ؛ للإشارة إلى أن الرعى فى هذا الشجر، قد يكون عن طريق أكل ماتحته من الأعشاب .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ... » تفصيل لأهم منافع الماء .

أى : يخرج لكم من الأرض ، بسبب الماء الذى أنزله عليه من السماء « الزرع » الذى هو أصل أغذيتكم ، وعماد معاشكم ، كالقمح والشعير وغيرهما « والزيتون » الذى تستعملونه إداما فى أغذيتكم « والنخيل والأعناب » اللذين فيهما الكثير من الفوائد ، ومن التلذذ عند أكل ثمارها .

---

(١) سورة الواقعه الآيات ٦٨ — ٧٠

وأخرج لكم - أيضا - بسبب هذا الماء ، من كل الثمرات ، التى تشتهونها وتنتفعون بها ، والتى تختلف فى أنواعها ، وفى مذاقها ، وفى روائحها ، وفى ألوانها ، مع أن الماء الذى سقيت بـــه واحد ، والأرض التى نبتت فيها متجـــاورة .

ولاشك أن فى هذا الانبات بتلك الطريقة ، أكبر دليل على قدرة الله - تعالى - . لأنه لا يقدر على ذلك سواه - سبحانه - .

وأسند - سبحانه - الإنبات إليه فقال : « ينبت لكم به .... » ؛ لأنه الفاعل الحقيق لهذا الإنبات والإخراج للزروع من الأرض . أما غيره - سبحانه - فيلق الحب فى الأرض ، ويرجو الثمار والإنبات منه - عز وجل .

قال - تعالى : « أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون »[1].

وقال - سبحانه - : « وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »[2] .

وقال - عز وجل - : « أم من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون »[3] .

وختم - سبحانه - الآية بقوله « إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » للحض على التفكر والتأمل فى عظيم قدرته - سبحانه - حتى يصل المتأمل إلى إخلاص العبادة له - عز وجل .

---

(١) سورة الواقعة . الآيات ٦٣ - ٧٠ .
(٢) سورة الرعد الآية ٤ .
(٣) سورة النمل الآية ٦٠ .

أى : إن فى ذلك المذكور ، من إنزال الماء من السماء ، وإنبات الزروع والثمار بسببه ، لآية باهرة ، ودلالة عظيمة ، على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، لقوم يحسنون التفكير ، ويجيدون التأمل فى خلقه ، أما الذين لايحسنون التفكير والتأمل ، فهم كالأنعام بل هم أضل .

قال الآلوسى مالخصه : وقال ـ سبحانه ـ : « لقوم يتفكرون » لأن من تفكر فى أن الحبة والنواة ، تقع فى الأرض ، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها ، فينشق أسفلها ، فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الأرض ، وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة فى الوقوع ....

من تفكر فى ذلك علم أن من هذه آثاره وأفعاله ، لايمكن أن يشبهه غيره فى صفة من صفات الكمال ، وفضلا عن أن يشاركه فى أخص صفاته التى هى الألوهية واستحقاق العبادة ....

وحيث كان الاستدلال بما ذكر ، مشتملا على أمر خفى محتاج إلى إلى التفكر والتدبر لمن له نظر سديد ، ختم ـ سبحانه ـ الآية بالتفكير »(١).

ثم ساق ـ سبحانه ـ دلائل أخرى مما خلق لنفع الإنسان، تدل على وحدانيته وقدرته ، فقال ـ تعالى :

« وسخَّر لكم الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ، والنجومُ مسخراتٌ بأمرِه . إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقوم يعقلونَ (١٢) وما ذرَأَ لكم فى الأرضِ مختلفاً ألوانُه ، إنَّ فى ذلكَ لآيةً لقومٍ يذَّكَّرُون (١٣) .

وقوله « سخر » من التسخير بمعنى التذليل والتكليف ، يقال ، سخر فلان

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٠٨ .

فلانا تسخيرا ، إذا كلفه عملا بلا أجرة . والمراد به هنا : الإعداد والتهيئة لما يراد الانتفاع به .

وأنه - سبحانه - سخر لكم « الشمس والقمر » بد أبان في سيرهما بدون كلل أو اضطراب ، بل يسيران من أجل منفعتكم ومصلحتكم بنظام ثابت ، كما قال - تعالى ؛ « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون »[1] .

وأنه - سبحانه - أوجد النجوم مسخرات بأمره وإذنه ، لكي تهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ...

هذا وقد قرأ جمهور القراء هذه الأسماء : الليل والنهار ... إلخ بالنصب على المفعولية لفعل « سخر » كما قرأ الجمهور - أيضاً - « مسخرات » بالنصب على الحالية .

وقرأ ابن عامر : « والشمس والقمر والنجوم » بالرفع على الابتداء ، وقرأ - أيضا قوله - « مسخرات » بالرفع على أنه خبر عنها .

وقرأ حفص برفع النجوم ومسخرات ، على أنهما مبتدأ وخبر ، أما بقية الأسماء السابقة فقرأها بالنصب .

وقوله « بأمره » متعلق بمسخرات . والمراد بأمره : إرادته ومشيئته وتدبيره ، الجاري على هذا الكون وفق حكمته وإذنه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

أي : إن في ذلك المذكور من تسخير الليل والنهار وغيرهما لمنفعتكم ومصلحتكم - يا بني آدم - لآيات بينات ، ودلائل واضحات ، على وجوب العبادة لله - تعالى - وحده ، لقوم يعقلون نعم الله - تعالى - ، ويستدلون بها على وحدانيته - سبحانه - وقدرته .

---

(١) سورة يس الآية ٤٠ .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين »(١) .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه . . . » معطوف على ماقبله من النعم وأصل الذرأ : الخلق بالتناسل والتوالد عن طريق الحمل والتفريخ . .

قال القرطبي : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا ، أى خلقهم ، ومنه الذرية وهى نسل الثقلين ، والجمع الذرارى . ويقال : أنمى الله ذرأك وذروك أى : ذريتك . . . »

والمعنى : وسخر لكم ـ أيضاً ـ ماأوجده فى الأرض من أجل منفعتكم من عجائب الامور ، ومختلف الاشياء ، من حيوان ونبات ، ومعادن مختلفة الالوان والاجناس والخواص .

ولاشك أن فى اختلاف الالوان والمناظر والهيئات وغير ذلك ، فيه الدلاله الواضحة على قدرة الله ـ تعالى ـ ، وعلى أنه الخالق لكل شىء .

قال ـ تعالى ـ : ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . . . »

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله « إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون أى : إن فى ذلك الذى بيناه لكم ، لآية واضحة على قدرة الله ـ تعالى ، لقوم يعتبرون ، ويتذكرون آلاء الله ونعمه ، فيشكرونه عليها ، ويخلصون له العبادة .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

وبعد أن ذكر - سبحانه - جملة من نعمه التى أوجدها لعباده فى البر ، أتبع ذلك ببيان جانب من نعمه عليهم عن طريق خلقه للبحر ، فقال - تعالى - :

« وهو الذى سخَّر البحرَ لتأكلُوا منهُ لحْماً طريّاً ، وتَسْتخرِجُوا منهُ حِلْيةً تلبَسونَها ، وترَى الفُلكَ مَواخرَ فيه ، ولتبتغُوا من فضْلِه ، ولعلـكُم تشكُرون (١٤) » .

ففى هذه الآيه الكريمة بين - سبحانه - أربع نعم على عباده فى تسخير البحر لهم .

أما النعمة الأولى فتتجلى فى قوله - تعالى - : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا » .

والطرى : ضد اليابس . والمصدر الطراوة ، وفعله طَرُوَ بوزن خشن وقرب . . .

أى : وهو - سبحانه - وحده الذى ذلل لكم البحر ، بحيث مكنكم من الانتفاع به ، وأقدركم على الركوب عليه ، وعلى الغوص فيه ، وعلى الصيد منه ، لتأكلوا من أسماكه لحما طريا غضا شهيا .

ووصف - سبحانه - لحم أسماكه بالطراوة ، لأن أكله فى هذه الحالة أكثر فائدة ، وألذ مذاقا ، فالمنة بأكله على هذه الحالة أتم وأكمل .

وقال بعض العلماء : وفى وصفه بالطراوة ، تنبيه إلى أنه ينبغى المسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع إليه الفساد والتغير ، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء ، فسبحان الخبير بخلقه ، ومعرفته ما يضر إستعماله وما ينفع ، وفيه أيضا إيماء إلى كمال قدرته - تعالى - فى خلقه الحلو الطرى فى الماء المر الذى لا يشرب .

وقد كره العلماء أكل الطافى منه على وجه الماء ، وهو الذى يموت حتف

أنفه فى الماء فيطفو على وجهه ، لحديث جابر ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «ماانضب عنه الماء فكلوا، وما لفظه فكلوا ، وما طفا فلا تأكلوا» .

فالمراد من ميتة البحر فى الحديث : «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» مالفظه البحر لا مامات فيه من غير آفة»[1] .

وقوله «وتستخرجوا منه حليه تلبسونها» نعمة ثانية من نعم الله ـ تعالى ـ للإنسان فى تسخير البحر له .

والحلية ـ بالكسر ـ إسم لمايتحلى به الناس . وجمعها حِلى وحُلى ـ بضم الحاء وكسرها ـ يقال . تحلت المرأة إذا لبست الحلى، أى: ومن فوائد تسخير البحر لكم أنه سبحانه أقدركم على الغوص فيه ، لتستخرجوا منه ما يتحلى به نساؤكم كاللؤلؤ والمرجان وما يشبههما .

قال ـ تعالى ـ «مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان»[2] .

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ تستخرجوا . . » يشير إلى كثرة الاخراج . فالسين والتاء للتأكيد ، مثل استجاب بمعنى أجاب . كما يشير إلى أن من الواجب على المسلمين أن يباشروا بأنفسهم إستخراج ما فى البحر من كنوز وألا يتركوا ذلك لأعدائهم .

وأسند ـ سبحانه ـ لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور فقال : «تلبسونها» على سبيل التغليب ، وإلا فإن هذه الحلية يلبسها النساء فى معظم الأحيان .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : «تلبسونها» أى : تلبسها نساؤكم ، وأسند الفعل إلى ضمير الرجال ، لاختلاطهم بهم ، وكونهم متبوعين ، أو

---

(١) تفسير المراغى جـ ١٤ ص ٦١ (٢) سورة الرحمن لآيات ١٩ ، ٢٢

لأنهم سبب لتزينهن ، فإنهن يتزين ليحسن في أعين الرجال ، فكأن ذلك زينتهم ولباسهم .

قال ابن المنير : ولله در مالك ـ رضى الله عنه ـ حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها ، وذلك مقدر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل . فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ، ومن زينتهن ، حتى جعل كحظ المرأة من مالها وزينتها ، فعبر عن حظه في لبسها بلبسه . . »[1]

وقال القرطبي : « امتن ، الله ـ تعالى ـ على الرجال والنساء إمتنانا عاما بما يخرج من البحر ، فلا يحرم عليهم شيء منه ، وإنما حرم الله ـ تعالى ـ على الرجال الذهب والحرير ، ففي الصحيح عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لاتلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » .

وروى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتخذ خاتما من ذهب .. ، فاتخذ الناس مثله ، فرمى به وقال : « لا ألبسه أبدا » . ثم اتخذ خاتما من فضة فاتخذ الناس خواتيم الفضة ... »[2]

وقوله ـ سبحانه ـ : « وترى الفلك مواخر فيه » نعمة ثالثة من نعمه ـ تعالى ـ في تسخير البحر للناس وأصل المخر : الشق . يقال: مخر الماء والأرض إذا شقها . ويقال مخرت السفينه تمخر ، وتمخُر ، مخرا ، ومخورا ، إذا جرت في الماء وأخذت تشقه بمقدمتها .

أي : وترى ـ أيها العاقل ـ بعينيك السفن وهي تشق البحر بسرعة ، متجهة من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى آخر ، لا تحرسها إلا رعاية الله تعالى وقدرته ، كما قال ـ سبحانه ـ : وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١١٣

(٢) تفسير القرطبي جـ ١٠ص ٨٧

وخلقنا لهم من مثله مايركبون ، وإن نشأ نغرقهم فلاصريخ لهم ولاهم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين »[1] .

والتعبير بقوله : « وترى .. » لاستحضار الحالة العجيبة عن طريق الرؤية البصرية ، وهى حالة تدل على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده . حيث سخر لهم السفن لتجرى فى البحر بأمره .

ثم بين ـ سبحانه ـ النعمة الرابعة من نعم تسخير البحر للناس فقال تعالى: «ولتبتغوا من فضله » والابتغاء : الطلب للشىء عن رغبة ومحبة .

أى : وسخر لكم البحر ـ أيضا ـ لتستخرجوا منه الحلية ، ولتطلبوا فضل الله تعالى ورزقه ، عن طريق التجارات والأسفار على ظهر البحر من مكان إلى آخر . سعيا وراء الربح .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بحض الناس على شكره على نعمه فقال « ولعلكم تشكرون » .

أى : ولعلكم تشكرون الله ـ تعالى ـ على آلائه ، حيث سخر لكم البحر، وجعله وسيلة من وسائل منفعتكم ومعاشكم .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن فوائد الجبال والأنهار والسبل والنجوم ، فقال ـ تعالى ـ :

« وألقَى فى الأرضِ رواسِيَ أنْ تَميدَ بكم ، وأنهاراً ، وسُبُلاً لعلكُم تهتدون (١٥) وعلاماتٍ وبِالنجمِ هُمْ يهتدُون (١٦) » .

ولفظ : « رواسى » جمع راس من الرسو ـ بفتح الراء وسكون السين ـ بمعنى الثبات والتمكن فى المكان، يقال رسا الشىء يرسو إذا ثبت . وهو صفة لموصوف محذوف . أى : جبالا رواسى .

---

(١) سورة يس الآيات ٤١ ـ ٤٤

و « تميد » أى تضطرب وتميل . يقال : ماد الشيء يميد ميدا ، إذا تحرك ، ومادت الأغصان إذا تمايلت أى : وألقى ـ سبحانه ـ فى الأرض جبالا ثوابت لكى تقر وتثبت ولا تضطرب .

فقوله « أن تميد بكم » تعليل لإلقاء الجبال فى الأرض .

قال القرطبي : وروى الترمذى بسنده عن أنس بن مالك عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتضطرب ، فخلق الجبال عليها فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال . قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم ، الحديد . قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال نعم النار . قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال نعم الماء ، قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال نعم الريح . قالوا يارب : فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال نعم ، ابن آدم إذا تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله[1] .

هذا ، ومن الآيات التى تشبه هذه الآية قوله ـ تعالى ـ : « خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم .. »[2] .

وقوله ـ تعالى ـ : ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا »[3] .

ثم بين ـ سبحانه ـ نعما أخرى لما ألقاه فى الأرض فقال : « وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون » .

أى : وجعل فى الأرض « أنهارا » تجرى من مكان إلى آخر ، فهى تنبع فى مواضع . وتصب فى مواضع أخرى ، وفيها نفع عظيم للجميع ، إذ منها يشرب الناس والدواب والأنعام والنبات ..

وجعل فيها كذلك طرقا ممهدة ، يسير فيها السائرون من مكان إلى آخر .

---

(١) تفسير القرطبى حـ ١٠ ص ٩٠ (٢) سورة لقمان الآية ١٠

(٣) سورة النبأ الآيه ٦ ، ٧ .

« لعلكم تهتدون » بتلك السبل إلى المكان الذى تريدون الوصول إليه، بدون تحير أو ضلال .

وقد كرر القرآن الكريم هذا المعنى فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى - : « والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا »[١].

والمراد بالعلامات فى قوله - تعالى - : وعلامات وبالنجم هم يهتدون « الأمارات والمعالم التى يضعها الناس على الطرق بإلهام من الله - تعالى - ، للاهتداء بها عند السفر .

والمراد بالنجم : الجنس ، فيشمل كل نجم يهتدى به المسافر .

أى ومن مظاهر نعمه - أيضا - ، أنه - سبحانه - جعل فى الأرض معالم وأمارات من جبال كبار ، وآكام صغار ، وغير ذلك ، ليهتدى بها المسافرون فى سفرهم ، وتكون عونا لهم على الوصول إلى غايتهم ، وبمواقع النجوم هم يهتدون فى ظلمات البر والبحر ، إلى الأماكن التى يبغون الوصول إليها .

والضمير « هم » فى قوله « وبالنجم هم يهتدون » يشمل كل سالك فى ظلمات البر والبحر ، ويدخل فيه دخولا أوليا أهل مكة، لأنهم كانوا كثيرى الأسفار للتجارة ، كما كانوا معروفين بالاهتداء فى سيرهم بمواقع النجوم .

وقدم - سبحانه - المتعلق وهو « وبالنجم » للاهتمام به ، إذ أن الاهتداء بالنجوم ، أمر هام فى حياة المسافرين ولا سيما الذين يسافرون فى البحر .

وعدل - سبحانه - عن الخطاب إلى الغيبة فى قوله « هم يهتدون » على سبيل الالتفات ، ليزداد الكلام طلاوة وانتباها إلى ما اشتمل عليه .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون »[٢] .

---

(١) سورة نوح الآية ١٩ ، ٢٠ . (٢) سورة الأنعام الآية ٩٧.

وإلى هنا نرى السورة الكريمة ، التى هى سورة النعم ، قد حدثتنا فى بضع عشرة آية . عن ألوان متنوعة من نعم الله — تعالى — على عباده .

حدثتنا عن نعمة الروح الذى يحيي القلوب الميتة وينقذها من الكفر والضلال ..

وحدثتنا عن نعمة خلق الإنسان ، وخلق السموات والأرض ...

وحدثتنا عن نعمة خلق الأنعام ، والخيل والبغال والحمير ...

وحدثتنا عن نعمة إنزال الماء من السماء ، وما يترتب على هذه النعمة من فوائد ومنافع .

وحدثتنا عن نعمة تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ... لمصلحة الإنسان .

وحدثتنا عن نعمة تسخير البحر وتذليله للانتفاع بخيراته .

وحدثتنا عن نعمة الجبال والأنهار والسبل ...

حدثتنا عن كل ذلك وغيره . لكى يخلص الإنسان عبادته لخالقه ، ولكى يطيعه حق الطاعة ، ويشكره عليها ، ويستعملها فيما خلقت له .

وبعد أن حدثتنا السورة عن كل ذلك ، ساقت لنا جملة من صفات الله — تعالى — . ووبخت المشركين على شركهم ، وأبطلته بأبلغ أسلوب ، ودعتهم إلى الدخول فى الدين الحق ، فقال — تعالى — :

« أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ ؟ أفلا تذكَّرون (١٧) وإن تَعدُّوا نعمةَ اللهِ لا تحصُوها ، إنّ اللهَ لغفورٌ رحيمٌ (١٨) واللهُ يعلمُ ما تُسِرُّونَ وما تُعلِنُونَ (١٩) والذينَ يدعُونَ من دُونِ اللهِ لا يخلقونَ شيئاً وهُمْ يُخلَقونَ (٢٠) أمواتٌ غيرُ أحياءٍ وما يشعُرونَ أيانَ يُبعثونَ (٢١) إلهُكُم إلهٌ واحدٌ ، فالذينَ لا يؤمِنُونَ بالآخرةِ قلوبُهم مُنكِرةٌ وهم مُستكبِرُونَ (٢٢) لا جرَمَ أنَّ اللهَ يعلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعلِنُون ، إنَّهُ لا يُحِبُّ المُستكبِرِينَ (٢٣) » .

والاستفهام فى قوله ـ سبحانه ـ : « أفمن يخلق كمن لا يخلق . . . » للإنكار والتوبيخ لأولئك المشركين الذين عبدوا غير الله ـ تعالى ـ .

أى : أفمن يخلق هذه الأشياء العجيبة ، والمخلوقات البديعة ، التى بينا لكم بعضها ، وهو الله ـ عز وجل ـ ، كمن لا يخلق شيئا على سبيل الإطلاق ، بل هو مخلوق ، كتلك الأصنام والأوثان وغيرها ، التى أشركتموها فى العبادة مع الله ـ تعالى ـ ؟

إن فعلكم هذا لدليل واضح على جهلكم ـ أيها المشركون ـ وعلى انطماس بصيرتكم ، وقبح تفكيركم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام ، فلماذا جىء بمن الذى هو لأولى العلم ؟

قلت : فيه أوجه : أحدها أنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم . . .

الثانى : المشاكلة بينه وبين من يخلق .

الثالث : أن يكون المعنى : أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم ، فكيف بما لا علم عنده . كقوله ـ تعالى ـ « ألهم أرجل يمشون بها . . . » يعنى أن الآلهة ـ التى عبدوها ـ حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب لأن هؤلاء أحياء وهم أموات ، فكيف تصح لهم العبادة ، لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا .

فإن قلت الآية إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيها بالله ـ تعالى ـ : فكان من حق الإلزام أن يقال : أفمن لا يخلق كمن يخلق ؟

قلت حين جعلوا غير الله مثل الله فى تسميته باسمه والعبادة له،وسووا بينه

وبينه ، فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبهوها بها ، فأنكر عليهم ذلك بقوله : « أفمن يخلق كمن لا يخلق .. »[1] .

وقوله – سبحانه – « أفلا تذكرون » زيادة فى توبيخهم وفى التهكم بهم .

أى : أبلغ بكم السفه والجهل أنكم سويتم فى العبادة بين من يخلق ومن لا يخلق ، والحال أن هذه التسويه لا يقول بها عاقل ، لأن من تفكر أدنى تفكر ، وتأمل أقل تأمل ، عرف وتيقن أنه لا يصح التسوية فى العبادة بين الخالق والمخلوق ، فهلا فكرتم قليلا فى أمركم ، لكى تفيئوا إلى رشدكم ، فتخلصوا العبادة لله الخلاق العليم .

ثم ذكرهم – سبحانه – بنعمه على سبيل الإجمال ، بعد أن فصل جانباً منها فى الآيات السابقه فقال – تعالى – « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »

والمراد بالنعمة هنا جنسها ، الذى يشمل كل نعمه ، لأن لفظ العدد والإحصاء قرينة على ذلك ، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع اعتمادا على القرينه – من أبلغ الأساليب الكلاميه .

أى : وإن تعدوا نعمة الله – تعالى – التى أنعمها عليكم ، فى أنفسكم ، وفيما سخره لكم ، لا تستطيعون حصر هذه النعم لكثرتها وتنوعها .

وما دام الأمر كذلك فاشكروه عليها ما استطعتم . وأخلصوا له العبادة والطاعه .

وقوله : « إن الله لغفور رحيم » استئناف قصد به فتح باب الأمل أمامهم لكى يتداركوا ما فرط منهم من جحود وتقصير فى حقه – سبحانه –

أى : إن الله – تعالى – لغفور لعباده على ما فرط منهم ، متى تابوا إليه

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٠٥ – بتصرف يسير –

توبة نصوحا ، رحيم بهم ، حيث لم يؤاخذهم بذنوبهم ، بل منحهم نعمه مع تقصيرهم فى شكره - تعالى .

قال ابن كثير - رحمه الله - قوله : « إن الله لغفور رحيم » أى يتجاوز عنكم . ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير ، ويجازى على اليسير »(١) .

وقوله - سبحانه - : « والله يعلم ما تسرون وما تعلنون » بيان لكمال علمه - تعالى - وتحذير من الوقوع فيما نهى عنه ، لأنه - تعالى - لا تخفى عليه خافية .

أى : والله - تعالى - وحده ، يعلم ما تسرونه من أقوال وأفعال ، وما تظهرونه منها ، وهو محص عليكم ذلك ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .

ثم وصف - سبحانه - الأوثان التى يعبدها المشركون من دونه ، بثلاثة أوصاف ، تجعلها بمعزل عن النفع ، فضلا عن استحقاقها للعبادة ، فقال - تعالى « والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون. اموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون »

وصفها - أولا - بالعجز التام ، فقال - تعالى - : « والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا . . . »

أى : وهذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله - تعالى - لا تخلق شيئا من المخلوقات مهما صغرت ، بل هم يخلقون بأيديكم ، فأنتم الذين تنحتون

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٨٢ .

الأصنام . كما قال - سبحانه - حكاية عن إبراهيم - عليه السلام - الذى قال لقـــومه على سبيل التهكم بهم : « أتعبدون ما تنحتون . والله خلقـــكم وما تعملون »[١] .

وإذا كان الأمر كذلك فكيف تعبدون شيئا أنتم تصنعونه بأيديكم ، أو هو مفتقر إلى من يوجده ؟ ! !

وهذه الآية الكريمه أصرح فى إثبات العجز للمعبودات الباطله من سابقتها التى تقول : « أفمن يخلق كمن لايخلق ... » لأن الآيه السابقه نفت عن المعبودات الباطله أنها تخلق شيئا ، أما هذه الآيه التى معنا فنفت عنهم ذلك ، وأثبتت أنهم مخلوقون لغيرهم وهو الله - عز وجل - ، أو أن الناس يصنعونهم عن طريق النحت والتصوير ، فهم أعجز من عبدتهم ، وعليه فلا تكرار بين الآيتـــين .

وأما الصفه الثانيه لتلك الأصنام فهى قوله - تعالى - «أموات غير أحياء» .

أى : هؤلاء المعبودون من دون الله - تعالى - ، هم أموات لا أثر للحياة فيهم ، فهم لا يسمعون ، ولا يبصرون ، ولا يغنون عن عابديهم شيئا . فقد دلت هذه الصفة على فقدانهم للحياه فقدانا تاما .

وجمله « غير أحياء » جيء بها لتأكيد موتهم . وللدلالة على عراقة وصفهم بالموت ، حيث إنه لاتوجد شائبه للحياه فيهم ، ولم يكونوا أحياء - كعابديهم - ثم ماتوا ، بل هم أموات أصلا .

أو جيء بها على سبيل التأسيس ، لأن بعض مالا حياه فيه من المخلوقات ، قد تدركه الحياة فيما بعد ، كالنطفة التى يخلق الله - تعالى - منها حياة ، أما هذه الأصنام فلا يعقب موتها حياه ، وهذا أتم فى نقصها ، وفى جهالة عابديها .

---

(١) سورة الصافات الآية ٩٥ ، ٩٦

وأما الصفة الثالثة لتلك الأصنام فهى قوله ـ تعالى ـ « وما يشعرون أيان يبعثون » .

ولفظ « أيان » ظرف زمان متضمن معنى متى .

وهذه الصفة تدل على جهلهم المطبق ، وعدم إحساسهم بشىء .

أى : أن من صفات هذه المعبودات الباطلة ، أنها لا تدرى متى يبعثها الله ـ تعالى ـ لتكون وقودا للنار .

وبعضهم يجعل الضمير فى « يشعرون » يعود على الأصنام ، وفى « يبعثون » يعود على العابدين لها ، فيكون المعنى : وما تدرى هذه الأصنام التى تعبد من دون الله ـ تعالى ـ ، متى تبعث عبدتها للحساب يوم القيامة .

قال صاحب فتح القدير ما ملخصه : قوله : « وما يشعرون أيان يبعثون » الضمير فى « يشعرون » للآلهة ، وفى « يبعثون » للكفار الذين يعبدون الأصنام .

والمعنى : وما تشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار ، ويكون هذا على طريقة التهكم بهم ، لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة ، فضلا عن الأمور التى لا يعلمها إلا الله ـ سبحانه ـ .

ويجوز أن يكون الضمير فى الفعلين للآلهة . أى : وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث . ويدل على ذلك قوله تعالى ـ : « إنكم وما تعبدون من الله حصب جهنم ... »(1) .

وبعد أن أبطل ـ سبحانه ـ عبادة غيره بهذا الأسلوب المنطق الحكيم ، صرح بأنه لا معبود بحق سواه . فقال : « إلهكم إله واحد ... »

أى إلهكم المستحق للعبادة والطاعة هو إله واحد لا شريك له ، لا فى ذاته ولا فى صفاته ، فأخلصوا له العبادة ، ولا تجعلوا له شركاء .

---

(1) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٥٦ .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى جعلت المشركين يصرون على كفرهم ويستحبون العمى على الهدى ، فقال - تعالى - : فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون »

أى : فالكافرون الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب قلوبهم منكرة للحق، جاحده لنعم الله ، منصرفة عن وحدانية الله — تعالى — وعن الأدلة الدالة عليها ، وحالهم فوق ذلك أنهم مستكبرون مغرورون ، لا يستمعون إلى موعظة واعظ ، ولا إلى إرشاد مرشد .

ومتى إستولت على إنسان هاتان الصفتان -- الجحود والإستكبار — ، حالفه البوار والخسران ، وآثر سبيل الغى على سبيل الرشد .

والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته « فالذين لا يؤمنون بالآخرة ..» دون التصريح بذواتهم ، لاشتهارهم بتلك الصفات القبيحة ، وللايماء بأن عدم إيمانهم بالآخرة ، هو أساس خيبتهم ، وخسرانهم وجحودهم . . .

وعبر بالجملة الأسمية فى قوله « قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » للدلالة على تأصل صفتى الجحود والإستكبار فى قلوبهم ، وعلى أن الإنكار للحق سمة من سماتهم التى يتحدثون عنها مهما وضحت لهم الأدلة على بطلانها، وعلى أن التعالى والغرور لا ينفك عنهم ، وأنهم ممن قال - سبحانه - فيهم : « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين [1] » أى : صاغرين أذلاء .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم ، فقال : « لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه لا يحب المستكبرين »

---

(١) سورة غافر . الآية ٦٠

وكلمة « لا جرم » وردت فى القرآن فى خمسة مواضع ، وفى كل موضع كانت متلوة بأن واسمها ، وليس بعدها فعل .

وجمهور النحاة على أنها مركبة من « لا » و « جرم » تركيب خمسة عشر ومعناها بعد التركيب معنى الفعل : حق وثبت ، والجملة بعدها فاعل .

قال الخليل : لاجرم ، كلمة تحقيق ولا تكون إلا جوابا ، يقال : فعلوا ذلك ، فيقال : لاجرم سيندمون .

وقال الفراء : « لاجرم » كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لابد ولا محالة ، فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزله حقا فلذلك يجاب عنها باللام ، كما يجاب بها عن القسم ، ألا تراهم يقولون لا جرم لآتينك ...

والمعنى : حق وثبت أن الله - تعالى - يعلم مايسره هؤلاء المشركون وما يعلنونه من أقوال وأفعال ، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقونه من عقوبات، لأنه - سبحانه - لايحب المستكبرين عن الاستجابة للحق ، المغرورين بأموالهم وأولادهم ، الجاحدين لنعم الله وآلائه

قال القرطبى : قال العلماء : وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه ، إلا الكبر ، فإنه فسق يلزمه الإعلان ، وهو أصل العصيان كله .

وفى الحديث الصحيح : إن المتكبرين يحشرون أمثال الذر يوم القيامة ، يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم : « تصغر لهم أجسامهم فى المحشر حتى يضرهم صغرها ، وتعظم لهم فى النار حتى يضرهم عظمها » (١)

وبعد أن أقامت السورة الكريمة الأدلة الساطعة ، على وحدانية الله - وقدرته ، وعلى بطلان عبادة غيره . . . أتبعت ذلك بحكاية بعض أقاويل

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٩٥

المشركين، وردت عليها بما يدحضها، وببيان سوء عاقبتهم، وعاقبة أشباههم من قبلهم، فقال - تعالى - :

وإذا قيلَ لهم ماذا أنزلَ ربكم، قالوا أساطيرُ الأولينَ (٢٤) ليحملوا أوزارَهم كاملةً يومَ القيامةِ، ومنْ أوزارِ الذينَ يضلُّونهم بغيرِ علمٍ، ألاَ ساءَ ما يزرُونَ (٢٥) قد مكرَ الذينَ من قبلهمْ، فأتَى اللهُ بنيانَهم منَ القواعدِ، فخرَّ عليهمُ السَّقفُ من فوقهمْ وأتاهُم العذابُ من حيثُ لا يشعرُونَ (٢٦) ثم يومَ القيامةِ يُخزيهم ويقولُ أينَ شركائِيَ الذينَ كنتُم تشاقُّونَ فيهمْ، قالَ الذينَ أوتُوا العلْمَ، إنَّ الخزْيَ اليومَ والسوءَ عَلَى الكافرينَ (٢٧) الذينَ تتوفَّاهُم الملائكةُ ظالمِي أنفُسِهم، فألقَوْا السَّلَم ما كُنَّا نعملُ من سوء، بلى إنَّ اللهَ عليمٌ بما كنتُم تعملونَ (٢٨) فادخُلُوا أبوابَ جهنَّم خالدينَ فيها، فلبئْسَ مثوَى المتكبِّرينَ (٢٩) » .

وقوله - سبحانه : «وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم، قالوا أساطير الأولين» حكاية لبعض ما كان يدور بين اولئك المستكبرين، وبين غيرهم من أسئلة واستفسارات حول القرآن الكريم .

والأساطير : جمع أسطورة، كأعاجيب وأعجوبة، وأحاديث وأحدوثة.

والمراد بها : الأكاذيب والترهات التي لا أصل لها، والتي كانت مبثوثة في كتب الأولين .

والمعنى : وإذا قال قائل لهؤلاء الكافرين المستكبرين، أي شيء أنزل ربكم على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - .

قالوا له على سبيل الجحود للحق : لم ينزل عليه شيء، وإنما هذا القرآن

الذى يتلوه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أتباعه ، هو من أساطير الكهنة الأولين ، نقله من كتبهم ثم قرأه على من يستمع إليه .

روى ابن أبى حاتم عن السدى قال : اجتمعت قريش فقالوا : إن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا اناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ؛ فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاءه يريده فردوه عنه .

فخرج ناس فى كل طريق ، فكان إذا أقبل الرجل وافداً لقومه ينظر مايقول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووصل إليهم ، قال أحدهم : أنا فلان بن فلان ، فيعرفه نسبه ، ثم يقول للوافد : أنا أخبرك عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له ، فيرجع الوافد . فذلك قوله ـ تعالى ـ « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ، قالوا : أساطير الأولين » .

فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد ، فقالوا له مثل ذلك قال : بئس الوافد لقومى أنا ، إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم من مكة رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل ، وأنظر ما يقول ، وآتى قومى ببيان أمره . فيدخل مكة ، فيلقى المؤمنين فيسألهم : ماذا يقول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فيقولون : خيرا . . . »[1]

وعبر ـ سبحانه ـ بالفعل «قيل» المبنى للمجهول ، للإشارة إلى أن هذا القول الذى تفوه به عتاة الكافرين ، كانوا يقولونه لكل من يسألهم عن القرآن الكريم ، لكى يصدوه عن الدخول فى الإسلام . وجملة « ماذا أنزل ربكم » نائب فاعل لقيل .

وقولهم — كما حكى القرآن عنهم — « أساطير الأولين » خبر لمبتدأ محذوف .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٣١

أي : قالوا هو أساطير الأولين أو المسئول عنه : أساطير الأولين .

ولقد حكى القرآن قولهم الباطل هذا ، ورد عليه بما يدحضه فى آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، إنه كان غفورا رحيما »[1] .

ثم بين - سبحانه - عاقبة كفرهم ، ونطقهم بالباطل ، فقال - تعالى - : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة . . . »

واللام فى قوله - ليحملوا - هى التى تسمى بلام العاقبة . وذلك لأنهم لما وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، كانت عاقبتهم تلك العاقبة السيئة .

والأوزار جمع وزر - بكسر الواو وسكون الزاى - بمعنى الشىء الثقيل .

والمراد بها الذنوب والآثام التى يثقل حملها على صاحبها يوم القيامة ، كما قال - تعالى - : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ؛ وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون »[2] .

والمعنى : قالوا ذلك فى القرآن الكريم ، لتكون عاقبتهم أن يحملوا أوزارهم كاملة غير منقوصة يوم القيامة .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله « ليحملوا » متعلق - بقالوا - كما هو الظاهر . . . واللام للعاقبة ، لأن الحمل مترتب على قولهم وليس باعثا ولا غرضا لهم . . .

وعن ابن عطية : أنها تحتمل أن تكون لام التعليل ومتعلقة بفعل مقدر لا بقالوا ، أى : قدر صدور ذلك منهم ليحملوا . . . »[3]

---

(١) سورة الفرقان . الآيتان ٥ ، ٦ (٢) سورة العنكبوت ، الآية ١٣

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٢٤

وقال ـ سبحانه ـ «كاملة» ، لتأكيد أنه لا يرفع عنهم شيء من ذنوبهم، بل سيعاقبون عليها جميعها دون أن ينقص منها شيء ؛

قال الفخر الرازى : وهذا يدل على أن الله ـ تعالى ـ قد يسقط بعض العقاب على المؤمنين ، إذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل ، لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل معنى . . . »[1]

وقال بعض العلماء : «ويصور التعبير هذه الذنوب بكونها أحمالا ذات ثقل ـ وساءت أحمالا وأثقالا ـ ، فهى توقر النفوس كما توقر الأحمال الظهور، وهى تثقل القلوب ، كما تثقل الأحمال العواتق ، وهى تتعب وتشقى كما تتعب الأثقال حاملها ، بل هى أدهى وأنكى »[2] :

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم أنه بلغه أنه يتمثل للكافر عمله فى صورة أقبح ماخلق الله وجها ، وأنتنه ريحا ، فيجلس إلى جنبه كلما أفزعه شيء زاده فزعا ، وكلما تخوف من شيء زاده خوفا . فيقول له بئس الصاحب أنت ؟ فيقول له وما تعرفنى ؟ فيقول : لا . فيقول : أنا عملك كان قبيحا فلذلك ترانى قبيحا ، وكان منتنا فلذلك ترى منتنا . طأطىء إلى أركبك ، فطالما ركبتنى فى الدنيا ، فيركبه ، وهو قوله ـ تعالى ـ «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة . . . »[3]

وقوله «ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم» بيان لأثقال أخرى يحملونها فوق أثقالهم .

أى : أن أولئك المستكبرين ، قالوا فى القرآن إنه أساطير الأولين ، فكانت عاقبة قولهم الباطل أن حملوا آثامهم الخاصة ، وأن حملوا فوقها جانبا من آثام من كانوا سببا فى ضلالهم .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ٢٠ ص ١٨

(٢) فى ظلال القرآن ج ١٤ ص ٢١٦٧ للأستاذ سيد قطب .

(٣) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٦٦

قال ابن كثير : أى يصير عليهم خطيئة إغوائهم لغيرهم ، واقتداء أولئك بهم ، كما جاء فى الحديث . « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك عن آثامهم شيئا » .

كما قال ـ تعالى ـ : وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون »[1] .

فهذه الآية وأمثالها ، لا تعارض بينها وبين قوله ـ تعالى ـ « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وقوله : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها » ...

لأن هؤلاء المستكبرين لم يكتفوا بضلالهم فى أنفسهم ، بل تسببوا فى إضلال غيرهم ، فعوقبوا على هـذا التسبب السيء ، الذى هو فعل من أفعالهم القبيحة .

وقوله « بغير علم » فى موضع الحال من الضمير المنصوب فى قوله « يضلونهم » .

اى : يضلون ناسا لا علم عندهم ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، وفى ذلك مافيه من مدح أهل العلم والتفكير ، لأن الآية الكريمة قد بينت أن أئمة الكفر ، يستطيعون إضلال من لا علم عنده ، أما أصحاب العقول السليمة فلن يستطيعوا إضلالهم .

قالوا : واستدل بالآيه على أن المقلد يجب عليه أن يبحث ، وأن يميز بين الحق والباطل ، ولا يعذر بسبب جهله .

وقيل أن قوله « بغير علم » فى موضع الحال من الضمير المرفوع فى قوله « يضلونهم » .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٨٤

أى : هم يضلون غيرهم حالة كونهم غير عالمين بما يترتب على ذلك من آثام وعقاب ، إذ لو علموا ذلك لما أقدموا على هذا الإضلال لغيرهم .

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بقوله : « ألا ساء ما يزرون » .
قال الجمل : و « ساء » فعل ماض لإنشاء الذم بمعنى بئس ، و « ما » تمييز بمعنى شيئا ، أو فاعل بساء ، و « يزرون » صفة لما والعائد محذوف ، أو « ما » اسم موصول ، وقوله « يزرون » صلة الموصول ، والعائد محذوف أى : يزرونه ، والمخصوص بالذم محذوف »(1) .

والتقدير : بئس شيئا يزرونه ويحملونه نتيجة كفرهم وإضلالهم لغيرهم ؛

وافتتحت الجملة الكريمة بأداة الاستفتاح « ألا » للاهتمام بما تضمنه التحذير ، حتى يقلعوا عن كفرهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، ويحترسوا عن الوقوع فى الباطل من القول .

ثم سلى الله — تعالى — نبيه والمؤمنين ، فبين لهم أن هؤلاء المستكبرين الذين قالوا فى القرآن أنه أساطير الأولين ، سيحيق بهم مكرهم السيء ، كما حاق بالذين من قبلهم . فقال — تعالى — : « قد مكر الذين من قبلهم ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » .

وقوله — سبحانه — « مكر » من المكر ، وهو التدبير المحكم ، أو صرف الغير عما يريده بحيلته ، وهو مذموم إن تحرى به الماكر الشر والباطل ، ومحمود إن تحرى به الخير والحق .

والمراد به هنا النوع الأول .

والمراد بالذين من قبلهم : الكفار الذين كانوا قبل كفار مكة ، كقوم نوح وهود وصالح ...

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٦٦

وقوله : « فأتى الله بنيانهم ... » أى : أهلكهم ، كما فى قوله ـ تعالى ـ « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا .. »[1] .

ويقال : أتى فلان من مأمنه أى : نزل به الهلاك من جهة أمنه . وأتى عليه الدهر . أى : أهلكه وأفناه . ومنه الأُتُوُّ . وهو الموت والبلاء .

يقال : أتى على فلان أتو ، أى موت أو بلاء يصيبه ....

والقواعد : جمع قاعدة . وهى أساس البناء ، وبها يكون ثباته واستقراره .

والمعنى : لا تهتم ـ أيها الرسول الكريم ـ بما يقوله المستكبرون من قومك فى شأن القرآن الكريم لكى يصرفوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، فقد مكر الذين من قبلهم بأنبيائهم ، فكانت عاقبة مكرهم أن « أتى الله بنيانهم من القواعد » بأن اجتث هذا البنيان من أصله ؛ واقتلعه من أساسه « فخر عليهم السقف من فوقهم » أى : فسقط عليهم سقف بنيانهم فأهلكهم « وأتاهم العذاب » المبير المدمر « من حيث لا يشعرون » ولا يحتسبون بأنه سيأتيهم من هذه الجهة ، بل كانوا يتوقعون أن ما شيدوه سيحميهم من المهالك .

فالآية الكريمة تصور بأسلوب بديع معجز ، كيف أن هؤلاء الماكرين ، قد حصنوا أنفسهم بالبناء المحكم المتين ، ليتقوا ما يؤذيهم ، إلا أن جميع هذه التحصينات قد هوت وتساقطت على رءوسهم ، أمام قوة الله ـ تعالى ـ التى لا ترد ، فإذا بالبناء الذى بنوه ليحتموا به ، قد صار مقبرة لهم ....

وصدق الله إذا يقول : « ومكروا مكرا ، ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون »[2] .

---

(١) سورة الحشر . الآية ٢

(٢) سورة النمل الآيات ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢

وقال ـ سبحانه ـ : « فخر عليهم السقف من فوقهم » مع أن السقف لا يكون إلا من فوق ، لتأكيد الكلام وتقويته .

وقال القرطبى : قال ابن الأعرابى : وكد ليعلمك أنهم كانوا حالِّين تحته والعرب تقول : خر علينا سقف ، ووقع علينا حائط ، إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه . فجاء بقوله : « من فوقهم » ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب ، فقال : « من فوقهم » أى : عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا .... »[1] .

هذا ، ومن المفسرين الذين رجحوا أن الآية مسوقة على سبيل التمثيل ، الفخر الرازى . فقد قال : وفى قوله ـ سبحانه ـ « فأتى الله بنيانهم من القواعد » قولان : الأول : أن هذا محض التمثيل .

والمعنى أنهم رتبوا حيلا ليمكروا بها على أنبياء الله ، فجعل الله ـ تعالى ـ حالهم فى تلك الحيل ، مثل حال قوم بنوا بنيانا وعمّدوه بالأساطين ، فانهدم ذلك البناء ، وضعفت تلك الأساطين ، فسقط السقف عليهم ، ونظيره قولهم: من حفر بئرا لأخيه أوقعه الله فيه .

ـ ووجه الشبه أن ما عدوه سبب بقائهم ، صار سبب استئصالهم وفنائهم ـ .

الثانى : أن المراد منه ما دل عليه الظاهر ، وهو أن الله ـ تعالى ـ أسقط عليهم السقف وأماتهم تحته .

والأول أقرب إلى المعنى[2] .

ومن المفسرين الذين رجحوا أن الكلام على حقيقته ، الإمام ابن جرير ،

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٩٧

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٢٠ ص ٢٠

فقد قال - بعد أن سرد بعض الأقوال - : وأولى الأقوال بتأويل الآية قول من قال : معنى ذلك ، تساقطت عليهم سقوف بيوتهم ، إذ أتى على أصولها وقواعدها أمر الله ، فانكفأت بهم منازلهم ، لأن ذلك هو الكلام المعروف من قواعد البنيان وخر السقف .

وتوجيه معانى كلام الله إلى الأشهر الأعرف منه ، أولى من توجيهها إلى غير ذاك ما وجد إليه سبيل »(1) .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير - رحمه الله - أولى بالقبول ، لأنه مادام اللفظ صالحا للحمل على الحقيقة ، فلا داعى لصرفه عن ذلك .

وقد حكى لنا القرآن الكريم صنوفا من العذاب الذى أنزله الله - تعالى - بالظالمين ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا . ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(2).

ثم بين - سبحانه - مصيرهم فى الآخرة ، بعد أن بين عاقبة مكرهم فى الدنيا فقال - تعالى - : « ثم يوم القيامة يخزيهم ، ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم .... »

أى : هذا هو مصير هؤلاء المستكبرين فى الدنيا ، أما مصيرهم فى الآخرة فإن الله - تعالى - يذلهم ويهينهم ويفضحهم على رؤوس الأشهاد ، ويقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : أين شركائى فى العبادة والطاعة ، الذين كنتم تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم، قائلين لهم : إنكم لابد لكم من إشراكهم معى فى العبادة .

وجىء بثم المفيدة للترتيب النسبي ، للإشارة إلى ما بين الجزاءين من تفاوت فإن خزى الآخرة أشد وأعظم مما نزل بهم من دمار فى الدنيا .

---

(1) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٦٨

(2) سورة العنكبوت . الآية ٤٠

والاستفهام فى قوله « أين شركائى ... » للتهكم بهم وبمعبوداتهم الباطلة التى كانوا يعبدونها فى الدنيا، فانهم كانوا يقولون للمؤمنين إن صح ما تقولونه من العذاب فى الآخرة، فان الأصنام ستشفع لنا .

أى : أين هؤلاء الشركاء ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من خزى وذلة وعذاب مهين ؟! وأضاف - سبحانه - الشركاء اليه، لزيادة توبيخهم، لأنهم فى هذا اليوم العظيم، يعلمون علم اليقين أنه لا شركاء له - سبحانه -

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون »[1]

قال الجمل ما ملخصه : وقوله : « تشاقون » من المشاقة وهى عبارة عن كون كل واحد من الخصمين فى شق غير شق صاحبه .

وقرأ نافع « تشاقون بكسر النون خفيفة، وقرأ الباقون بفتح النون . ومفعوله محذوف . أى : تشاقون المؤمنين، أو تشاقون الله، بدليل القراءة الأولى .... »[2]

ثم حكى - سبحانه - ما يقوله أولوا العلم فى هذا الموقف الهائل الشديد فقال - تعالى - : قال الذين أوتوا العلم ، إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين »

والمراد بالذين أوتوا العلم، كل من إهتدى إلى الحق فى الدنيا؛ وأخلص لله - تعالى - العبادة والطاعة .

أى : قال الذين هداهم الله - تعالى - إلى صراطه المستقيم، فى هذا اليوم العصيب، إن الخزى الكامل، فى هذا اليوم، والسوء الذى ليس بعده سوء، على هؤلاء الكافرين، أصحاب القلوب المنكرة للحق، والنفوس الجاحدة لليوم الآخر وما فيه من حساب ..

---

(١) سورة القصص : الآية ٧٤

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ﺣ ٢ ص ٥٦٩

وجىء بجمله « قال الذين أوتوا العلم . . . » غير معطوفة على ما قبلها ، لأنها واقعة موقع الجواب لقوله - سبحانه - « أين شركائى . . . » والتنبيه على أن الذين أوتوا العلم سارعوا بالجواب بعد أن وجم المستكبرون،وعجزوا عن الإجابه .

وقولهم هذا يدل على شماتتهم بأعداء الله - تعالى - ، وتوبيخهم لهم على كفرهم ، وإستكبارهم عن الإستماع إلى كلمه الحق .

وقال - سبحانه - : « قال الذين أوتوا العلم . . . » بلفظ الماضى ، مع أن هـذا القول سيكون فى الآخرة ، للاشارة إلى تحقق وقوعه ، وأنه كائن لا محالة .

ثم صور - سبحانه - أحوال هؤلاء الكافرين ساعة إنتزاع أرواحهم من أجسادهم وساعة وقوفهم للحساب ، فقال - تعالى - : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء . . . . »

قال الآلوسى : وفى الموصول أوجه الإعراب الثلاثه : الجر على أنه صفة للكافرين ، أو بدل منه ، أو بيان له ، والنصب والرفع على القطع للذم .وجوز بعضهم كونه مرتفعا بالابتداء ، وجعله « فألقوا » خبره . . . » (1)

والمراد بالملائكة : عزرائيل ومن معه من الملائكة

والمراد بظلمهم لأنفسهم : إشراكهم مع الله - تعالى - آلهه أخرى فى العبادة .

أى : إن أشد أنواع الخزى والعذاب يوم القيامة على الكافرين ، الذين تنتزع الملائكة أرواحهم من أجسادهم وهم مازالوا باقين على الكفر والشرك دون أن يتوبوا منهما ، أو يقلعوا عنهما .

وقوله : « ظالمى أنفسهم » حال من مفعول تتوفاهم .

---

(1) تفسير الآلوسى حـ ١٤ ص ١٢٨

وفى وصفه هؤلاء الكافرين بكونهم « ظالمى أنفسهم » إشعار إلى أن الملائكة تنتزع أرواحهم من جنوبهم بغلظة وقسوة ، ويشهد لذلك قوله - تعالى - : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم .... » (1)

وقوله «فألقوا السلم» بيان لما صار إليه هؤلاء المستكبرون من ذل وخضوع فى الآخرة ، بعد أن كانوا مغترين متجبرين فى الدنيا .

وأصل الإلقاء يكون فى الأجسام والمحسات فاستعير هنا لإظهار كمال الخضوع والطاعة ، حيث شبهوا بمن ألقى سلاحه أمام الأقوى منه ، بدون أية مقاومة أو حركة .

والمراد بالسلم : الاستسلام والاستكانة .

أى : أنهم عندما عاينوا الموت ، وتجلت لهم الحقائق يوم القيامة ، خضعوا واستكانوا واستسلموا ، بعد أن كانوا فى الدنيا يتكبرون على المؤمنين . ويسخرون منهم .

وجملة « ما كنا نعمل من سوء » مقول لقول محذوف .

أى : عندما عاينوا الحقائق استسلموا وانقادوا ، وقالوا : ما كنا فى الدنيا نعمل عملا سيئا ، توهما منهم أن هذا القول ينفعهم .

وقد حكى الله - تعالى - عنهم فى آيات أخرى ما يشبه هذا القول ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا ، والله ربنا ما كنا مشركين » .

وقوله - سبحانه - « بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون » تكذيب لهم فى دعواهم أنهم ما كانوا يعملون السوء لأن لفظ « بلى » لإبطال ما نفوه .

---

(1) سورة الأنفال الآيه ٥٠

أى : بلى كنتم تعملون السوء ، لأن الله ـ تعالى ـ لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، وسيجازيكم عنها بما تستحقون وهذا التكذيب لهم قد يكون من الملائكة بأمر الله ـ تعالى ـ وقد يكون من قبله ـ سبحانه ـ

وقوله ـ سبحانه : « فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها . . . . . » بيان لما انتهى إليه أمرهم من عذاب مهين .

وأبواب جهنم قد ذكر ـ سبحانه ـ عددها فى قوله ـ تعالى ـ : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » (١)

أى : فادخلوا ـ أيها الكافرون ـ من أبواب جهنم ، حالة كونكم خالدين فيها خلوداً أبدياً ، « فلبئس مثوى المتكبرين » أى فلبئس مقام المتعاظمين عن الإيمان بالله جهنم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد بينت بأسلوب مؤثر ، مصير المستكبرين الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، والذين جادلوا المؤمنين بالباطل ليدحضوا به الحق . . .

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ أقوال المستكبرين ، وأحوالهم ، وسوء عاقبتهم أتبع ذلك ببيان أحوال المتقين . وببيان ما أعده لهم من خيرات فقال ـ تعالى ـ :

« وقيلَ للذينَ اتقَوْا ماذَا أنزلَ ربكم ، قالُوا خيراً ، للذينَ أحسنُوا فى هذه الدنيا حسنةً ، ولدارُ الآخرةِ خيرٌ ، ولنِعْم دار المتقينَ (٣٠) جناتُ عَدْن يدخلُونها تجرِى مِنْ تحتها الأنهارُ لهم فيها ما يشاءونَ ، كذلِكَ يجْزى اللهُ المتقينَ (٣١) الذينَ تتوفَّاهم الملائكةُ طيبينَ يقولُون سلامٌ عليكم ، ادخلُوا الجنةَ بما كنتم تعملون (٣٢) » .

---

(١) سورة الحجر الآية ٤٤

فقوله ـ سبحانه ـ : « وقيل للذين إتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ... » بيان لما رد به المؤمنون الصادقون ، على من سألهم عما أنزله الله ـ تعالى ـ على نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وهو معطوف على ما قبله ، للمقابلة بين ما قاله المتقون ، وما قاله المستكبرون .

ووصفهم بالتقوى ، للاشعار بأن صيانتهم لأنفسهم عن إرتكاب مانهى الله ـ تعالى ـ عنه ، وخوفهم منه ـ سبحانه ـ ومراقبتهم له ، كل ذلك حملهم على أن يقولوا هذا القول السديد ، وكلمة « خيرا » مفعول لفعل محذوف أى : أنزل خيرا . أى : رحمة وبركة ونورا وهداية ، إذ لفظ « خيرا » من الألفاظ الجامعة لكل فضيلة .

قال صاحب الكشاف : فان قلت لم نصب هذا ورفع الأول ؟

قلت : فَصْلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للإنزال،فقالوا خيرا . وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأولين وليس من الإنزال فى شىء » (١)

وقوله — سبحانه — : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة » جمله مستأنفة لبيان ماوعدهم به – تعالى — على أعمالهم الصالحة من أجر وثواب .

أى : هذه سنتنا فى خلقنا أننا نجازى الذين يعملون الصالحات بالجزاء الحسن الكريم ، دون أن نضيع من أعمالهم شيئا .

وقوله « حسنة » صفة لموصوف محذوف أى : مجازاة حسنة بسبب أعمالهم الصالحة .

---

(١) تفسير الكشاف ﺣ ٢ ص ٤٠٧

كما قال — تعالى — فى آية أخرى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[١]

ثم بين — سبحانه — جزاءهم فى الآخرة فقال : « ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » .

والمراد بدار الآخره : الجنة ونعيمها .

و « خير » صيغة تفضيل ، حذفت همزتها لكثرة الاستعمال على سبيل التخفيف ، كما قال ابن مالك :

وغالبا أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

ونعم : فعل ماض لإنشاء المدح ، وهو ضد بئس .

والمعنى : ولدار الآخرة وما فيها من عطاء غير مقطوع ، خير لهؤلاء المتقين مما أعطيناهم فى الدنيا ، ولنعم دارهم هذه الدار . قال — تعالى — : « بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى »[٢] .

ووصفها — سبحانه — بالآخرة ، لأنها آخر المنازل ، فلا انتقال عنها إلى دار أخرى ، كما قال — تعالى — : « خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » .

والمخصوص بالمدح محذوف لتقدم ما يدل عليه ، والتقدير : ولنعم دار المتقين ، دار الآخرة .

ثم وصف — سبحانه — ما أعده لهم من نعيم فقال : « جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار ... » .

والعدن : الإقامه الدائمه : يقال : عدن فلان ببلد كذا ، إذا توطن فيه وأقام دون أن يبرحه أى : لهؤلاء المتقين جنات دائمة باقية، يدخلونها بسرور وحبور ، تجرى من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار .

---

(١) سوره النحل الآية ٩٧

(٢) سوره الأعلى الآيتان ١٦ ، ١٧

« لهم فيها مايشاءون » مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين «كذلك يجزى الله المتقين » أى : مثل هذا الجزاء الحسن ، يجزى الله — تعالى — عباده المتقين الذين جنبوا أنفسهم مالا يرضيه .

ثم حكى — سبحانه — ماتحييهم به الملائكة فقال: « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين « يقولون سلام عليكم . . . » .

أى : هذا الجزاء الحسن لهؤلاء المتقين ، الذين تتوفاهم الملائكة ، أى تقبض أرواحهم ، حال كونهم « طيبين » أى : مطهرين من دنس الشرك والفسوق والعصيان .

« يقولون » أى الملائكة لهؤلاء المتقين عند قبض أرواحهم ، « سلام عليكم » أى : أمان عليكم من كل شر ومكروه .

« ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » أى : بسبب ماقدمتوه من أعمال صالحه

وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ، أن لاتخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون »[1] .

هذا ، ولا تعارض بين قوله تعالى — « تتوفاهم الملائكة » وبين قوله فى آية أخرى « قل يتوفاكم ملك الموت » وبين قوله فى آية ثالثة « الله يتوفى الأنفس حين موتها » .

لأن إسناد المتوفى إلى ذاته — تعالى — ، باعتبار ان أحدا لايموت إلا بمشيئته — تعالى — ، وأسناده إلى ملك موت بأعتباره هو المأمور بقبض الأرواح ، وإسناده إلى الملائكة بأعتبارهم أعوانا له ولا تعارض - أيضا - بين قوله — تعالى — « ادخلوا الجنة بما كنتم » وبين ماجاء فى الحديث الصحيح : « لن يدخل أحدا عمله الجنة . . . » .

---

(١) سوره فصلت الآية ٣٠

لأن الأعمال الصالحه إنما هى أسباب عادية لدخول الجنة، أما السبب الحقيقى فهو فضل الله ـ تعالى ـ ورحمته، حيث قبل هذه الأعمال، وكافأ أصحابها عليها.

وبعد أن بينت السورة الكريمة جانبا من أقوال المتقين، وبشرتهم بما يسرهم ويشرح صدورهم، عادت مرة أخرى لتهديد الكافرين، لعلهم يزدجرون أو يتذكرون، فقال ـ تعالى ـ:

«هَلْ ينظرُون إلاَّ أن تأتِيَهُم الملائـكةُ أو يأتى أمرُ ربِّكَ كذلك فعلَ الذين مِنْ قبلِهِم، وماظلمَهم اللهُ، ولـكنْ كانُوا أنفُسَهم يظلِمُون (٣٣) فأصابَهم سيئاتُ ما عَمِلُوا، وحاقَ بهم ما كانُوا به يستهزِئُونَ (٣٤)».

والاستفهام فى قوله ـ سبحانه ـ «هل ينظرون...» إنكارى فى معنى النفى ينظرون هنا بمعنى ينتظرون، من الإنظار بمعنى الإمهال، والضمير المرفوع يعود إلى أولئك المتكبرين الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين، والذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم، كما جاء فى الآيات السابقة.

أى: ماينتظر أولئك المتكبرون الذين لا يؤمنون بالآخرة، إلا أن تأتيهم الملائكة لنزع أرواحهم من أجسادهم، أو يأتى أمر ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ بإهلاكهم، أو بإنزال العذاب بهم من حيث لا يشعرون.

وليس المراد من الجمله الكريمة، أنهم ينتظرون ذلك على سبيل الحقيقة، لأن إصرارهم على الكفر جعلهم يستهينون بهذا التهديد وإنما المراد أنهم حين أصروا على الكفر مع ظهور البراهين على بطلانه، صار حالهم كحال المترقب لنزول أحد الأمرين: قبض الملائكة لأرواحهم، أو نزول العذاب بهم.

فالجمله الكريمة تهديد لهم على تماديهم فى الكفر، وتحريض لهم على الإيمان قبل فوات الأوان.

قال الجمل : « و « أو » فى قوله « أو يأتى أمر ربك » مانعة خلو ، فإن كلا من الموت والعذاب يأتيهم وإن اختلف الوقت ، وإنما عبر بأو دون الواو ، للاشارة إلى كفاية كل واحد من الأمرين فى تعذيبهم ... »[1] .

وقوله ـ سبحانه ـ كذلك فعل الذين من قبلهم ... » تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أصابه منهم من أذى .

أى : مثل هذا الفعل الشنيع الذى صدر عن الكافرين من قومك ـ يا محمد ـ فعل الذين من قبلهم من أقوام الرسل السابقين، كقوم نوح وقوم هود، وقوم صالح ، فإنهم قد آذوا رسلهم . كما آذاك قومك .

وقد أنزلنا بهم مايستحقون من عقاب دنيوى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وقوله ـ سبحانه ـ « وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » بيان لعدالة الله ـ تعالى ـ وأنه ـ سبحانه ـ لا يظلم الناس شيئا .

أى : وما ظلمهم الله حين أنزل بهم عقابه ؛ ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بترديهم فى الكفر ، وإصرارهم عليه ، ومحاربتهم لمن جاء لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وقوله ـ سبحانه ـ : « فأصابهم سيئات ماعملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » معطوف على قوله « كذلك فعل الذين من قبلهم » وما بينهما اعتراض .

وحاق : بمعنى أحاط ، من الحيق بمعنى الإحاطة، وبابه باع، يقال: حاق يحيق ، وخص فى الاستعمال بإحاطة الشر ، ومنه قوله ـ تعالى ـ « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .

أى : هكذا تمادى أسلافهم فى الكفر والجحود ، فأصابهم جزاء سيئات

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٦٩

أعمالهم ، وأحاط بهم العذاب من كل جانب ، بسبب كفرهم وسخريتهم بالرسل وبما أخبروهم به من حساب وثواب وعقاب فى الآخرة ، وسيقال لهؤلاء المجرمين يوم القيامة وهم يردون النار : « هـذه النار التى كنتم بها تكذبون »(٢) .

وبذلك نرى أن هاتين الايتين ، قد هددتا الكافرين ودعتهما إلى الدخول فى الحق ، وحذرتاهم من أنتهاج نهج الظالمين من قبلهم .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض أقاويلهم الباطله ، ومعاذيرهم الفاسدة ، ورد عليها بما يدحضها ويدمغها ، فقال ـ تعالى ـ :

« وقالَ الذينَ أشركُوا لو شاءَ اللهُ ما عبَدْنا مِنْ دونِه من شىءٍ نحنُ ولا آباؤُنا ، ولا حرَّمنا مِنْ دُونه مِنْ شىءٍ ، كذلكَ فعل الذين مِنْ قبلهم ، فهلْ على الرُسُلِ إلا البلاغُ المبينُ (٣٥) ولقد بَعثْنا فى كلِّ أمةٍ رسولاً ، أنِ اعبدُوا اللهَ واجتنبُوا الطاغوتَ ، فمنهُم مَن هدَى اللهُ ، ومنهُم من حقّتْ عليه الضلالةَ ، فسيرُوا فى الأرضِ فانظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المكذِّبينَ (٣٦) إنْ تحرِصْ على هُدَاهُم فإنَّ اللهَ لا يَهْدِى من يُضِلُّ ، وما لهم من ناصرين (٣٧) » .

إن هذه الآيات الكريمه ، تعالج شبهة من الشبهات القديمة الحديثه .

قديمة : لأن كثيرا من مجادلى الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ، موهوا بها .. وحديثة ، لأنها كثيرا ما تراود الذين يتمسكون بالأوهام ، إرضاء لنزواتهم وشهواتهم ...

---

(١) سورة الطور الآيه ١٤

إنهم جميعا يقولون عند ارتكابهم للقبائح والمنكرات : هذا أمر الله وهذا قضاؤه ، وتلك مشيئته وإرادته ، ولو شاء الله عدم فعلنا لهذه الأشياء لما فعلناها ومادام الله ـ تعالى ـ قد قضى علينا بها فما ذنبنا ؟ ولماذا يعاقبنا عليها مادام قد شاءها لنا ؟

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى هذه الشبهة بأسلوبه الخاص فيقول: « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولاآباؤنا ، ولاحرمنا من دونه من شيء . . . »

أي : « وقال الذين أشركوا » مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى فى العبادة ، لنبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ لوشاء الله » تعالى ـ لنا عبادته وحده لعبدناه نحن وآباؤنا الذين هم قدوتنا .

ولوشاء لنا ولآبائنا ـ أيضاً ـ ألا نحرم شيئا مما حرمناه من البحائر والسوائب وغيرهما ، لتمت مشيئته ، ولما حرمنا شيئا لم يأذن به ـ سبحانه .

ولكنه ـ عز وجل ـ لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام ، وأن نحرم بعض الأنعام ، وقد رضى لنا ذلك ، فلماذا تطالبنا يامحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتغيير مشيئة الله ، وتدعونا إلى الدخول فى دين الإسلام ، الذى لم يشأ لنا الله ـ تعالى ـ الدخول فيه ؟

هذه حجتهم ، ولاشك أنها حجة داحضة، لأنهم يحيلون شركهم وفسوقهم على مشيئة الله ـ تعالى ـ مع أن مشيئته ـ تعالى ـ لم يطلع عليها أحد من خلقه حتى يقولوا ماقالوا . . .

وإنما الذى أطلعنا عليه ـ سبحانه ـ أنه أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم ـ لهدايتنا ، ومنحنا العقول التى نميز بها بين الحق والباطل ، فمن أطاع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سعد وفاز ، ومن أعرض عن هدايته خسر

وخاب قال ـ تعالى ـ : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل ، إما شاكرا وإما كفورا » .

وقال ـ سبحانه ـ : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ... »

ولقد حكى ـ سبحانه ـ شبهة المشركين هذه فى آيات أخرى ورد عليها ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : « وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم أن هم إلا يخرصون »[١] .

وقوله ـ سبحانه ـ : « سيقول الذين أشركوا لوشاء ماأشركنا ولا آباؤنا، ولاحرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإنه أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين ... »[٢]

هذا،وقد قلنا عندتفسيرهذه الآيات ماملخصه: ونريد أن نزيد هذه الشبهة القديمة الحديثه تمحيصا وكشفا ودفعا ،فنقول لأولئك الذين يبررون ارتكابهم للموبقات بأنها واقعة بمشيئة الله :

نقول لهم : نحن معكم فى أنه لايقع فى ملكه ـ سبحانه ـ إلا مايشاؤه . فالطائع تحت المشيئة ، والعاصى تحت المشيئة ، ولكن هذه المشيئة لم تجبر أحدا على طاعة أو معصية ، وقضاء الله هو علمه بكل ماهو كائن قبل أن يكون وليس العلم صفة تأثير وجبر .

ولقد شاء ـ سبحانه ـ أن يجعل فى طبيعه البشر الاستعداد للخير والشر ، ووهبهم العقل ليهتدوا به،وأرسل إليهم الرسل لينمو فيهم إستعدادهم،وسن لهم

---

(١) سورة الزخرف الآية ١٩ .
(٢) سورة الأنعام الآيات من ١٤٨ ـ ١٥٠

شريعة لتكون مقياسا ثابتا لما يأخذون ومايدعون ، كى لايتركهم لعقولهم وحدها .

وإذاً فمشيئته الله متحققة حسب سنته التي ارتضاها ، سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال، وهو مؤاخذ إن ضل ، ومأجور إذا اهتدى غير أن سنة الله اقتضت ، أن من يفتـــح عينه يبصر النور ، ومن يغمضها لايراه .

كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدى ، ومن يحجب قلبه عنها يضل . سنة الله ولن تجد لسنته تبديلا .

وإذا فزعم الزاعمين بأن الله شاء هذا ، على معنى أنه أجبرهم عليه ، فهم لايستطيعون عنه فكاكا ، إنما هو زعم باطل لاسند له من العلم والتفكير الصحيح ... »[1] .

وقوله - سبحانه - : « كذلك فعل الذين من قبلهم » تسلية للرسول الله صلى الله عليه وسلم - عما قاله هؤلاء المشركون من كذب ، ومانطقوا به من باطل :

واسم الإشارة « كذلك » يعود إلى إشراكهم وتحريمهم لما أحله الله - تعالى أى : مثل ذلك الفعل الشنيع الذى فعله قومك معك يامحمد ، فعل أشباههم السابقون مع أنبيائهم الذين أرسلهم الله - تعالى - لهدايتهم ، فلا تبتئس - أيها الرسول الكريم - مما فعله مشركو قومك . فإننا لولا وجودك فيهم ، لأنزلنا بهم ماأنزلنا على سابقيهم من عذاب .

والاستفهام فى قوله - تعالى : «فهل على الرسل إلا البلاغ المبين» إنكارى فى معنى النفى

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام من ص ٢٧٧ إلى ص ٢٨٥

والبلاغ : اسم مصدر بمعنى الإبلاغ . والمبين : الواضح الصريح .

أى : ما على الرسل الكرام الذين أرسلهم الله ـ تعالى ـ لإرشاد أقوامهم إلى الصراط المستقيم ، إلا الابلاغ الواضح ، المظهر لأحكام الله ، والمميز بين الحق والباطل ، أما إجبار الناس على الدخول فى الحق فليس من وظيفتهم .

قال ـ تعالى ـ « وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب »[1]

وقال ـ تعالى ـ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء . . . »[2]

ثم بين ـ سبحانه ـ أن من رحمته بعباده ، أن أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون الناس على الله حجة بعد الرسل ، فقال ـ تعالى ـ : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ، أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت . . . »

والطاغوت : اسم لكل معبود من دون الله ـ تعالى ـ ، كالأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات الباطلة ، مأخوذ من طغا يطغى طغوا . . . إذا جاوز الحد فى الضلال . . .

أى : ولقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا ، أن نبعث « فى كل أمة » من الأمم السالفة « رسولا » من رسلنا الكرام ، ليرشدوا الناس إلى الحق والخير ، وليقولوا « أن اعبدوا الله » ـ تعالى ـ وحده ، « واجتنبوا » عبادة « الطاغوت » الذى يضل ولا يهدى .

وأكد ـ سبحانه ـ الجملة باللام وقد ، للرد على مازعمه المشركون من أن الله ـ تعالى ـ لم ينكر عليهم عبادتهم لغيره ، وأنه ـ سبحانه ـ راض

---

(١) سورة الرعد الآية ٤٠ .

(٢) سورة البقرة : الآيه ٢٧٢ .

لتحريمهم لما أحله، حيث بين لهم - عز وجل - أنه قد أرسل الرسل للدعوة إلى عبادته وحده، ولتجنب عبادة أحد سواه .

و « أن » فى قوله « أن اعبدوا .. » تفسيريه، لأن البعث يتضمن معنى القول، إذ هو بعث للتبليغ .

ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء الأقوام من رسلهم فقال - تعالى - : « فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة ... »

أى : بعثنا فى كل أمة من الأمم السابقة رسولا لهداية أبنائها فمن هؤلاء الأبناء من هداهم الله - تعالى - إلى الحق وإلى الصراط المستقيم بأن وفقهم إليه، لانشراح صدورهم له، ومنهم من ثبتت وحقت عليه الضلالة، لاستحبابه العمى على الهدى .

وأسند - سبحانه - هداية بعض افراد هذه الأمم اليه، مع أنه أمر جميعهم - على ألسنة رسله - بالدخول فى طريق الهدى، للرد على المشركين الذين أحالوا شركهم وفسوقهم على مشيئة الله، إذ أن الله - تعالى - قد بين للناس جميعا طريق الخير وطريق الشر، فمنهم من استجاب للأولى، ومنهم من انحدر إلى الثانية، وكلاهما لم يقسره الله - تعالى - قسرا على الهدى أو الضلال . .

فاهتداء المهتدين إنما هو بسبب اختيارهم لذلك، واتباعهم الرسل، وضلال الضالين إنما هو بسبب استحواذ الشيطان عليهم .

وعبر - سبحانه - فى جانب الضالين بقوله : « ومنهم من حقت عليه الضلالة » للإشارة إلى أنهم لم يستجيبوا لما أرشدهم - سبحانه - إليه، بل ظلوا ثابتين مصممين على البقاء فى طريق الضلالة، « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدى القوم الفاسقين »[1] .

وقوله - سبحانه - : « فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »

---

(1) سورة الصف الآيه ٥ .

تحريض لهم على التأمل فى آثار المكذبين ، لعلهم عن طريق هذا التأمل والتدبر يثوبون إلى رشدهم ، ويعودون إلى صوابهم ، ويدركون سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن العاقبة الطيبة للمتقين ، والعاقبة السيئة للكافرين .

والفاء فى قوله « فسيروا ... » للتفريع ، وقد جىء بها للإشعار بوجوب المبادرة إلى التأمل والاعتبار .

أى : إن كنتم فى شك مما أخبرناكم به ، فسارعوا إلى السير فى الأرض ، لتروا بأعينكم آثار المجرمين ، الذين كذبوا الرسل . وأسندوا شركهم إلى مشيئة الله . لقد نزل بهؤلاء المكذبين عذاب الله ، فدمرهم تدميرا « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون »(١) .

ثم أخبر الله ـ تعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن حرصه على هداية المصرين على ضلالهم ، لن يغير من واقع أمرهم شيئا ، فقال ـ تعالى ـ « إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ... » .

والفعل المضارع « تحرص » بكسر الراء ماضيه « حرص » بفتحها كضرب يضرب .

والحرص : شدة الرغبة فى الحصول على الشىء ، والاستئثار به .

وقوله « فإن الله لا يهدى من يضل » تعليل لجواب الشرط المحذوف ، والتقدير :

إن تحرص ـ أيها الرسول الكريم ـ على هداية هؤلاء المصرين على كفرهم لن ينفعهم حرصك . فإن الله ـ تعالى ـ قد اقتضت حكمته أن لا يهدى من يخلق فيه الضلالة بسبب سوء اختياره ، وفساد استعداده .

وفى الجملة الكريمة إشارة إلى ما جبل عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكارم

---

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

الأخلاق ، فإنه مع ما اقيه من مشركى قومه من أذى وعناد وتكذيب . . .
كان حريصا على ما ينفعهم ويسعدهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله «فإن الله لا يهدى من يضل» جواب الشرط على معنى فاعلم ذلك ، أو علة للجواب المحذوف ، أى : إن تحرص على هداهم لن ينفع حرصك شيئا . فإن الله لا يهدى من يضل .

والمراد بالموصول كفار قريش المعبر عنهم قبل ذلك بالذين أشركوا ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتنصيص على أنهم ممن حقت عليهم الضلالة والأشعار بعلة الحكم . . .

ومعنى الاية : أنه ـ سبحانه ـ لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره .

و «من» على هذا . مفعول «يهدى» وضمير الفاعل فى «يضل» لله — تعالى — والعائد محذوف ، أى من يضله .

وقرأ غير واحد من السبعة «فإن الله لا يُهدَى . . .» بضم الياء وفتح الدال ـ على البناء المفعول .

و «من» على هذا نائب فاعل ، والعائد وضمير الفاعل كما مر . . .»(١)
والمعنى على هذه القراءة : إن تحرص على هداهم ـ يا محمد ـ لن ينفعهم حرصك ، فإن من أضله الله ـ تعالى ـ لا يهديه أحد .

وقوله : «وما لهم من ناصرين» تذييل مؤكد لما قبله .

أى : وليس لهؤلاء الضالين من ناصر يدفع عنهم عذاب الله ـ تعالى ـ إن نزل بهم ، أو يصرفهم عن سبيل الغى الذى آثروه على سبيل الرشد .

وشبيه بهذه الاية قوله ـ تعالى ـ : «ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من

(١) تفسير الالوسى جـ ١٤ ص ٣٩ .

الله شيئا ... »[١] وقوله – تعالى – : « من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون »[٢] .

* * *

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك مقولة أخرى من مقولاتهم الباطلة ، التى أكدوها بالإيمان المغلظة ، ورد عليها بما يدمغها ، فقال - تعالى - :

« وأقسمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِم ، لا يبعثُ اللهُ من يموتُ ، بلى وعداً عليه حقاً ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلمُون (٣٨) ليُبيِّنَ لهم الذى يختلِفُون فيه ، وليعلمَ الذينَ كفرُوا أنهُم كانُوا كاذبينَ (٣٩) إنما قولُنا لشىءٍ إذَا أردْنَاهُ أن نقولَ لهُ كُنْ فيكُونَ (٤٠) » .

« قوله - سبحانه – : « وأقسموا بالله جهد إيمانهم ..... » معطوف على قوله – تعالى - قبل ذلك « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ...... » للايذان بأنهم قد جمعوا بين إنكار التوحيد وإنكار البعث بعد الموت .

والقسم : الحلف : وسمى الحلف قسما ، لأنه يكون عند إنقسام الناس إلى مصدق ومكذب والجهد - بفتح الجيم - المشقة . يقال جهد فلان دابته وأجهدها ، إذا حمل عليها فوق طاقتها . وجهد الرجل فى كذا ، إذا جد فيه وبالغ ، وبابه قطع .

والمراد بقوله : « جهد إيمانهم » أنهم أكدوا الإيمان ووثقوها بكل ألفاظ

---

(١) سورة المائدة الآيه ٤١

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٦

التأكيد والتوثيق ، على أنه لا بعث ولا حساب بعد الموت ، لأنهم يزعمون أن إعادة الميت إلى الحياة بعد أن صار ترابا وعظاما نخرة ، أمر مستحيل .

وقد أكدوا زعمهم هذا بالقسم ، للتدليل على أنهم متثبتين عما يقولونه ، ومتيقنين من صحة ما يدعونه ، من أنه لا يبعث الله من يموت . .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « وأقسموا بالله جهد إيمانهم . . . . » هذا تعجيب من صنعهم ، إذ أقسموا بالله وبالغوا فى تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت .

ووجه العجب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات .

وقال أبو العالية : كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه ، وكان فى بعض كلامه : والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا ، فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت فنزلت الآية .

وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - : قال الله - تعالى - كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك . وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وأما شتمه إياى فقوله : إتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد ، لم يولد ولم يكن له كفوا أحد » (١)

وقوله - سبحانه - « بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » تكذيب لهم فيما زعموه من أن الله - تعالى - لا يبعث من يموت ، ورد عليهم فيما قالوه بغير علم . و « بلى » حرف يؤتى به لإبطال النفى فى الخبر والاستفهام .

أى : بلى سيبعث الله - تعالى - الأموات يوم القيامه ، وقد وعد بذلك

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٠٥ .

وعدا صدقا لاخلف فيه ولا تبديل، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة لجهلهم بكمال قدرة الله - تعالى - ، وعموم علمه، ونفاذ إرادته، وسمو حكمته.

قال الجمل : وقوله : « وعدا عليه حقا » هذان المصدران منصوبان على المصدر المؤكد، أي : وعد ذلك وعدا، وحق حقا . وقيل : حقا نعتا لوعدا. والتقدير . بلى يبعثهم وعد بذلك وعدا حقا »[1]

وجيء بقوله « عليه » لتأكيد هذا الوعد . تفضلا منه - سبحانه - وكرما والمراد بالحق هنا : الصدق الذى لا يتخلف ، والثابت الذى لا يتبدل .
أى : وعدا صادقا ثابتا لا يقبل الخلف ، لأن البعث من مقتضيات حكمته - سبحانه - .

والمراد بأكثر الناس : المشركون ومن كان على شاكلتهم فى إنكار البعث والحساب والثواب والعقاب يوم القيامة .

وفى التنصيص على أكثر الناس ، مدح للأقلية منهم ، الذين آمنوا بالبعث وبالآخرة وما فيها من حساب ، وهم المؤمنون الصادقون ،

هذا ، وقد حكى - سبحانه - مزاعم المشركين ورد عليها فى آيات كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم .... »[2]

وقوله - تعالى - : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة .... »[3]

ثم بين - سبحانه - الحكمة من بعث الناس يوم القيامة ، فقال - تعالى - : « ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين »

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ صـ ٥٧١
(٢) سورة التغابن الآية ٧
(٣) سورة يس الآية ٧٨ ، ٧٩

واللام فى قوله « ليبين لهم . . . » وفى قوله « وليعلم . . . » متعلقة بما دل عليه حرف « بلى » وهو يبعثهم .

أى : بلى يبعث الله ـ تعالى ـ الموتى ، ليظهر لهم وجه الحق فيما إختلفوا فيه فى شأن البعث وغيره ، وليعلم الذين كفروا علم مشاهدة ومعاينة ، أنهم كانوا كاذبين فى قسمهم أن الله ـ تعالى ـ لا يبعث من يموت ، وفى غير ذلك من أقوالهم الباطلة ..

وفى إظهار الحق ، وفى بيان كذبهم يوم البعث ، حسرة وندامة لهم ، حيث ظهر لهم ما أنكروه فى الدنيا ، وما كانوا يستهزئون به ، عندما كان الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يدعونهم إلى نبذ الشرك ، وإلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده .

فالآية الكريمة قد بينت حكمتين لبعث الناس للحساب يوم القيامة، الأولى إظهار ما اختلفوا فيه فى شأن البعث وغيره مما جاءتهم به الرسل . والثانية : إظهار كذب الكافرين الذين أنكروا البعث وإستهزءوا بمن دعاهم إلى الإيمان به .

وقوله ـ سبحانه ـ : « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » استئناف لتأكيد قدرة الله ـ تعالى ـ النافذة ، وشمولها لكل شىء من بعث وغيره ، وذلك لأن الكفار لما أقسموا بالله جهد أيمانهم بأنه ـ سبحانه لا يبعث الموتى ، ورد عليهم بما يبطل مزاعمهم ، أتبع ذلك ببيان أن قدرته ـ تعالى ـ لا يتعاصى عليها شىء ، ولا يحول دون نفاذها حائل . . .

قال الإمام ابن كثير : أخبر ـ سبحانه ـ عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له « كن فيكون » . والمراد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء ، قال ـ تعالى ـ : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » وقال ـ سبحانه ـ « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » .

وقال - سبحانه - فى هذه الآية « إنما أمرنا إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » أى : يأمر به دفعة واحده فإذا هو كائن . قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمرا فإنما　　　يقول له « كن » قولة فيكون

أى : « أنه - تعالى - لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه - سبحانه - لا يمانع ولا يخالف ، لأنه الواحد القهار العظيم ، الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شىء ..... »[1] .

وقال بعض العلماء : وعبر - تعالى - عن المراد قبل وقوعه باسم الشىء ، لأن تحقق وقوعه كالوقوع بالفعل ، فلا تنافى الاية إطلاق الشىء على خصوص الموجود دون المعدوم ، لأنه لما سبق فى علم الله أنه يوجد ذلك الشىء - وأنه يقول كن فيكون - ، كان تحقق وقوعه بمنزلة وقوعه .

أو لأنه أطلق عليه اسم الشىء باعتبار وجوده المتوقع كتسمية العصير خمرا فى قوله « إنى أرانى أعصر خمرا .. » نظرا لما يؤول إليه ...[2] .

وقوله « فيكون » قرأه الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : فهو يكون ...

وقرأ ابن عامر والكسائى « فيكون » بالنصب عطفا على قوله « أن نقول له .... »

وبذلك نرى الايات الكريمة قد حكت جانبا من أقوال المشركين ، وردت عليها بما يبطلها ، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم .

وبعد أن عرضت السورة الكريمة لأقاويل المشركين وردت عليها ...

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٩١ .

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٣ ص ٢٧٢ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

أتبعت ذلك بذكر جانب من الثواب العظيم الذى أعده الله - تعالى - للمؤمنين الصادقين، الذين فارقوا الدار والأهل والخلان، من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى -، فقال - سبحانه - :

« والذينَ هاجرُوا فى اللهِ من بَعدِ ما ظُلِمُوا لنُبَوِّئَنَّهم فى الدنيا حسنة ولأجرُ الآخـرةِ أكبرُ لو كانوا يعلمونَ (٤١) الذينَ صبرُوا وعلى ربهم يتوكلونَ (٤٢).

أخرج ابن جرير عن قتادة قال : قوله - تعالى - : « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا .... » هؤلاء أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طائفة منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله - تعالى - المدينة فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين ....

وعن ابن عباس : هم قوم هاجروا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أهل مكة، بعد أن ظلمهم المشركون »[1].

والذى نراه أن الآية الكريمة تشمل هؤلاء، وتشمل غيرهم ممن هاجر من بلده إلى غيرها، رجاء ثواب الله، وخدمة لدينه.

والمهاجرة فى الأصل تطلق على المفارقة والمتاركة للديار وغيرها، واستعملت شرعا فى المهاجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، أو من دار الكفر إلى غيرها لنشر دعوة الإسلام.

وقوله « لنبوئنهم » من التبوؤ بمعنى الإحلال والإسكان والإنزال يقال بوأ فلان فلانا منزلا، إذا أسكنه فيه، وهيأه له ...

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٧٣

« وحسنة » صفة لموصوف محذوف أى : لنبوئنهم تبوئة حسنة ، أو دارا حسنة ....

والمراد بهذه الحسنة مايشمل نزولهم فى المدينة ، ونصرهم على أعدائهم ، وإبدال خوفهم أمنا ...

قال القرطبي فى المراد بالحسنة هنا ستة أقوال: نزول المدينة؛ قاله ابن عباس والحسن ... الثانى : الرزق الحسن . قاله مجاهد . الثالث : النصر على عدوهم ، قاله الضحاك . الرابع : لسان صدق ، حكاه ابن جريج . الخامس : ما استولوا عليه من البلاد ... السادس : مابقى لهم فى الدنيا من ثناء ، وما صارفيها لأولادهم من الشرف ..

ثم قال : وكل ذلك قد اجتمع لهم بفضل الله ـ تعالى ـ »[1] .

والمعنى : والذين هاجروا فى سبيل الله، وفارقوا قومهم واوطانهم وأموالهم وأولادهم ... من أجل إعلاء كلمته، بعد أن تحملوا الكثير من أذى المشركين وظلمهم وطغيانهم ...

هؤلاء الذين فعلوا ذلك من أجل نصرة ديننا ، لنسكننهم فى الدنيا مساكن حسنة يرضونها ، ولنعطينهم عطاء حسنا يسعدهم ، ولننصرنهم على أعدائهم نصرا مؤزرا ...

وقوله « فى الله » أى : فى سبيله ، ومن أجل نصرة دينه . فحرف « فى » مستعمل للتعليل ، كما فى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ..... » .

والمقصود أن هذا الأجر الجزيل إنما هو للمهاجرين من أجل إعلاء كلمة الله ، ومن أجل نصرة الحق ، وليس لمن هاجر لنشر الظلم أو الفساد فى الأرض ...

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٠٧

وأسند فعل «ظلموا» إلى المجهول، لظهور الفاعل من السياق وهو المشركون.

وفي ذلك إشارة إلى أن هؤلاء المهاجرين لم يفارقوا ديارهم، إلا بعد أن أصابهم ظلم أعدائهم لهم، كتعذيبهم إياهم، وتضييقهم عليهم، إلى غير ذلك من صنوف الأذى ...

وأكد — سبحانه — الجزاء الحسن الذي وعدهم به باللام وبنون التوكيد «لنبوئنهم ...»، زيادة في إدخال السرور والطمأنينة على قلوبهم، وجبرا لكل مااشتملت عليه الهجرة من مصاعب وآلام وأضرار...

إذ الحسنة — كما قلنا — تشمل كل حسن أعطاه الله - تعالى - المهاجرين في هذه الدنيا ...

أما في الآخرة فأجرهم أعظم، وثوابهم أجزل، كما قال — تعالى —: «ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون».

والضمير في قوله «لو كانوا يعلمون» يعود على أعدائهم الظالمين.

أي: ولثواب الله - تعالى - لهم في الآخرة على هجرتهم من أجل إعلاء كلمته، أكبر وأعظم، ولو كان أعداؤهم الظالمون يعلمون ذلك لدخلوا في دين الإسلام، ولأقلعوا عن ظلمهم لهؤلاء المهاجرين.

وكأن جملة «لو كانوا يعلمون» جوابا عن سؤال تقديره: كيف لم يقتد بهم من بقي على الكفر مع هذا الثواب الذي أعده الله لهؤلاء المهاجرين؟

فكان الجواب: لو كان هؤلاء الكافرون يعلمون ذلك لأقلعوا عن كفرهم.

ويصح أن يكون الضمير يعود على المهاجرين ، فيكون المعنى : لو كانوا يعلمون علم مشاهدة ومعاينة ما أعده الله لهم ، لما حزنوا على مفارقة الأوطان والأولاد والأموال ، ولازدادوا حبا وشوقا واجتهادا فى المهاجرة .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب ، أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له « خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله فى الدنيا ، وماذخره لك فى الآخرة أفضل ، ثم تلا هذه الآية(١) .

وجوز بعضهم أن يكون الضمير يعود للمتخلفين عن الهجرة . أى : لو علم هؤلاء المتخلفون عن الهجرة ، ما أعده ـ سبحانه ـ من أجر للمهاجرين ، لما تخلفوا عن ذلك .

وعلى أية حال فلا مانع من أن يكون الضمير يعود على كل من يتأتى له العلم ، بهذا الثواب الجزيل لهؤلاء المهاجرين فى سبيل الله ـ تعالى ـ

ثم وصف ـ سبحانه ـ هؤلاء المهاجرين بوصفين كريمين فقال : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » أى : هذا الأجر العظيم لهؤلاء المهاجرين الذين صبروا على ما أصابهم من عدوان وظلم ، وفوضوا أمرهم إلى خالقهم ، فاعتمدوا عليه وحده ، ولم يعتمدوا على أحد سواه .

وصفتا الصبر والتوكل على الله . إذا دخلا فى قلب، حملاه على اعتناق كل فضيلة ، واجتناب كل رذيلة .

وعبر عن صفة الصبر بصيغة الماضى للدلالة على أن صبرهم قد آذن بالانتهاء لانقضاء أسبابه وهو ظلم أعدائهم لهم ، لأن الله ـ تعالى ـ قد جعل لهم مخرجا بالهجرة ، وذلك بشارة لهم .

وعبر عن صفة التوكل بصيغة المضارع للإشارة إلى أن هذه الصفة ديدنهم

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٧٤ .

فى كل وقت ، فهم متوكلون عليه - سبحانه - وحده فى السراء والضراء ، وفى العسر واليسر ، وفى المنشط والمكره ..

والمتأمل فى هاتين الآيتين الكريمتين ، يراهما قد غرستا فى النفوس محبة هذا الدين ، والاستهانة بكل ألم أوضر أومصيبا فى سبيل إعلاء كلمته ، والرغبة فيما عند الله - تعالى - من أجر وثواب .

ثم رد - سبحانه - على المشركين الذين أنكروا أن يكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - من البشر ، فبين - سبحانه - أن الرسل السابقين الذين لا ينكر نبوتهم كانوا من البشر ، فقال - تعالى - .

« وما أرْسَلْنا مِن قبلِكَ إلاّ رجالاً نوحِى إليهم ، فاسألوا أهلَ الذِّكر إن كنتم لا تعلمُون (٤٣) بالبيِّناتِ والزبُرِ وأنزلْنا إليكَ الذكرَ لتبيِّن للناسِ ما نزِّل إليهم ، ولعلّهم يتفكرونَ (٤٤) » .

قال الإمام ابن كثير : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : لما بعث الله - تعالى - محمدا - صلى الله عليه وسلم - رسولا ، أنكرت العرب ذلك ، أومن أنكر منهم ، وقالوا : الله أعظم من ان يكون رسوله بشرا ، فأنزل الله : « أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ... » ، وقال : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم .... »[1]

أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - لهداية الناس وإرشادهم إلى الحق إلا رجالا مثلك ، وقد أوحينا إليهم بما يبلغونه إلى أقوامهم ، من نصائح وتوجيهات وعبادات وتشريعات ، وقد لقى هؤلاء الرسل من أقوامهم ، مثل مالقيت من قومك من أذى وتكذيب وتعنت فى الأسئلة ...

فالمقصود من الآية الكريمة تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - والرد على المشركين فيما أثاروه حوله - صلى الله عليه وسلم - من شبهات .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٢ .

وقد حكى القرآن فى مواطن عدة إنكار المشركين لبشرية الرسل ورد عليهم بما يخرسهم ، ومن ذلك وقوله ـ تعالى ـ : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ... »[1]

وقوله ـ تعالى ـ : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم ، إلا أن قالوا ، أبعث الله بشرا رسولا »[2] .

وقوله ـ تعالى ـ : « ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا أبشر يهدوننا ، فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد »[3] .

والمراد بأهل الذكر فى قوله « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » علماء أهل الكتاب أى : لقد اقتضت حكمتنا أن يكون الرسول من البشر فى كل زمان ومكان ، فإن كنتم فى شك من ذلك ـ أيها المكذبون ـ فاسألوا علماء أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى ، فسيبينون لكم أن الرسل جميعا كانوا من البشر ولم يكونوا من الملائكة .

وهذه الجملة الكريمة معترضة بين قوله ـ تعالى ـ « وما أرسلنا ... » وبين قوله بعد ذلك : « بالبينات والزبر ... » ، المبادرة إلى توبيخ المشركين وإبطال شبهتهم ، لأنه قد احتج عليهم ، بمن كانوا يذهبون إليهم لسؤالهم عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وفى قوله ـ تعالى ـ « إن كنتم لا تعلمون » إيماء إلى أنهم كانوا يعلمون أن الرسل لا يكونون إلا من البشر ، ولكنهم قصدوا بإنكار ذلك الجحود والمكابرة ، والتمويه لتضليل الجهلاء ، ولذا جىء فى الشرط بحرف « إن » المفيد للشك .

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٩ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٩٤ .
(٣) سورة التغابن الآية ٦ .

وجواب الشرط لهذه الجملة محذوف ، دل عليه ماقبله . أى : إن كنتم لاتعلمون ، فاسألوا أهل الذكر .

وقيل المراد بأهل الذكر هنا : المسلمون مطلقا ، لأن الذكر هو القرآن ، وأهله هم المسلمون .

ونحن لاننكر أن الذكر يطلق على القرآن الكريم ، كما فى قوله ـ تعالى ـ « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » إلا أن المراد بأهل الذكر هنا : علماء أهل الكتاب ، لأن المشركين كانوا يستفسرون منهم عن أحوال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أكثر من استفسارهم من المسلمين .

قال الآلوسى ماملخصه قوله ـ تعالى ـ : « فاسألوا أهل الذكر ... » أى : أهل الكتاب من اليهود والنصارى . قاله : ابن عباس والحسن والسدى وغيرهم .

وقال أبو حيان فى البحر : والمراد من لم يسلم من أهل الكتاب ، لأنهم الذين لا يتهمون عند المشركين فى إخبارهم بأن الرسل كانوا رجالا ، فإخبارهم بذلك حجة عليهم . والمراد كسر حجتهم وإلزامهم ، وإلا فالحق واضح فى نفسه لايحتاج إلى إخبار هؤلاء ... »[1]

قالوا : فى الآية دليل على وجوب الرجوع إلى أهل العلم فيما لايعلم ، وعلى أن الرسل جميعا كانوا من الرجال ولم يكن من بينهم امرأة قط .

والجار والمجرور فى قوله : « بالبينات والزبر ..... » متعلق بقوله « وما أرسلنا ... » ، وداخل تحت حكم الاستثناء مع « رجالا » .

والمراد بالبينات : الحجج والمعجزات الدالة على صدق الرسل .

والزبر : جمع زبور بمعنى مزبور أى مكتوب . يقال : زبرت الكتاب ـ من باب نصر وضرب ـ أى : كتبته كتابة عظيمة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٤٧ .

أى : وما أرسلنا من قبلك ـ أيها الرسول الكريم ـ إلا رجالا مؤيدين بالمعجزات الواضحات ، وبالكتب العظيمة المشتملة على التشريعات الحكيمة والآداب الجيدة ، والعقائد السليمة ، التى تسعد الناس فى دينهم وفى دنياهم .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » بيان للحكم التى من أجلها أنزل الله ـ تعالى ـ القرآن على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

أى : وأنزلنا إليك ـ أيها الرسول الكريم ـ القرآن، لتعرف الناس بحقائق وأسرار ما أنزل لهدايتهم فى هذا القرآن من تشريعات وآداب وأحكام ومواعظ ولعلهم بهذا التعريف والتبيين يتفكرون فيما أرشدتهم إليه ، ويعملون بهديك ويقتدون بك فى أقوالك وأفعالك ، وبذلك يفوزون ويسعدون .

فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على حكمتين من الحكم التى أنزل الله ـ تعالى ـ من اجلها القرآن على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

أما الحكمة الأولى : فهى تفسير ما اشتمل عليه هذا القرآن من آيات خفى معناها على أتباعه ، بأن يوضح لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أجمله القرآن الكريم من أحكام ، ويؤكد لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الأحكام . . .

فنى الحديث الشريف عن المقدام بن معد يكرب ، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . . . . » .

وأما الحكمة الثانية : فهى التفكر فى آيات هذا القرآن ، والاتعاظ بها ، والعمل بمقتضاها ، قال ـ تعالى ـ : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . وليتذكر أولوا الألباب » .

والمراد بالناس فى قوله ـ تعالى ـ « لتبين للناس.. » العموم، ويدخل فيهم المعاصرون لنزول القرآن الكريم دخولا أوليا .

وأسند ـ سبحانه ـ التبيين إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه هو المبلغ عن الله ـ تعالى ـ ما أمره بتبليغه .

قال الجمل : قوله ـ تعالى ـ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ... يعني : أنزلنا إليك ـ يا محمد ـ الذكر الذي هو القرآن ، وإنما سماه ذكراً ، لأن فيه مواعظ وتنبيها للغافلين ، « لتبين للناس ما نزل إليهم » يعني ما أجمل إليك من أحكام القرآن ، وبيان الكتاب يطلب من السنة ، والمبين لذلك المجمل هو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولهذا قال بعضهم : متى وقع تعارض بين القرآن والحديث ، وجب تقديم الحديث ، لأن القرآن مجمل والحديث مبين ، بدلالة هذه الآية ، والمبين مقدم على المجمل »[1] .

وبعد أن ردت السورة الكريمة على ما أثاره المشركون من شبهات حول الدعوة الإسلامية ، أتبعت ذلك بتهديدهم من سوء عاقبة ما هم فيه من كفر وعصيان وعناد ، فقال ـ تعالى ـ :

« أفأَمِنَ الذين مكروا السيئات أن يخسِفَ اللهُ بهم الأرضَ ، أو يأتِيَهم العذابُ من حيثُ لا يشعرونَ (٤٥) أو يأخذَهم في تقلُّبِهم فما هُم بمُعجِزينَ (٤٦) أو يأخُذَهم على تخَوُّفٍ فإنّ ربَّكم لرءوفٌ رحيم (٤٧) » .

قال الآلوسي ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : « أفأمن الذين مكروا السيئات » هم عند أكثر المفسرين ، مشركو مكة ، الذين مكروا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وراموا صد أصحابه عن الإيمان ...

وقيل : هم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء ... والمعول عليه ما عليه أكثر المفسرين »[2] .

والاستفهام في الآية الكريمة للتعجيب والتوبيخ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٧٢

(٢) تفسير الآلوسي ج ١٤ ص ١٥٠

والفاء للعطف على مقدر دل عليه المقام .

قال بعضهم مامخلصه : كل ما جاء فى القرآن الكريم ، من همزة إستفهام بعدها واو العطف أو فاؤه. فالأظهر فيه، أن الفاء والواو كلتاهما عاطفةمابعدها على محذوف دل عليه المقام . .

والتقدير هنا : أجهل الذين مكروا السيئات وعيد الله لهم بالعقاب . فأمنوا مكره ... »(١)

والمراد بمكرهم هنا : سعيهم بالفساد بين المؤمنين ، على سبيل الإخفاء والخداع .

والسيئات : صفة لمصدر محذوف . أى : مكروا المكرات السيئات . والمكرات ـ بفتح الكاف ـ جمع مكرة ـ بسكونها ـ وهى المرة من المكر . ويجوز أن تكون كلمة السيئات مفعولا به بتضمين « مكروا » معنى : فعلوا ...

والخسف : التغييب فى الأرض ، بحيث يصير المخسوف به فى باطنها . يقال : خسف الله بفلان الأرض ، إذا أهلكه بتغييبه فيها .
ومنه قوله ـ تعالى ـ : « فخسفنا به وبداره الأرض .... » .

والمعنى أجهل الذين اجترحوا السيئات وعيدنا ، فأمنوا عقابنا وتوهموا أنهم لن يصيبهم شيء من عذابنا ، الذى من مظاهره خسف الأرض بهم ، كما خسفناها بقارون من قبلهم ؟ ! !

إن جهلهم هذا لدليل على انطماس بصيرتهم ، واستحواذ الشيطان عليهم. وقوله « أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون » بيان للون آخر من ألوان تهديدهم .

---

(١) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى حـ ٣ ص ٢٧٦ .

أي : فى قدرتنا أن نخسف بهم الأرض ، وفى قدرتنا أيضا أن نرسل عليهم العذاب فجأة فيأتيهم من جهة لا يتوقعون مجيئه منها ، ولا يترقبون الشر من ناحيتها .

وفى الجملة الكريمة إشارة إلى أن هذا العذاب الذى يأتيهم من حيث لا يشعرون . عذاب لا يمكن دفعه أو الهروب منه ، لأنه أتاهم بغتة ، ومن جهة لا يترقبون الشر منها .

وشبيه بهذا قوله - سبحانه - « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ... »

وقوله - سبحانه - : « أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين » بيان لنوع ثالث من أنواع التهديدات التى هددهم الله - تعالى - بها .

والأخذ فى الأصل : حوز الشىء وتحصيله . والمراد به هنا : القهر والإهلاك والتدمير ومنه قوله - تعالى - : « فأخذهم أخـذة رابية » وقوله - تعالى - : « كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » .

والتقلب : الحركة السريعة إقبالا وإدبارا ، من أجل السعى فى شئون من متاجرة ومعاملة وسفر وغير ذلك .

ومنه قوله - تعالى - : لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد » .

أي : فى قدرتنا أن نخسف بهم الأرض ، وأن نرسل عليهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وفى قدرتنا كذلك أن نهلكهم وهم يتحركون فى مناكب الأرض خلال سفرهم أو إقامتهم ، فإنهم فى جميع الأحوال لا يعجزونا أخذهم، ولا مهرب لهم مما نريده بهم .

وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى — : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون»[1] .

---

(١) سورة الأعراف الآيات ٩٧ — ٩٩ .

وقوله ـ سبحانه ـ : «أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم».

قال بعض العلماء : «التخوف في اللغة يأتي مصدر تخوف القاصر ، بمعنى خاف ، ويأتي مصدر تخوف المتعدي بمعنى تنقص . وهذا الثاني لغة هذيل ، وهي من اللغات الفصيحة التي جاء بها القرآن»[1] .

والمعنى على الأول : أو يأخذهم وهم في حالة خوف وتوقع لنزول العذاب بهم ، كما نزل بالذين من قبلهم .

وإلى هذا المعنى أشار ابن كثير بقوله : «أو يأخذهم على تخوف ، أي : أو يأخذهم الله ـ تعالى ـ في حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد حالات الأخذ ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ...»[2]

والمعنى على الثاني : أو يأخذهم وهم في حالة تنقص في أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، حتى يهلكوا ، فيكون هلاكهم قد سبقه الفقر والقحط والمرض ، وفي ذلك ما فيه من عذاب لهم ، وحسرة عليهم .

قال القرطبي : وقال سعيد بن المسيب : بينما عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه على المنبر قال : أيها الناس ما تقولون في قول الله عز وجل ـ «أو يأخذهم على تخوف» ، فسكت الناس .

فقال شيخ من بني هذيل : هي لغتنا يا أمير المؤمنين . التخوف : التنقص .

فقال عمر : أتعرف العرب ذلك في أشعارهم ؟ قال نعم : قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقة تنقّص السير سنامها بعد اكتنازه :

تخوّف الرحلُ منها تامكا قَرِدا ... كما تخوّف عودَ النبعةِ السَّفِنُ

---

(١) تفسير التحرير والتنوير . للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٩٤ .

فقال عمر : أيها الناس : عليكم بديوانكم شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم »[1] .

وختم — سبحانه — الآية الكريمة بقوله : « فإن ربكم لرءوف رحيم » لبيان فضله - سبحانه - على عباده، حيث لم يعالجهم بالعقوبة، بل أمهلهم لعلهم يتوبون إليه ويستغفرونه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حذرت الكافرين من التمادى فى كفرهم ، وهددتهم : بخسف الأرض بهم ، أو بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون ، أو بإهلاكهم وهم فى الأرض يكدحون . . .

وبعد أن خوف — سبحانه — الماكرين بما خوف ، أتبع ذلك بما يدل على كمال قدرته وعظمته وجلاله،حيث خضعت جميع المخلوقات لذاته-سبحانه- فقال - تعالى - :

« أَوَلم يَرَوْا إلى ما خلَق اللهُ من شىء ، يتفيؤُ ظِلاَلُه عن اليمينِ والشمائِل سجداً للهِ وهم داخِرُونَ (٤٨) وللهِ يسجُد ما فى السموات وما فى الأرضِ من دابةٍ ، والملائكةُ وهُم لا يستكبِرونَ (٤٩) يخافونَ ربَّهم من فوقِهم ويفعلونَ ما يُؤمَرون (٥٠) » .

قرأ جمهور القراء « أو لم يروا ... » وقرأ حمزة والكسائى : « أو لم تروا » بالتاء ، على الخطاب ، على طريقة الالتفات .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١١٠ . وتخوف فى البيت بمعنى تنقص ، والرحل : السفر . والتامك : المرتفع . والقرد المتراكم لحمه بعضه فوق بعض من السمن . والنبعة : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسى . والسفن : مايقطع به الخشب . فكأنه يقول : إن هذه الناقة قد تنقص السفر سنامها ، كما يتنقص المنشار أو مايشبهه أعواد الأشجار .

وقوله « من شيء » بيان للإبهام الذي في « ما » الموصولة في قوله « إلى ما خلق الله » .

وقوله (يتفيؤ) من التفيؤ ، بمعنى الرجوع . يقال : فاء فلان يفيء إذا رجع وفاء الظل فيأ ، إذا عاد بعد إزالة ضوء الشمس له . وتفيؤ الظلال : تنقلها من جهة إلى أخرى بعد شروق الشمس ، وبعد زوالها . . .

والظلال : جمع ظل ، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور .

و (داخرون) من الدخور بمعنى الانقياد والخضوع . يقال: دخر فلان يدخر دخورا ، ودخر ـ بزنة فرح ـ يدخر دخراً ، إذا انقاد لغيره وذل له.

والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون الذين مكروا السيئات، ولم يروا ما خلق الله ـ تعالى ـ من الأشياء ذوات الظلال ـ كالجبال والأشجار وغيرها ـ وهي تتنقل ظلالها من جانب إلى جانب ، ومن جهة إلى جهة ، باختلاف الأوقات وهي في كل الأحوال والأوقات منقادة لأمر الله ـ تعالى ـ ، جارية على ما أراده لها من امتداد وتقلص وغير ذلك ، خاضعة كل الخضوع لما سخرت له . .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : يخبر ـ تعالى ـ عن عظمته وجلاله ، الذي خضع له كل شيء ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها، جمادها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة ، فأخبر أن كل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال ـ أي بكرة وعشيا ـ ، فإنه ساجد بظله لله ـ تعالى ـ)[1].

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ (أو لم يروا . . .) للإنكار والتوبيخ ، والرؤية بصرية . .

أي : قد رأوا كل ذلك ، ولكنهم لم ينتفعوا بما رأوا ، ولم يتعظوا بما شاهدوا . .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٩٤ طبعة دار الشعب .

والمراد بقوله : « عن اليمين والشمائل » جهتهما ، وليس المراد التقييد بذلك ، إذ أن الظل أحيانا يكون أمام الإنسان وأحيانا يكون خلفه . وإنما ذكر اليمين والشمائل اختصارا للكلام .

وأفرد اليمين ، لأن المراد به جنس الجهة ، كما يقال : المشرق ، أى جهة المشرق ، وجمع « الشمائل » - مفرده شمال - ، لأن المقصود تعدد هذه الجهة باعتبار تعدد أصحابها .

وقال الشوكانى : قال الفراء : وحد اليمين ، لأنه أراد واحدا من ذوات الأظلال ، وجمع الشمائل ، لأنه أراد كلها .

قال الواحدى : وحد اليمين والمراد به الجميع إيجازا فى اللفظ ، كقوله : « ويولون الدبر » ، ودلت الشمائل على أن المراد به الجمع . وقيل : إن العرب إذا ذكرت صيغتى جمع عبرت عن إحداهما بلفظ الواحد ، كما فى قوله -تعالى- « وجعل الظلمات والنور ... »[1]

وقوله - سبحانه - « سجدا لله وهم داخرون » حال من « ظلاله » ، أى : حال كون هذه الأشياء وظلالها سجدا لله -تعالى- ، وحال كون الجميع لا يمتنع عن أمر الله - تعالى - ، بل الكل خاضع له - سبحانه - كل الخضوع .

وجاء قوله - تعالى - « وهم داخرون » بصيغة الجمع الخاصة بالعقلاء ، تغليبا لهم على غيرهم ثم أتبع - سبحانه - هذه الآية الكريمة ، بآية أخرى مؤكدة لها ، ومبينة أن كل المخلوقات لن تمتنع عن السجود لله - تعالى - ، سواء أكانت لها ظلال أم لا ، فقال -سبحانه- : « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة ، والملائكة وهم لا يستكبرون .. »

والدابة : كل ما يدب على وجه الأرض ، مشتقة من الدب بمعنى الحركة .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ١٦٦ .

قال الجمل : قال العلماء ، السجود على نوعين : سجود طاعة وعبادة كسجود المسلم لله - عز وجل - وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال . فقوله «ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض . . » يحتمل النوعين ، لأن سجود كل شيء بحسبه ، فسجود المسلمين والملائكة سجود طاعة وعبادة، وسجود غيرهم سجود خضوع وانقياد . . . »[1]

وأوثرت «ما» الموصولة على من ، تغليبا لغير العقلاء ، لكثرتهم ولإرادة العموم .

وقوله : « من دابة » بيان لما فى الأرض ، إذ الدابة ما يدب على الأرض أو - كما يقول الآلوسى - بيان لما فيهما ، بناء على أن الدبيب هو الحركة الجسمانية ، سواء أكانت فى أرض أو سماء . . »[2]

وقوله « والملائكة » معطوف على « ما » فى قوله « ما فى السموات وما فى الأرض » من باب عطف الخاص على العام .

وخصهم - سبحانه - بالذكر تشريفا لهم . ورفعا لمنزلتهم ، وتعريضا بالمشركين الذين عبدوا الملائكة . أو قالوا هم بنات الله .

وقوله « وهم لا يستكبرون » أى : والملائكة لايستكبرون عن إخلاص العبادة له ، وعن السجود لذاته - سبحانه - بل هم « عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

ثم وصفهم - سبحانه - بالخشية منه ، وبالخوف من عقابه فقال : «يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون » .

أى : أن من صفات الملائكة ، أنهم يخافون ربهم الذى هو من فوقهم

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٧٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٥٧ .

بجلاله وقهره وعلوه - بلا تشبيه ولا تمثيل - ، ويفعلون ما يؤمرون به من الطاعات ، ومن كل ما يكلفهم به - سبحانه - دون أن تصدر منهم مخالفة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد وصفت الله - تعالى - بما هو أهل له - سبحانه - من صفات القدرة والجلال والكبرياء ، حتى يفيء الضالون إلى رشدهم ، ويخلصوا العبادة لخالقهم - عز وجل -

وبعد أن بين - سبحانه - أن كل شيء في هذا الكون خاضع لقدرته ، أتبع ذلك بالنهي عن الشرك ، وبوجوب إخلاص العبادة له ، فقال - تعالى -

« وقالَ اللهُ لا تتَّخِذوا إلهَيْنِ اثنينِ ، إنما هو إلهٌ واحدٌ ، فإيايَ فارْهَبونِ (٥١) ولهُ مافي السمواتِ والأرضِ ، وله الدينُ واصباً ، أفغيرَ اللهِ تتقون (٥٢) وما بكم مِنْ نِعْمَةٍ فمن اللهِ ، ثم إذا مسَّكم الضرُّ فإليه تجأرُونَ (٥٣) ثم إذا كشفَ الضُّرَّ عنكُمْ إذَا فريقٌ منكم بربِّهِم يشركونَ (٥٤) ليكفُروا بما آتيْنَاهُم فتمتَّعُوا فسَوْفَ تعلَمُونَ (٥٥) » .

قال الإمام الرازي : اعلم أنه - سبحانه - لما بين في الآية الأولى ، أن كل ما سوى الله - تعالى - . سواء أكان من عالم الأرواح أم من عالم الأجسام ، منقاد وخاضع لجلاله - تعالى - وكبريائه - أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك ، وببيان أن كل ما سواه واقع في ملكه وتحت تصرفه ، وأنه غني عن الكل ، فقال - تعالى - : « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ... »[١]

أي : وقال الله - تعالى - لعباده عن طريق رسله - عليهم الصلاة والسلام - لا تتخذوا شركاء معي في العبادة والطاعة ، بل اجعلوهما لي وحدي ، فأنا الخالق لكل شيء والقادر على كل شيء ...

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢٠ ص ٤٧

قال الآلوسى : وقوله « وقال الله ... » معطوف على قوله ـ سبحانه ـ « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض ... »

وإظهار الفاعل ، وتخصيص لفظ الجلالة بالذكر ، للإيذان بأنه ـ تعالى ـ متعين الألوهية ، والمنهى عنه هو الاشراك به ، لا أن المنهى عنه هو مطلق اتخاذ إلهين ... »(1)

وقوله « اثنين » صفة للفظ إلهين أو مؤكد له . وخص هذا العدد بالذكر ، لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء اتخاذ ما فوقه بالطريق الأولى .

وقوله ـ سبحانه ـ « إنما هو إله واحد » بيان وتوكيد لما قبله ، وهو مقول لقوله ـ سبحانه ـ : « وقال الله ... »

أى : وقال الله لا تتخذوا معى فى العبادة إلها آخر ، وقال ـ أيضا ـ إنما المستحق للعبادة إله واحد والقصر فى الجملة الكريمة من قصر الموصوف على الصفة ، أى : الله وحده هو المختص بصفة الوحدانية .

وقد نهى ـ سبحانه ـ عن الشرك فى آيات كثيرة ، وأقام الأدلة على بطلانه ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ « لا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا » وقوله ـ سبحانه ـ « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » .

والفاء فى قوله « فإياى فارهبون » واقعة فى جواب شرط مقدر و « إياى » مفعول به لفعل محذوف يقدر مؤخرا ، يدل عليه قوله « فارهبون » .

والرهبة : الخوف المصحوب بالتحرز ، وفعله رهب بزنة طرب .

والمعنى : إن رهبتم شيئا فإياى فارهبوا دون غيرى ، لأنى أنا الذى لا يعجزنى شىء .

وفى الجملة الكريمة التفات من الغيبة إلى الخطاب ، للمبالغة فى التخويف ،

---
(1) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٦١

إذ تخويف الحاضر أبلغ من تخويف الغائب ، لاسيما بعد أن وصف ـ سبحانه ـ ذاته بما وصف من صفات القهر والغلبة والكبرياء .

وقدم المفعول وهو « إياى » لإفادة الحصر ، وحذف متعلق الرهبة ، للعموم .

أى : ارهبون فى جميع ما تأتون وما تذرون ...

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد اشتملت على ألوان من المؤكدات للنهى عن الشرك ، والأمر بإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده ، تارة عن طريق التقرير ، وقال الله ... » وتارة عن طريق النهى الصريح ، وتارة عن طريق التخصيص ...

وذلك لكى يقلع الناس عن هذه الرذيلة النكراء ، ويؤمنوا بالله الواحد القهار .

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ إرادته ، فقال ـ تعالى ـ « وله ما فى السموات والأرض ، وله الدين واصبا ... »

والمراد بالدين هنا : الطاعة والخضوع بامتثال أمره واجتناب نهيه ، وقد أتى الدين بمعنى الطاعة فى كثير من كلام العرب ، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

وأياما لنا غرا كراما عصينا الملك فيها أن ندينا

أى : عصيناه وامتنعنا عن طاعته وعن الخضوع له .

وقوله « واصبا » من الوصوب بمعنى الدوام والثبات ، يقال : وصب الشىء يصب ـ بكسر الصاد ـ وصوبا ، إذا دام وثبت . ومنه قوله ـ تعالى ـ « دحورا ولهم عذاب واصب »[1] أى : دائم .

---

(١) سورة الصافات الآية ٩ .

أى : ولله ـ تعالى ـ وحده ما فى السموات وما فى الأرض ملكا وخلقا ، لا شريك له فى ذلك ، ولا منازع له فى أمره أو نهيه ... وله ـ أيضا ـ الطاعة الدائمة ، والخضوع الباقى الثابت الذى لا يحول ولا يزول .

والآية الكريمة معطوفة على قوله « إنما هو إله واحد »

والاستفهام فى قوله « أفغير الله تتقون » للإنكار والتعجيب ، والفاء للتعقيب ، وهى معطوفة على محذوف ، والتقدير : أفبعد أن علمتم أن الله ـ تعالى ـ له ما فى السموات والأرض ، وله الطاعة الدائمة ... تتقون غيره ، أو ترهبون سواه ؟

إن من يفعل ذلك لا يكون من جملة العقلاء ، وإنما يكون من الضالين الجاهلين .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن كل نعمة فى هذا الكون ، هو ـ سبحانه ـ مصدرها وموجدها ، فقال : « وما بكم من نعمة فمن الله ... »

أى : وكل نعمة عندكم كعافية فى أبدانكم ، ونماء فى مالكم ، وكثرة فى أولادكم ، وصلاح فى بالكم ... فهى من الله ـ تعالى ـ وحده .

فالمراد بالنعمة هنا النعم الكثيرة التى أنعم بها ـ سبحانه ـ على الناس ، لأنه لم يقم دليل على أن المراد بها نعمة معينة ، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع ـ اعتمادا على القرينة ـ من أبلغ الأساليب الكلامية ، و « ما » موصولة مبتدأ ، متضمنة معنى الشرط . وقوله « فمن الله » خبرها .

وقوله « من نعمة » بيان لما اشتملت عليه ما من إبهام .

وقوله ـ سبحانه ـ « ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم ، إذا فريق منكم بربهم يشركون » بيان لطبيعة الإنسان ، ولموقفه من خالقه ـ عز وجل ـ والضر : يشمل المرض والبلاء والفقر وكل ما يتضرر منه الإنسان .

وقوله « تجأرون » من الجؤار بمعنى - رفع الصوت بالاستغاثة وطلب العون ، يقال : جأر فلان يجأر جأرا وجؤارا، إذا رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث وأصله : صياح الوحش . ثم استعمل فى رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .

أى :كل ما يصاحبكم من نعمة فهو من الله - تعالى - ، فكان من الواجب عليكم أن تشكروه على ذلك ، ولكنكم لم تفعلوا ، فإنكم إذا نزل بكم الضر ، صحتم بالدعاء ، ورفعتم أصواتكم بالتضرع ، ليكشف عنكم ماحل بكم ، فإذا ما كشف - سبحانه - عنكم الضر ، سرعان مايقع فريق منكم فى الشرك الذى نهى الله - تعالى - عنه .

و « ثم » فى هاتين الآيتين للتراخى الرتبى ، لبيان الفرق الشاسع بين حالتهم الأولى وحالتهم الثانية .

والتعبير بالمس فى قوله « ثم إذا مسكم الضر .. » للإيماء بأنهم بمجرد أن ينزل بهم الضر ولو نزولا يسيرا ، جأروا إلى الله - تعالى - بالدعاء لكشفه .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله « فإليه تجأرون » لإفادة القصر ، أى إليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء ليرفع عنكم ما نزل بكم من بلاء ، لا إلى غيره ، لأنكم تعلمون أنه لا كاشف للضر إلا هو - سبحانه -

و « إذا » الأولى فى قوله « ثم إذا كشف .... » شرطية والثانية وهى قوله « إذا فريق منكم ... » فجائية ، وهى جواب الأولى .

وهذا التعبير يشير إلى مسارعة فريق من الناس ، إلى جحود نعم الله - تعالى - بمجرد أن يكشف عنهم الضر بدون تريث أو تمهل .

وقال - سبحانه - « فريق منكم بربهم يشركون » لتسجيل الشرك على هذا الفريق ولإنصاف غيره من المؤمنين الصادقين ، الذين يشكرون الله

— تعالى — فى جميع الأحوال ، ويواظبون على أداء ما كلفهم به فى السراء والضراء .

وهذا المعنى الذى تضمنته هاتان الآيتان ، قد جاء ما يشبهه فى آيات كثيرة منها قوله — تعالى : « وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض »(١)

وقوله ـ سبحانه ـ : « وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره ، مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه . . . »(٢)

فهذه الآيات الكريمة تصور الطبائع البشرية أكمل تصوير وأصدقه ، إذ الناس ـ الا من عصم الله ـ يجأرون إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء عند الشدائد والمحن ، وينسونه عند السراء والرخاء . . .

واللام فى قوله « ليكفروا بما آتيناهم . . . » يصح أن تكون للتعليل ، وأن تكون هى التى تسمى بلام العاقبة أو الصيرورة .

قال الشوكانى : « واللام فى « ليكفروا بما آتيناهم . . . » لام كى . أى : لكى يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضر ، حتى لكأن هذا الكفر منهم الواقع فى موقع الشكر الواجب عليهم، غرض لهم ومقصد من مقاصدهم. وهذا غاية فى العتو والعناد ليس وراءها غاية .

وقيل : اللام للعاقبة: يعنى ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا الكفر..»(٣)

وقوله ـ سبحانه ـ « فتمتعوا فسوف تعلمون » تهديد ووعيد لهم على جحودهم لنعم الله ـ تعالى — والجملة الكريمة معمولة لقول محذوف .

---

(١) سورة فصلت الآية ٥١

(٢) سورة يونس الآية ١٢

(٣) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ١٦٩

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - أعملوا ما شئتم فسوف تعلمون سوء عاقبتكم يوم القيامة . .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا من عقائدهم الباطلة ، وأفعالهم القبيحة التى تمجها العقول السليمة ، والأفكار القويمة . فقال - تعالى - :

« ويجعلونَ لِمَا لا يعلمونَ نصيباً مِمَّا رزقناهُم ، تاللهِ لتسألُن عما كنتُم تفترونَ (٥٦) ويجعلُونَ للهِ البناتِ سبحانه ولهم ما يشتهون (٥٧) وإذَا بُشِّر أحدُهُم بالأنثَى ظل وجهُه مُسودًّا وهو كظِيمٌ (٥٨) يتوارَى مِنَ القومِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّر به ، أيُمسِكُهُ على هُونٍ أم يدُسُّه فى الترابِ ، ألاَ ساءَ ما يحكُمون (٥٩) للَّذينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخرةِ مثلُ السَّوْءِ ولله المثل الأعْلَى وهو العزيزُ الحكيمُ (٦٠) » .

وقوله - سبحانه - : « ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم . . . . » معطوف على ماسبقه بحسب المعنى ، لتسجيل رذائلهم ، وتعداد جناياتهم . . .

وضمير الجمع فى قوله « لما لا يعلمون » يصح أن يعود إلى الكفار ، كالذى قبله فى « ويجعلون »

فيكون المعنى : إن هؤلاء المشركين يفعلون ما يفعلون من إشراكهم بالله - تعالى - ومن التضرع اليه عند الضرر ونسيانه عند الرخاء . . . ولا يكتفون بذلك ، بل ويجعلون للأصنام التى لا يعلمون منها ضرا ولا نفعا ، نصيبا مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرهما .

ويصح أن يعود ضمير الجمع فى قوله « لما لا يعلمون » للأصنام ، فيكون المعنى : ويجعلون للأصنام التى لا تعلم شيئا لأنها جماد لا يعقل ولا يبصر . . . يجعلون لها نصيبا مما رزقناهم . . . .

قال الآلوسى : قوله : « لما لا يعلمون » أى لآلهتهم التى لا يعلمون أحوالها وأنها لا تضر ولا تنفع ، على أن « ما » موصولة ، والعائد محذوف ؛ وضمير الجمع للكفار. أو لآلهتهم التى لا علم لها بشىء لأنها جماد. على أن « ما » موصولة - أيضا - عبارة عن الآلهة ، وضمير « يعلمون » عائد عليها. ومفعول « يعلمون » متروك لقصد العموم ، وصيغة جمع العقلاء لوصفهم الآلهة بصفاتهم . . » (١)

وقال - سبحانه - « نصيبا » بالتنكير ، للإيماء بأنه نصيب كبير وضعوه فى غير موضعه ووصفه بأنه مما رزقهم - سبحانه - لتهويل جهلهم وظلمهم ، حيث تركوا التقرب إلى الرازق الحقيق - جل وعلا - ، وتقربوا بجانب كبير مما رزقهم به - سبحانه - إلى جمادات لا تغنى عنهم شيئا .

وما أجملته هذه الآية الكريمة عن جهالتهم ، فصلته آيات أخرى منها قوله - تعالى - فى سورة الأنعام : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون » (٢)

وقوله - سبحانه - « تالله لتسألن عما كنتم تفترون » تهديد ووعيد لهم على سوء أفعالهم . أى : أقسم بذاتى لتسألن - أيها المشركون - سؤال توبيخ وتأنيب فى الآخرة ، عما كنتم تفترونه من أكاذيب فى الدنيا ، ولأعاقبنكم العقاب الذى تستحقونه بسبب إفترائكم وكفركم . وصدرت الجملة الكريمة بالقسم ، لتأكيد الوعيد ، ولبيان أن العقاب أمر محقق بالنسبة لهم وجاءت الجملة الكريمة بأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، لأن توبيخ الحاضر أشد من توبيخ الغائب .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٦٢

(٢) راجع تفسيرنا لهذه الآية فى كتابنا « تفسير سورة الأنعام » صـ ٢٥٢

وسؤالهم يوم القيامة عما اجترحوه ـ مع أنه سؤال تقريع وتأنيب ـ إلا أنه يدل على عدل الله ـ تعالى ـ مع هؤلاء الظالمين ، لأنه لم يعاقبهم إلا بعد أن سألهم ، وبعد أن ثبت إجرامهم وفى ذلك مافيه من تعليم العباد أن يكونوا منصفين فى أحكامهم ..

وقوله ـ سبحانه ـ : « ويجعلون لله البنات سبحانه » بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم الكثيرة ، وهو معطوف على ماقبله . .

وهذه الآية الكريمة تحكى ما كان شائعا فى بعض قبائل العرب ، من أنهم كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله . قالوا : وكانت قبيلة خزاعة وقبيلة كنانة تقولان بذلك فى الجاهلية .

أى : أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بجعل نصيب مما رزقناهم لآلهتهم ، بل أضافوا إلى ذلك رذيلة أخرى ، وهى أنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ـ تعالى ـ ، وأشركوها معه فى العبادة . . .

وقوله « سبحانه » مصدر نائب عن الفعل ، وهو منصوب على المفعولية المطلقة ، وهو فى محل جملة معترضة ، وقعت جوابا عن مقالتهم السيئة ، التى حكاها الله ـ تعالى ـ عنهم ، وهى « يجعلون لله البنات » .

أى : تنزه وتقدس الله ـ عز وجل ـ عن أن يكون له بنات أو بنين ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

والمراد بما يشتهونه فى قوله ـ عز وجل ـ « ولهم ما يشتهون » الذكور من الأولاد .

أى : أن هؤلاء المشركين يجعلون لأصنامهم نصيبا مما رزقناهم ، ويجعلون لله ـ تعالى ـ البنات ، أما هم فيجعلون لأنفسهم الذكور ، ويختارونهم ليكونوا خلفاء لهم .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم . ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم ، مالهم بذلك من علم ، إن هم إلا يخرصون »[١] .

ثم صور - سبحانه - حالتهم عندما يبشرون بولادة الأنثى ، وحكى عادتهم الجاهلية المنكرة فقال - تعالى - : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء مابشر به . . . »

قال الآلوسى : قوله « وإذا بشر أحدهم بالأنثى . . . » أى : أخبر بولادتها . وأصل البشارة الإخبار بما يسر . لكن لما كانت ولادة الأنثى تسوءهم حملت على مطلق الإخبار . وجوز أن يكون ذلك بشارة باعتبار الولادة ، بقطع النظر عن كونها أنثى ... »[٢]

وقوله « كظيم » من الكظم بمعنى الحبس . يقال : كظم فلان غيظه . إذا حبسه وهو ممتلىء به . وفعله من باب ضرب ...

والمعنى : وإذا أخبر أحد هؤلاء الذين يجعلون لله البنات « بولادة الأنثى دون الذكر ، صار وجهه مسودا كئيبا كأن عليه غبرة ، ترهقه قترة - أى تعلوه ظلمه وسواد - ، وصار جسده ممتلئا بالحزن المكتوم ، والغيظ المحبوس ، وأصبح يتوارى ويتخفى عن أعين الناس خجلا وحياء ، من أجل أن زوجته ولدت له أنثى ولم تلد له ذكرا . . .

وقوله - سبحانه - « أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب » تصوير بليغ لموقف ذلك المشرك مما بشر به وهو ولادة الأنثى .

فالضمير المنصوب فى قوله « أيمسكه ويدسه » يعود على المبشر به وهو الأنثى .

---

(١) سورة الزخرف الآيتان ١٩ ، ٢٠

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٦٩

والهون بمعنى الهوان والذل .

ويدسه من الدس بمعنى الإخفاء للشيء في غيره . والمراد به . دفن الأنثى حية في التراب حتى تموت وهو المشار إليه في قوله - تعالى - « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت .

أي : أن هذا المشرك بعد أن يبشر بولادة الأنثى ، يدور بذهنه أحد أمرين : إما أن يمسكها ويبقيها على هوان وذل ، وإما أن يدسها ويخفيها في التراب ، بأن يدفنها فيه وهي حية حتى تموت ،

والجار والمجرور في قوله « على هون » يصح أن يكون حالا من الفاعل وهو المشرك : أي أيمسك المبشر به مع رضاه - أي المشرك - بهوان نفسه وذلها بسبب هذا الإمساك ...

ويصح أن يكون حالا من المفعول وهو الضمير المنصوب . أي أيمسك هذه الأنثى ويبقيها بقاء ذلة وهوان لها ، بحيث لا يورثها شيئا من ماله ، ولا يعاملها معاملة حسنة ...

ومن بلاغة القرآن أنه عبر بقوله « أيمسكه على هون » ليشمل حالة المشرك وحالة المبشر به وهو الانثى .

وقوله - تعالى - : « ألا ساء ما يحكمون » ذم لهم على صنيعهم السيء ، وعلى جهلهم الفاضح .

أي : بئس الحكم حكمهم ، وبئس الفعل فعلهم ، حيث نسبوا البنات إلى الله - تعالى - ، وظلموهن ظلما شنيعا ، حيث كرهوا وجودهن ، وأقدموا على قتلهن بدون ذنب أو ما يشبه الذنب .

وصدر سبحانه - هذا الحكم العادل عليهم بحرف « ألا » الاستفتاحية لتأكيد هذا الحكم ، ولتحقيق أن ما أقدموا عليه ، إنما هو جور عظيم ، قد تمالئوا عليه بسبب جهلهم الفاضح ، وتفكيرهم السيء .

أسند — سبحانه — الحكم إلى جميعهم ، مع أن من فعل ذلك كان بعضا منهم ، لأن ترك هذا البعض يفعل ذلك الفعل القبيح هـذا الترك ، هو فى ذاته جريمة يستحق عليها الجميع العقوبة ، لأن سكوتهم على هـذا الفعل مع قدرتهم على منعه يعتبر رضا به .

ثم أتبع ـ سبحانه ـ هـــذا الذم لهم بذم آخر على سبيل التأكيد فقال — تعالى — : « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » .

والسوء : مصدر ساءه يسوءه سوءا ، إذا عمل معه ما يكره ، وإضافة المثل إلى السوء للبيان .

والمراد بمثل السوء : أفعال المشركين القبيحة التى سبق الحديث عنها .

والمعنى للذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب . . . صفة السوء ، التى هى كالمثل فى القبح . وهى وأدهم البنات ، وجعلهم لآلهتهم . نصيبا مما رزقناهم ، وقولهم . الملائكة بنات الله ، وفرحهم بولادة الذكور للاستظهار بهم . . . .

فهذه الصفات تدل على غبائهم وجهلهم وقبح تفكيرهم . . . .

أما الله ـ عز وجل — فله المثل الأعلى ، أى الصفة العليا ، وهى أنه الواحد الأحد ، المنزه عن الوالد والولد ، والمبرأ من مشابهة الحوادث ، والمستحق لكل صفات الكمال والجلال فى الوحدانية ، والقدرة ، والعلم . . . وغير ذلك مما يليق به — سبحانه — .

وهو — عز وجل — « العزيز » فى ملكه بحيث لا يغلبه غالب « الحكيم » فى كل أفعاله وأقواله .

وبعد أن ساق ـ سبحانه ـ ما يدل على جهالات المشركين ، وانطماس بصائرهم ، وسوء تفكيرهم ، أتبع ذلك بالحديث عن مظاهر رحمته بخلقه وعن

جانب من جرائم المشركين ، وعن وظيفة القرآن الكريم ، فقال - تعالى - :

« ولو يُؤاخِذُ اللهُ الناسَ بظُلمِهِم ما تَركَ عليها من دابةٍ ، ولكن يؤخِّرُهم إلى أجلٍ مُسمًّى ، فإذا جاء أجلُهم ، لا يستأخِرُون ساعةً ولا يستقدِمُون (٦١) ويجعلُونَ للهِ ما يكرهُونَ وتصِفُ ألسنتُهم الكذبَ أنَّ لهمُ الْحُسْنَى ، لا جرَم أنَّ لهمُ النارَ وأنهم مُفْرَطُونَ (٦٢) تاللهِ لقد أرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ مِنْ قبلِكَ فزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم ، فهوَ وليُّهُم اليومَ ، ولهُم عذابٌ أليمٌ (٦٣) وما أنزلْنَا عليكَ الكتابَ إلا لتبينَ لهم الذى اختلفُوا فيه ، وهدًى ورحمةً لقومٍ يؤمِنُون (٦٤) » .

و « لو » فى قوله - تعالى - : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم .... » حرف إمتناع لامتناع . أى : حرف شرط يدل على إمتناع وقوع جوابه ، لأجل إمتناع وقوع شرطه ، وقد امتنع هنا إهلاك الناس ، لإمتناع إرادة الله — تعالى — ذلك .

وقوله « يؤاخذ » مفاعلة من المؤاخذة بمعنى العقوبة ، فالمفاعلة فية بمعنى الفعل المجرد . فمعني آخذ الله - تعالى - الناس يؤاخذهم : أخذهم وعاقبهم بسبب ذنوبهم .

والأخذ بمعنى العقاب قد جاء فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

والباء فى بظلمهم « للسببيه . والظلم : مجاوزة الحدود التى شرعها الله — تعالى - وأعظمه الإشراك بالله - تعالى - .

كما قال - تعالى - « إن الشرك لظلم عظيم »

والمراد من المؤاخذة بسبب ظلمهم : تعجيل العقوبة لهم فى الدنيا .

والضمير فى قوله - سبحانه - « عليها » يعود على الأرض . وصح عود الضمير عليها مع أنه لم يسبق ذكر لها ، لأن قوله « من دابة » يدل على ذلك، لأنه من المعلوم ، أن الدواب تدب على الأرض .

ونظيره قوله - تعالى - فى آية أخرى « ماترك على ظهرها من دابة » ، وقوله « حتى توارت بالحجاب » أى : الشمس . فانه وإن كان لم يجر لها ذكر إلا أن المقام يدل عليها .

ورجوع الضمير إلى غير مذكور فى الكلام إلا أن المقام يدل عليه كثير فى كلام العرب ، ومنه قول حاتم الطائى :

أماوى مايغنى الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقوله « حشرجت وضاق بها » المقصود به الروح أو النفس ، ولم يجر لها ذكر ، إلا أن قوله « وضاق بها الصدر » يعين أن المراد بها النفس .

والمراد بالساعه فى « لايستأخرون عنه ساعة » مطلق الوقت الذى هو غايه فى القلة .

والمعنى : ولو عاجل الله - تعالى - الناس بالعقوبه ، بسبب ما اجترحوه من ظلم وآثام ، لأهلكهم جميعا ، وماترك على ظهر الأرض من دابة تدب عليها ، ولكنه - سبحانه - فضلا منه وكرما، لايعاجلهم بالعقوبة التى تستأصلهم بل يؤخرهم « إلى أجل مسمى » أى : إلى وقت معين محدد تنتهى عنده حياتهم، وهذا الوقت المحدد لايعلمه إلا هو - سبحانه - « فإذا جاء أجلهم » .

أى : فإذا حان الوقت المحدد لهلاكهم ، فارقوا هذه الدنيا بدون أدنى تقديم أو تأخير عن هذا الوقت .

هذا ، ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالناس هنا : الكفار خاصة ، لأنهم هم الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى . .

ويبدو لنا أن المراد بالناس هنا : العموم ، لأن قوله « من دابة » يشمل كل مايطلق عليه اسم الدابة ، ولأن النكرة فى سياق النفى إذا زيدت قبلها لفظة « من » تكون نصا صريحا فى العموم .

وإلى العموم أشار ابن كثير عند تفسيره للآيه بقوله : يخبر الله - تعالى - عن حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ماترك على ظهر الأرض من دابة ، أى : لأهلك جميع دواب الأرض تبعا لإهلاك بنى آدم . ولكن الرب - جل وعلا - يحلم ويستر ويُنظِر . . . . »(١) .

وقال القرطبى : فإن قيل : فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنا ليس بظالم ؟

فالجواب : يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء ، وهلاك المؤمن معوضا بثواب الآخرة ، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إذا أراد الله - تعالى - بقوم عذابا ، أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم - وأعمالهم - »(٢) .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : « وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا »(٣) .

وقوله - تعالى - : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار »(٤) .

وقوله - تعالى - : « إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون »(٥) .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ، ص ٤٩٧ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٢٠ (٣) سورة الكهف الآية ٥٨

(٤) سورة إبراهيم الآية ٤٢ (٥) سورة نوح الآية ٤

ثم حكى — سبحانه — رذيلة أخرى من رذائل المشركين فقال - تعالى - « ويجعلون لله مايكرهون . . . »

أى : أن هؤلاء المشركين لا يكتفون بإنكارهم البعث وبجحودهم نعم الله — تعالى — : بل أضافوا إلى ذلك أنهم يثبتون له - سبحانه ويمسبون اليه كذبا وزورا - ما يكرهونه لأنفسهم ، فهم يكرهون أن يشاركهم أحد فى أموالهم أو فى مناصبهم، ومع ذلك يشركون مع الله - تعالى - فى العبادة آلهة أخرى . ويكرهون أراذل الأموال ، ومع ذلك يجعلون لله - تعالى - أراذل أموالهم . ويجعلون لأصنامهم أكرمها ، ويكرهون البنات ، ومع ذلك ينسبونهن اليه - سبحانه -

فالجملة الكريمة تنعى عليهم أنانيتهم، وسوء أدبهم مع خالقهم - عز وجل - وقوله - سبحانه - « وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى . . . » تصوير بليغ لما جبلوا عليه من كذب صريح ، وبهتان واضح .

ومعنى : « تصف » تقول وتذكر بشرح وبيان وتفصيل ، حتى لكأنها تذكر أوصاف الشىء . وجملة « أن لهم الحسنى » بدل من « الكذب »

والحسنى : تأنيث الأحسن ، والمراد بها زعمهم أنه إن كانت الآخرة حقا ، فسيكون لهم فيها أحسن نصيب وأعظمه . كما كان لهم فى الدنيا ذلك ، فقد روى أنهم قالوا : إن كان محمد — صلى الله عليه وسلم — صادقا فيما يخبر عنه من أمر البعث ، فلنا الجنة . . .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين يجعلون لله — تعالى - ما يكرهونه من الأولاد والأموال والشركاء ، وتنطق ألسنتهم بالكذب نطقا واضحا صريحا إذ زعموا أنه إن كانت الآخرة حقا ، فسيكون لهم فيها أحسن نصيب ...

وهذا الزعم قد حكاه القرآن عنهم فى آيات متعددة منها قوله — تعالى —

وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ، (١)

وقوله — تعـالى « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا . . . » (٢) .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى وصف ألسنتهم الكذب ؟ قلت: هو من فصيح الكلام وبليغه . جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه ، فاذا أنطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته ، وصورته بصورته . كقولهم : وجهها يصف الجمال ، وعينها تصف السحر ،

وقال بعض العلماء : والتعبير القرآنى فى قوله « وتصف ألسنتهم الكذب .» يجعل ألسنتهم ذاتها كأنها الكذب ذاته ، أو كأنها صورة له ، تحكيه وتصفه بذاتها ، كما تقول : فـلان قوامه يصف الرشاقة . . . لأن ذلك القوام بذاته تعبير عن الرشاقه ، مفصح عنها . . .

كذلك قال - سبحانه « وتصف ألسنتهم الكذب . . » فهى بذاتها تعبير عن الكذب ، لطول ما قالت الكذب ، ولكثرة ما عبرت عنه ، حتى صارت رمزا عليه ، ودلالة له ، (٤)

وقوله — سبحانه — « لاجرم أن لهم النار وأنهم مفرطون » تكذيب لهم فيما زعموه من أن لهم الحسنى ، ووعيد لهم بإلقائهم فى النار .

وكلمة « لاجرم » وردت فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع ، متلوة بأن واسمها وليس بعدها فعل . وجمهور النحاة على أنها مركبة من « لا » و« جرم » تركيب خمسة عشر . ومعناها بعد التركيب معنى حق وثبت . والجملة بعدها فاعل ، أى : حق وثبت كونهم لهم النار وأنهم مفرطون فيها ،

---

(١) سورة سبأ الآية ٣٥

(٢) سورة مريم الآية ٣٧

(٣) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٤٣٢

(٤) فى ظلال القرآن جـ ١٤ ص ٢١٧٩

وقوله ـ سبحانه ـ «مفرطون» قرأها الجمهور ـ بسكون الفاء وفتح الراء ـ بصيغة إسم المفعول من أفرطه بمعنى قدمه . يقال : أفرطته إلى كذا . أى : قدمته اليه .

قال القرطبى : والفارط : الذى يتقدم غيره إلى الماء . ومنه قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنا فرطكم على الحوض : أى : متقدمكم ... » (١)

أو من أفرط إذا نسيه وتركه . تقول : أفرطت فلانا خلفى ، إذا تركته ونسيته .

والمعنى : أن هؤلاء الذين يزعمون أن لهم الحسنى فى الآخرة كذبوا فى زعمهم ، وفجروا فى إفكهم ، فإنهم ليس لهم شىء من ذلك ، وإنما الأمر الثابت الذى لاشك فيه ، أن لهم فى الآخرة النار ، وأنهم مفرطون فيها ، مقدمون اليها بدون إمهال ، ومتروكون فيها بدون إكتراث بهم ، كما يترك الشىء الذى لاقيمة له . قال تعالى : فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » (٢)

وقرأ نافع « أنهم مفرطون » ـ بسكون الفاء وكسر الراء ـ بصيغة إسم الفاعل . من أفرط اللازم بمعنى أسرف وتجاوز الحد . يقال : أفرط فلان فى كذا ، إذا تجاوز الحدود المشروعه .

فيكون المعنى : لا جرم أن لهم النار ، وأنهم مفرطون ومسرفون فى الأقوال والأعمال التى جعلتهم حطبا لها ، ووقودا لنيرانها . كما قال ـ تعالى ـ « وأن المسرفون هم أصحاب النار » (٣)

ثم وجه ـ سبحانه ـ خطابا لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سبيل التسلية والتثبيت ، حيث بين له أن ما اصابه من مشركى قومه ، قد فعل

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٢١
(٢) سورة الأعراف الآية ٥١
(٣) سورة غافر الآية ٤٣

مايشبهه المشركون السابقون مع أنبيائهم ، فقال ـ تعالى ـ: «تا الله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فزين لهم الشيطان أعمـــالهم ، فهو وليهم اليوم ، ولهم عذاب أليم .

وقوله « زين » من التزيين وهو تصيير الشيء زينا ، أي : حسنا والزينة : هي ما في الشيء من محاسن ترغب الناس فيه .

والمعنى : أقسم لك ـ أيها الرسول الكريم ـ بذاتي ، لقد أرسلنا رسلا كثيرين إلى أمم كثيرة من قبلك ، فكانت النتيجة أن إستحوذ الشيطان على نفوس عامة هؤلاء المرسل اليهم ، حيث زين لهم الأفعال القبيحة ، وقبح لهم الأعمال الحسنة ، وجعلهم يقفون من رسلهم موقف المكذب لأقوالهم ، المعرض عن إرشاداتهم ، المحارب لدعوتهم ...

وقوله — سبحانه — « فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم » بيان لسوء عاقبة هؤلاء الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا .

قال الإمام الشوكاني ما ملخصه : والمراد باليوم في قوله ـ تعالى ـ « فهو وليهم اليوم » يحتمل أن يكون المراد به زمان الدنيا ـ أي مدة أيام الدنيا ـ فيكون المعنى : هو قرينهم في الدنيا . ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده . فيكون للحال الآتية . ويكون الولي بمعنى الناصر . والمراد نفي الناصر عنهم بأبلغ الوجوه ، لأن الشيطان لايتصـور منه النصرة أصلا في الآخرة ...

ويحتمل أن يكون المراد باليوم بعض زمان الدنيا، وهو على وجهين: الأول أن يراد البعض الذي مضى ، وهو الذي وقع فيه التزيين للأمم الماضية من الشيطان ، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية . الثاني : أن يراد البعض الحاضر ، وهو وقت نزول الآية . والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش أعمالهم ، فيكون الضمير في « وليهم » لكفار قريش . فيكون المعنى : فهو ولي

هؤلاء المشركين اليوم أى : معينهم على الكفر والمعاصى ولهم ولأمثالهم عذاب أليم فى الآخرة ، (١)

ثم بين - سبحانه - أهم الوظائف التى من أجلها أنزل كتابه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم - فقال : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى إختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »

أى : وما أنزلنا عليك - أيها الرسول الكريم - هذا القرآن ، إلا من أجل أن تبين لمن أرسلت اليهم وجه الصواب فيما إختلفوا فيه من أمور العقائد والعبادات والمعاملات والحلال والحرام .... وبذلك يعرفون الحق من الباطل ، والخير من الشر .

وسيقت هذه المعانى بأسلوب القصر ، لقصد الإحاطة بأهم الغايات التى من أجلها أنزل الله - تعالى - كتابه على نبيه الكريم ؛ وللترغيب السامعين فى تقبل إرشادات هذا الكتاب بنفس منشرحة ، وقلب متفتح .

وقوله « وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ثناء آخر على هـــذا الكتاب الكريم .

أى : أنزلنا عليك هذا الكتاب يا محمد ، لتبين للناس عن طريقه وجه الحق فيما إختلفوا فيه من أمور الدين ، وليكون هذا الكتاب هداية إلى الطريق القويم ، ورحمة لقوم يؤمنون به ، ويسيرون فى كل أمورهم على هدى تعاليمه وإرشاداته وتشريعاته ...

وقال - سبحانه - « لقوم يؤمنون » للإشارة إلى أن الظفر بما أشتمل عليه القرآن من خيرات ، إنما هو لقوم قد توجهت نفوسهم إلى الإيمان به ، وتفتحت قلوبهم لاستقبال هداياته ..

وبذلك نرى أن هـذه الآيات الكريمة قد بينت لنا جانبا من مظاهر

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٢ ص ١٧٣

فضل الله ـ تعالى ـ على عباده ، وردت على المشركين فيما زعموه من أن لهم فى الآخرة العاقبة الحسنى ، وسلت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أصابه منهم من أذى ، وبينت أهم الوظائف التى من أجلها أنزل الله ـ تعالى ـ كتابه .

* * *

ثم ساقت السورة الكريمة ألوانا من نعم الله — تعالى على خلقه ، ومن ذلك : نعمة إنزال الماء من السماء ، ونعمة خلق الأنعام، ونعمة إيجاد النخيل والأعناب ، فقال — تعالى — :

« واللهُ أنزلَ من السَّماء ماءً فأحْيا به الأرضَ بعد مَوْتِها . إنَّ فى ذلكَ لآيةً لِقَومٍ يسْمَعُونَ (٦٥) وإنَّ لكم فى الأنعامِ لَعِبرةً ، نسقيكُم مما فى بُطونِهِ من بين فَرْثٍ ودَمٍ لَبناً خالِصًا سائغاً للشاربينَ (٦٦) ومن ثمراتِ النَّخِيلِ والأعنابِ تتخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ورِزْقاً حَسناً ، إنَّ فى ذلكَ لآيةً لِقَومٍ يعقلونَ (٦٧) » .

والمراد بالسماء فى قوله ـ تعالى ـ : « والله أنزل من السماء ماء » : جهة العلو أو السحاب المنتشر فى طبقات الجو العليا والذى تنزل منه الأمطار .

والمراد بإحياء الأرض : تحرك القوى النامية فيها ، وإظهار ما أودعه الله ـ تعالى ـ فيها من نبات وأزهار ، وثمرات ، وغير ذلك مما تنبته الأرض .

والمراد بموتها : خلوها من ذلك ، بسبب استيلاء القحط والجدب عليها .

قال ـ تعالى ـ : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

أى : وكما أنزل الله ـ تعالى ـ كتابه ليكون هداية ورحمة لقوم يؤمنون ،

أنزل - سبحانه - أيضاً الماء من السماء على الأرض ، فتحولت بسبب نزول هذا الماء المبارك الكثير عليها ، من أرض جدباء خامدة ،إلى أرض خضراء رابيـــة .

ثم حرض - سبحانه - عباده على التدبر والشكر فقال - تعالى - : « إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون » .

أى : إن فى ذلك الذى فعلناه بقدرتنا وحدها ، من إنزل الماء من السماء، وإحياء الأرض به من بعد موتها ، لآية عظيمة ، وعبرة جليلة ،ودلالة واضحة تدل على وحدانيتنا وقدرتنا وحكمتنا ، لقوم يسمعون مايتلى عليهم من كلام الله - تعالى - ، سماع تدبر واعتبار ، فيعملون بما اشتمل عليه من توجيهات حكيمة وإرشادات سديدة ...

فالمراد بالسمع : سمع القلوب والعقول ، لاسمع الآذان فقط ، إذ سمع الآذان بدون وعى واستجابة للحق ، لاقيمة له ، ولافائدة ترجى من ورائه .

ثم أرشد - سبحانه - إلى مظهر آخر من مظاهر وحدانيته ، وعظيم قدرته وعجيب صنعه ، وسعة رحمته ، حيث خلق للناس الأنعام ، وسقاهم من ألبانها، فقال - تعالى - : « وإن لكم فى الأنعام لعبرة .... »

والأنعام : تطلق على الإبل والبقرة والغنم من الحيوان ، ويدخل فى الغنم المعز .

والعبرة : مصدر بمعنى العبور ، أى : التجاوز من محل إلى آخر ، والمراد بها هنا : العظة والاعتبار والانتقال من الجهل إلى العلم ، ومن الغفلة إلى اليقظه.

أى : وإن لكم - أيها الناس - فى خلق الأنعام، وفيما يخرج منها من ألبان لعبرة عظيمة ، وعظه بليغة ، ومنفعة جليلة توجب عليكم إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ومداومة الشكر له على نعمه .

فالتنكير فى قوله « لعبرة » : للتفخيم والتهويل .

وقوله ـ تعالى ـ : « نسقيكم مما فى بطونه » استئناف بيانى ، كأنه قيل : وماوجه العبرة فى الأنعام ؟ فكان الجواب : نسقيكم مما فى بطونه .

قال الآلوسى : والضمير فى « بطونه » يعود للأنعام ، وهو اسم جمع ، واسم الجمع يجوز تذكيره وإفراده باعتبار لفظه ، ويجوز تأنيثه وجمعه باعتبار معناه . . . »(١)

وقوله ـ سبحانه ـ : « من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » بيان لمواطن العبرة ومحل النعمة ، ومظهر الدلالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ورحمته . . .

والفرُث : الطعام المتبقى فى أمعاء الحيوان بعد هضمه . وأصل الفرث : التفتيت . يقال فرثت كبده . أى : فتتها .

قال الجمل مالملخصه : والفرث : الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام فى الكرش ـ بفتح الكاف وكسر الراء ـ، فإذا خرجت من الكرش لاتسمى فرثا بل تسمى روثا . وقوله « لبنا » مفعول ثان لنسقيكم ، والأول هو الكاف »(٢)

والخالص : النقى الصافى الخالى من الشوائب والأكدار . يقال خلص الشىء من التلف خلوصا ـ من باب قعد ـ إذا سلم منه ...

والسائغ : اللذيذ الطعم ، السهل المدخل إلى الحلق . يقال : ساغ الشراب يسوغ سوغا ـ من باب قال ـ إذا سهل مدخله فى الحلق

أى : نسقيكم من بين الفرث والدم الذى اشتملت عليه بطون الأنعام ، « لبنا » نافعا لأبدانكم « خالصا » من رائحة الفرث ، ومن لون الدم ، مع أنه

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٧٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج٢ ص ٥٨٠

موجود بينهما « سائغا للشاربين » بحيث يمر فى الحلوق بسهولة ويسر ، ويشعر شاربه بلذة وارتياح ...

وقدم – سبحانه – قوله : « من بين فرث ودم » على قوله « لبنا » ، لأن خروج اللبن من بينهما هو موطن العبرة ، وموضع الدليل الأسمى على قدرة الله – تعالى – ووحدانيته ..

قال صاحب الكشاف : قوله – تعالى – « من بين فرث ودم » أى : يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم يكتنفانه ، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله – تعالى – ، بحيث لا يبغى أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة ، بل هو خالص من ذلك كله ... فسبحان الله ما أعظم قدرته ، وألطف حكمته ، لمن تفكر وتأمل . وسئل « شقيق » عن الإخلاص فقال : تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم .

ثم قال – رحمه الله – : فإن قلت : أى فرق بين « من » الأولى والثانية ؟

قلت : الأولى للتبعيض ؛ لأن اللبن بعض ما فى بطونها ... والثانية ، لابتداء الغاية ، لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذى منه يبتدأ ...

وإنما قدم – قوله « من بين فرث ودم » لأنه موضع العبرة ، فهو قمن بالتقديم »[1]

وقال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية : « ومن تدبر فى بدائع صنع الله – تعالى – فيما ذكر من الأخلاط والألبان وإعداد مقارها ومجاريها ، والأسباب المولدة لها ، وتسخير القوى المتصرفة فيها ... اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه – سبحانه – وقدرته ، وحكمته ، وتناهى رأفته ورحمته :

حكم حارت البرية فيها   وحقيق بأنها تحتار[2]

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦١٦ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٧٨ .

والحق ، أن هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة على وحدانية الله - تعالى ونفاذ قدرته ، وعجيب صنعته ، حيث استخرج - سبحانه - من بين فرث ودم فى بطون الأنعام ، لبنا خالصا سائغا للشاربين .

وهذا الاستخراج قد تكلم العلماء المتخصصون عن كيفيته وعن مراحله .. كلاما يقوى إيمان المؤمنين ، ويدفع باطل الملحدين .

هذا ، وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن اللبن نعمة جزيلة من نعم الله - تعالى - على خلقه .

قال القرطبى ما ملخصه : روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم - بلبن فشرب ، ثم قال : « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل : اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، وإذا سقى لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه ، وزدنا منه ، فإنه ليس شىء يجزىء عن الطعام والشراب إلا اللبن » .

ثم قال الإمام القرطبى : قال علماؤنا : فكيف لا يكون كذلك ، وهو أول ما يغتذى به الإنسان ، وتنمو به الأبدان ، فهو قوت به قوام الأجسام ، وقد جعله الله - تعالى - علامة لجبريل على هداية هذه الأمة ، ، فى الحديث الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه - قال : فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن . فقال لى جبريل : اخترت الفطرة ... »[1]

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة أخرى من نعم الله التى لا تحصى ، وهى نعمة ثمرات النخيل والأعناب ، فقال - تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ... »

قال الجمل ما ملخصه: قوله - سبحانه - « ومن ثمرات النخيل والأعناب..»

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٢٧ .

خبر مقدم ، ومن تبعيضية ، والمبتدأ محذوف تقديره ثمر، وقوله « تتخذون» نعت لهذا المبتدأ المحذوف،- أى: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا - .

ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقا بمحذوف ، والتقدير : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب ، أى : من عصيرهما ، وحذف لدلاله نسقيكم قبله عليه . وقوله « تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » بيان و كشف عن كيفية الإسقاء . . .

والضمير فى قوله « منه » يعود على المضاف المحذوف الذى هو العصير ، أو على المبتدأ المحذوف وهو الثمر . . »[1]

والسكر - بفتح السين والكاف - اسم من أسماء الخمر . يقال : سكر فلان — بوزن فرح — يسكر سكرا، إذا غاب عقله وإدرا كه فهو سكران وسكر — بفتح السين و كسر الكاف — .

وأما الرزق الحسن ، فالمراد به ما كان حلالا من ثمرات النخيل والأعناب كالتمر والزبيب وغير ذلك مما أحله الله — تعالى — من ثمارهما .

وعلى هذا المعنى سار جمهور العلما من السلف والخلف .

قال الآلوسى ما ملخصه : والسكر : الخمر . قال الأخطل :

بئس الصحاة وبئس الشرب شربهم . إذا جرى فيهم المزاء والسكر .

- والمزاء : نوع من الأشربة . والسكر مايسكر وهو الخمر -

وفسروا الرزق الحسن . بالخل والتمر والزبيب وغير ذلك . .

ثم قال : وتفسير « السكر » بالخمر ، هو المروى عن ابن مسعود ، وابن

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٨٠ .

عمر ، وأبى رزين ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبي .. والنخعى ... ، مع خلق آخرين ... »[١] .

وعلى هذا التفسير الذى قاله جمهور العلماء يكون السكر غير الرزق الحسن، ويكون العطف للتغاير .

ومن العلماء من فسر السكر بأن اسم للخل ، أو للعصير غير المسكر ، أو لما لا يسكر من الأنبذة ، وقد بسط الإمام القرطبى القول فى هذه المسألة فقال ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ «سكرا» السكر ما يسكر ، هذا هو المشهور فى اللغة . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر .

والمراد بالسكر : الخمر . وبالرزق الحسن: جميع مايؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين .

وقد قيل : أن السكر : الخل بلغة الحبشة . الرزق الحسن : الطعام . وقيل السكر : العصير الحلو الحلال ، وسمى سكرا ، لأنه قد يصير مسكرا إذا بقى ، فإذا بلغ الآسكار حرم ....

وقال الحنفيون . المراد بقوله «سكرا» مالا يسكر من الأنبذه . والدليل عليه أن الله ـ سبحانه ـ امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك ، ولا يقع الامتنان إلا بمحلل لا بمحرم ، فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ ، فإذا انتهى إلى السكر لم يجز . وعضدوا هذا من السنة بما روى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : «حرم الله الخمر بعينها والسكر من غيرها » ....[٢]

وأصحاب هذا الرأى كأنهم يرون أن عطف الرزق الحسن على السكر من من باب عطف الشيء على مرادفه ، كما فى قوله ـ تعالى ـ «لكل جعلنا منكم

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١٨٠

(٢) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٢٨

شرعة ومنهاجا » وليس من باب العطف المقتضى للمغايره ، فالسكر عندهم ليس هو الخمر ، وإنما هو الخل أو العصير أو النبيذ غير المسكر ..

ويبدو لنا أن ماذهب إليه الجمهور من أن السكر هو الخمر أولى بالقبول ، لأن هذا التفسير هو المروى عن جمع من الصحابة ومن التابعين ، ولأن الأصل فى العطف أنه يقتضى المغايره .

قال ابن العربى : أسد هذه الاقوال قول ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ، والمراد بالسكر الخمر ، فتكون هذه الآيه منسوخة لانها مكية باتفاق العلماء ، وتحريم الخمر مدنى[1]

وقال صاحب تفسير آيات الأحكام بعد أن ذكر أدلة الأحناف ورد عليها : والحاصل أننا نرى أن الآية ليس فيها مايشهد بالحل ، إذ الكلام فى الامتنان بخلق الأشياء لمنافع الانسان ، ولم تنحصر المنافع فى حل التناول ، فقد قال الله ـ تعالى ـ فى شأن الخمر : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ... » فهــل انحصرت منافع السكر — على فرض أنه النبيذ — فى الشرب ؟[2] .

ثم ختم — سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : « إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من إخراج اللبن من بين فرث ودم ، ومن اتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، «لآية» باهرة ، ودلالة واضحة ، على قدرة الله ـ تعالى ـ ووحدانيته ، « لقوم يعقلون »

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٢٨

(٢) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٣ ص ٥٢ لفضيلة الشيخ محمد على السايس ـ رحمه الله .

هـــذه التوجيهات الحكيمة ، فيدركون أن من يفعل كل ذلك وغيره ، هو المستحق للعبادة والطاعة ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ».

* * *

ثم ساق — سبحانه — بعد ذلك ما يدل — أيضا — على وحدانيته وقدرته ، عن طريق إخراج العسل الذى فيه شفاء للناس بواسطة حشرة ضعيفة وهى النحلة ، فقال — تعالى — :

« وأَوْحَى ربُّكَ إلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى من الجبالِ بيوتًا ومن الشَّجَرِ ومما يَعْرِشُونَ (٦٨) ثم كُلِى مِنْ كلِّ الثمراتِ فاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ، يخرجُ مِنْ بُطونِها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناسِ ، إن فى ذلكَ لآيةً لقومٍ يتفكرونَ (٦٩) » .

وقوله — سبحانه — « وأوحى » من الوحى ، وهو هنا بمعنى الإلهام ، وهو — كما يقول القرطبى — ما يخلقه الله — تعالى — فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر. ومنه قوله — تعالى — : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها » . ومن ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها ، وترك ما يضرها ، وتدبير معاشها ..»[١]

وقال صاحب الكشاف : والإيحاء إلى النحل : إلهامها والقذف فى قلوبها على وجه هو أعلم به ، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه ، وإلا فتأنقها فى صنعتها ولطفها فى تدبير أمرها ، وإصابتها فيما يصلحها دلائل شاهدة على أن الله — تعالى — أودعها علما بذلك وفطنها ، كما أودع أولى العقول عقولهم ... »[٢]

والخطاب للرسول — صلى الله عليه وسلم — ويشمل كل من يصلح للخطاب من الأمة الإسلامية .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٣٣

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦١٨

والنحل : اسم جنسى يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، ويطلق على الذكر والأنثى ، وسمى بذلك لأن الله - تعالى - نحله أى منحه العسل الذى يخرج منه .

وقوله - سبحانه - «أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون» بيان لما ألهمه الله للنحل من أوامر ، ولما كلفها به من أعمال .

و «أن» مفسرة لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه وما بعدها لامحل له من الإعراب ، ويجوز بأن تكون مصدرية فيكون ما بعدها فى محل نصب على تقدير الجار . أى : بأن اتخذى .

والمعنى : وألهم ربك النحل وأرشدها وهداها إلى أن تتخذ من فجوات الجبال بيوتا تسكن فيها ، وكذلك من تجاريف الأشجار ، وما يرفعه الناس ويعرشونه من السقوف وغيرها .

يقال : عرش الشىء - بكسر الراء وضمها - إذا رفعه عن الأرض ، ومنه العريش الذى صنع لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر لمشاهدة سير المعركة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى «من» فى قوله أن أتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون» ؟ وهلا قيل فى الجبال وفى الشجر؟

قلت : أريد معنى البعضية ، وأن لاتبنى بيوتها فى كل جبل ، وكل شجر ، وكل ما يعرش ، ولا فى كل مكان منها .

وقد علق الشيخ ابن المنير على هذا الكلام بقوله : ويتزين هذا المعنى الذى نبه عليه الزمخشرى فى تبعيض «من» المتعلقة باتخاذ البيوت باطلاق الأكل ، كأنه - تعالى - وكل الأكل إلى شهوتها واختيارها فلم يحجز عليها فيه ، وإن حجر عليها فى البيوت ، وأمرت باتخاذها فى بعض المواضع دون بعض لأن مصلحة الأكل على الإطلاق باستمرار مشتهاها منه . وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها فى كل موضع . ولهذا المعنى دخلت ثم - فى قوله «ثم كلى ...» -

لتفاوت الأمر بين الحجر عليها فى إتخاذ البيوت ، والإطلاق لها فى تناول الثمرات . كما تقول : ابن الحلال فيما تأكله ثم كل أى شىء شئت . فتوسط ثم التفاوت . الحجر والإطلاق فسبحان اللطيف الخبير » (١)

وقوله : «ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ...» بيان للون آخر من الإلهامات التى ألهمها الله ـ تعالى ـ إياها .

والسبل : جمع سبيل . والمراد بها الطرق التى تسلكها النحلة فى خروجها من بيتها وفى رجوعها اليه وأضاف ـ سبحانه ـ السبل اليه ، لأنه هو خالقها وموجدها .

وذللا : جمع ذلول وهو الشىء الممهد المنقاد ، وهو حال من السبل ، أى : فاسلكى سبل ربك حال كونها ممهدة لك ، لا عسر فى سلوكها عليك ، وإن كانت صعبة بالنسبة لغيرك .

قالوا : ربما أجدب عليها ما حولها ، فتنتجع الأماكن البعيدة للمرعى ، ثم تعود إلى بيوتها دون أن تضل عنها

وقيل إن « ذلولا » حال من النحلة أى : ثم كلى من الثمرات ، فاسلكى سبل ربك ، حالة كونك منقادة لما يراد منك ، مطيعة لما سخرك الله له من أمور تدل على قدرته وحكمته ـ سبحانه ـ .

وقوله ـ تعالى ـ : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » كلام مستأنف ، عدل به من خطاب النحلة إلى خطاب الناس ، تعديدا للنعم ، وتعجيبا لكل سامع ، وتنبيها على مواطن العظات والعبر الدالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته وعجيب صنعه فى خلقه ,

أى : يخرج من بطون النحل ـ بعد أكلها من كل الثمرات وبعد إتخاذها

---

(١) الكشاف وحاشيته حـ ٢ ص ٦١٨

لبيوتها ـ شراب هو العسل ، مختلف ألوانه ما بين أبيض وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل ، على حسب إختلاف مراعيها ومآكلها وسنها ، وغير ذلك مما اقتضته حكمته ـ سبحانه ـ .

والضمير فى قوله ـ تعالى ـ «فيه شفاء للناس» يعود على الشراب المستخرج من بطونها وهو العسل .

أى : فى العسل شفاء عظيم للناس من أمراض كثيرة تعرض لهم

وقيل : الضمير يعود إلى القرآن الكريم ، والتقدير : فيما قصصنا عليكم فى هذا القرآن الشفاء للناس .

وهذا القيل وإن كان صحيحا فى ذاته ، إلا أن السياق لايدل عليه ، لأن الآية تتحدث عما يخرج من بطون النحل وهو العسل ، ولا وجه للعدول عن الظاهر ، ومخالفة المرجع الواضح ...

قال الإمام ابن كثير : والدليل على أن المراد بقوله «فيه شفاء للناس» هو العسل ، الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ ، أن رجلا جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال : «اسقه عسلا» ، فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال : يارسول الله ، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا . قال : «اذهب فاسقه عسلا» . فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يارسول الله ، سقيته عسلا فمازاده إلا استطلاقا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلا» فذهب فسقاه عسلا فبرئ» .

ثم ساق الإمام ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا المعنى منها مارواه البخارى عن ابن عباس قال : الشفاء فى ثلاثة : فى شرطة محجم ، أوشربة عسل ، أوكية بنار ، وأنهى أمتى عن الكى» .

وروى البخارى — أيضا — عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن كان فى شىء من أدويتكم — أو يكون فى شىء من أدويتكم — خير : فنى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لذعة بنار، توافق الداء ، وما أحب أن أكتوى »(١) .

وقال صاحب فتح البيان : وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذى جعله الله فى العسل عام لكل داء ، أو خاص ببعض الأمراض .

فقالت طائفة : هو على العموم فى كل حال ولكل أحد .

وقالت طائفة أخرى : إن ذلك خاص ببعض الأمراض ، ولا يقتضى العموم فى كل علة وفى كل إنسان ، وليس هذا بأول لفظ خصص فى القرآن فالقرآن مملوء منه ، ولغة العرب يأتى فيها العام كثيرا بمعنى الخاص ، والخاص بمعنى العام .

ومما يدل على هذا ، أن العسل نكرة فى سياق الإثبات فلا يكون عاما باتفاق أهل اللسان . ومحققى أهل الأصول . وتنكيره إن أريد به التعظيم لايدل إلا على أن فيه شفاء عظيما لمرض ، أو أمراض ، لا لكل مرض ، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم . . .

ثم قال : قلت : وحديث البخارى : أن أخى استطلق بطنه . . . أوضح دليل على ماذهبت إليه طائفة من تعميم الشفاء ، لأن قوله — صلى الله عليه وسلم صدق الله،أى: أنه شفاء،فلوكان لبعض دون بعض لم يكرر الأمر بالسقيا»(٢).

والذى نراه ، أن من الواجب علينا أن نؤمن إيمانا جازما بأن العسل

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٥٧٥ .
(٢) تفسير فتح البيان جـ٥ صـ ٢٦٧ للشيخ صديق خان .

المذكور فيه شفاء للناس ، كما صرح بذلك القرآن الكريم ، وكما أرشد إلى ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم ....

وعلينا بعد ذلك أن نفوض أمر هذا الشفاء وعموميته وخصوصيته لعلم الله - تعالى - وقدرته وحكمته ويكفينا يقينا فى هـــذا المجال ، إصرار النبي - صلى الله عليه وسلم - على أن يقول للرجل الذى استطلق بطن أخيه أكثر من مرة ، اذهب فاسقه عسلا .

وقد تولى كثير من الأطباء شرح هذه الآية الكريمة شرحا علميا وافيا ، وبينوا ما اشتمل عليه عسل النحل من فوائد(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « إن فى ذلك لآية لقـــوم يتفكرون » .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من أمر النحل ، من إلهامها اتخاذ البيوت العجيبة ، ومن إدارتها لشئون حياتها بدقة متناهية، ومن سلوكها الطرق التى جعلها الله مذللة فى ذهابها وإيابها للحصول على قوام حياتها ، ومن خروج العسل من بطونها .... إن فى ذلك وغيره ، لآية باهرة ، وعبرة ظاهرة ، ودلالة جلية ، على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وحكمته ، لقوم يحسنون التفكير فيما أخبرهم الله - تعالى - عنه ، ويوقنون بأن لهذا الكون ربا واحدا لا إله إلا هو « تبارك الله رب العالمين » .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد ساقت لنا ألوانا من عجائب صنع الله فى خلقه ، كاستخراج اللبن من بين فرث ودم ، وكاتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، وكاستخراج العسل الذى فيه شفاء للناس من بطون النحل .

---

(١) راجع على سبيل المثال كتاب : الإسلام والطب الحديث « للدكتور عبد العزيز إسماعيل .

فهذه الأشربة قد أخرجها الله ـ تعالى ـ من أجساد مخالفة لها فى شكلها ، وقد ساقها ـ سبحانه ـ فى آيات جمع بينها التناسق الباهر فى عرض هذه النعم، مما يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن عجائب خلق الله ـ تعالى ـ فى الأنعام والأشجار والنحل ... ساقت السورة الكريمة ألوانا أخرى من مظاهر قدرته ـ تعالى ـ فى خلق الإنسان ، وفى التفاضل فى الأرزاق ، ومن نعمه على عباده فى إيجاد الأزواج والبنين والحفدة ... فقال ـ تعالى ـ :

« واللهُ خلقَكم ثم يتوفاكُم ، ومنكم من يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُر لكىْ لا يعلمَ بعد علم شيئًا، إنّ اللهَ عليمٌ قديرٌ (٧٠) والله فضّل بعضكم على بعضٍ فى الرِّزقِ ، فما الذينَ فَضِّلُوا برَادِّى رِزْقِهم على ما ملكتْ أيمانُهم ، فهُمْ فيهِ سواء ، أَفبنعمةِ الله يَجْحَدُون (٧١) واللهُ جَعل لكُم من أنفُسِكم أزْواجًا ، وجعلَ لكم من أزْواجِكُم بنينَ وحفَدةً ، ورزَقَكم من الطيباتِ أفبِالباطلِ يؤمِنُونَ وبنعمةِ اللهِ هُم يكفُرون (٧٢) »

قال الإمام الرازى ـ رحمه الله : لما ذكر ـ سبحانه ـ بعض عجائب أحوال الحيوانات، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس، ومنها ما هو مذكور فى هذه الآية : «والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ـ وهو إشارة إلى مراتب عمر الإنسان . والعقلاء ضبطوها فى أربع مراتب : أولها : سن النشوء والنماء ، وثانيها : سن الوقوف وهو سن الشباب ـ من ثلاث وثلاثين سنة إلى أربعين سنة ـ ، وثالثها : سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة ـ وهو من الأربعين إلى الستين ـ ، ورابعها : سن الانحطاط الكبير وهو سن

الشيخوخة - وهو من الستين إلى نهاية العمر - »(١) .

والمعنى : « والله » - تعالى - هو الذى « خلقكم » بقدرته ، ولم تكونوا قبل ذلك شيئا مذكورا .

« ثم » هو وحده الذى « يتوفاكم » وينهى حياتكم من هذه الدنيا عند انقضاء آجالكم .

وقوله « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر .. » معطوف على مقدر . أى : والله - تعالى - هو الذى خلقكم ، فمنكم من يبقى محتفظا بقوة جسده وعقله حتى يموت ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ..

والمراد بأرذل العمر : أضعفه وأوهاه ، وهو وقت الهرم والشيخوخة ، الذى تنقص فيه القوى ، وتعجز فيه الحواس عن أداء وظائفها .

يقال : رذل الشىء يرذل - بضم الذال فيهما - رذالة .. إذا ذهب جيده وبقى رديئه .

وقوله : لكى لا يعلم بعد علم شيئا ، تعليل للرد إلى أرذل العمر .

أى : فعلنا ما فعلنا من إبقاء بعض الناس فى هذه الحياة إلى سن الشيخوخة لكى يصير إلى حالة شبيهة بحالة طفولته فى عدم إدراك الأمور إدراكا تاما سليما .

ويجوز أن تكون اللام للصيرورة والعاقبة . أى : ليصير أمره بعد العلم بالأشياء ، إلى أن لا يعلم شيئا منها علما كاملا .

ولقد استعاذ النبى - صلى الله عليه وسلم - من أن يصل عمره إلى هذه السن ، لأنها سن تتكاثر فيها الآلام والمتاعب . وقد يصير الإنسان فيها عالة على غيره . وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - « الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٣٢٢ .

من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة، يخلق مايشاء وهو العليم القدير »(١).

قال الإمام ابن كثير : روى البخارى عند تفسير هذه الآية ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يدعو فيقول : اللهم إنى أعوذ بك من البخل، والكسل، والهرم ، وأرذل العمر، وعذاب القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات » .

وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ، ومن تخطىء يعمر فيهرم(٢)

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على كمال علمه ، وتمام قدرته ، فقال - تعالى - : « إن الله عليم قدير » . أى : إن الله - تعالى - عليم بأحوال مخلوقاته ، لا يخفى عليه شىء من تصرفاتهم «قدير» على تبديل الأمور كما تقتضى حكمته وإرادته .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة إمكان البعث وأنه حق ، لأن الله - تعالى - القادر على خلق الإنسان وعلى نقله من حال إلى حال . . . قادر - أيضا - على إحيائه بعد موته :

ثم انتقلت السورة الكريمه من الحديث عن خلق الإنسان ، وتقلبه فى أطوار عمره ، إلى الحديث عن التفاوت بين الناس فى أرزاقهم، فقال - تعالى - « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق . . » فجعل منكم الغنى والفقير ، والمالك والمملوك ، والقوى والضعيف ، وغير ذلك من ألوان التفاوت بين الناس ؛ لحكمة هو يعلمها - سبحانه - .

---

(١) سورة الروم . الآية ٥٥ (٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٧٧

ثم بين - سبحانه - موقف المفضلين فى الرزق من غيرهم فقال : «فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء . . .»

أى : فليس الذين فضلهم الله - تعالى - فى الرزق على غيرهم «برادى» أى : بما نحى وباذلى «رزقهم» الذى رزقهم الله إياه على مماليكهم أوخدمهم الذين هم إخوة لهم فى الإنسانية «فهم» أى الأغنياء الذين فضلوا فى الرزق ومماليكهم وخدمهم «فيه» أى : فى هذا الرزق «سواء» من حيث إنى أنا الرازق للجميع .

فالجملة الكريمة يجوز أن تكون دعوة من الله - تعالى - للذين فضلوا على غيرهم فى الرزق ، بأن ينفقوا على مماليكهم وخدمهم ، لأن ماينفقونه عليهم هو رزق أجراه الله للفقراء على أيدى الأغنياء .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله عند تفسير الآيه : أى : جعلكم متفاوتين فى الرزق ، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم ، وإخوانكم ، فكان ينبغى أن تردوا فضل مارزقتموه عليهم ، حتى تتساووا فى الملبس والمطعم . كما يحكى عن أبى ذر أنه سمع النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : إنما هم إخوانكم ، فاكسوهم مما تلبسون ، وأطعموهم مما تطعمون ، فما رؤى عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه ، وإزاره إزاره من غير تفاوت[1] .

ويجوز أن تكون الآية الكريمة توبيخ للذين يشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة . فيكون المعنى : لقد فضل الله - تعالى - بعضكم على بعض فى الرزق - أيها الناس - ، ومع ذلك فالمشاهد الغالب بينهم ، أن الأغنياء لايردون أموالهم على خدمهم وعبيدهم بحيث يتساوون معهم فى الرزق ، وإذا ردوا عليهم شيئا ، فإنما هو شىء قليل يسير يدل على بخلهم وحرصهم . . . مع أنى أنا الرازق للجميع . .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ صـ ٦٢٠

وإلى هذا المعنى أشار ابن كثير بقوله عند تفسيره للآية : يبين ـ تعالى ـ للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من شركاء ، وهم يعترفون بأنهم عبيد له، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم : لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فقال ـ تعالى ـ منكرا عليهم : أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو ـ تعالى ـ بمساواة عبيده له فى الإلهية والتعظيم ، كما قال ـ تعالى ـ فى آية أخرى «ضرب لكم مثلا من أنفسكم ، هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم . . . » .

وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية يقول : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون معى عبيدى فى سلطانى . . . »[1]

وهذا المعنى الثانى هو الأقرب إلى سياق آيات السورة الكريمة ، لأن السورة الكريمة مكية ، ومن أهدافها الأساسية دعوة الناس إلى اخلاص العبادة لله ـ عز وجل ـ ، ونبذ الإشراك والمشركين ، وإقامة الأدلة المتنوعة على بطلان كل عبادة لغير الله ـ تعالى ـ .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله ـ «أفبنعمة الله يجحدون » .

والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ، والفاء معطوفة على مقدر اى : أيشركون به ـ سبحانه ـ فيجحدون نعمه ، وينكرونها ، ويغمطونها حقها ، مع أنه ـ تعالى ـ هو الذى وهبهم هذه النعم ، وهو الذى منحهم ما منحهم من أرزاق ؟ !!

ثم ذكرت السورة الكريمة بعد ذلك نعمة أخرى من نعم الله ـ تعالى ـ على الناس ، فقال ـ تعالى ـ «والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا » .

أى : والله ـ تعالى ـ هو وحده الذى جعل لكم « من أنفسكم » أى : من

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٧٧

جنسكم ونوعكم «أزواجا» لتسكنوا إليها، وتستأنسوا بها، فإن الجنس إلى الجنس آنس وأسكن .

قال - تعالى - : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا، لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة . . .»(١)

قال الإمام ابن كثير، يذكر - تعالى - نعمه على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا، أي : من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ماحصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته أنه خلق من بنى آدم ذكورا وإناثا، وجعل الإناث أزواجا للذكور . . .»(٢)

وقوله - سبحانه - «وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة» بيان لنعمة أخرى من نعمه - تعالى - والحفدة، جمع حافد . يقال، حفد فلان يحفد حفدا من باب ضرب إذا أسرع فى خدمة غيره وطاعته . ومن دعاء القنوت : وإليك نسعى ونحفد، أى نسرع فى طاعتك ياربنا .

والمراد بالحفدة : أبناء الأبناء . روى عن إبن عباس انه قال : الحفيد ولد الإبن والبنت، ذكرا كان أو أنثى .

وقيل المراد بهم : الخدم والأعوان. وقيل المراد بهم : الأختان والأصهار اى : أزواج البنات وأقارب الزوجة ...

قال الجمل بعد أن نقل جملة من أقوال المفسرين فى ذلك: وكل هذه الأقوال متقاربة، لأن اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك . وبالجمله فالحفدة غير البنين، لأن الأصل فى العطف المغايرة .»(٣)

وقوله — سبحانه — «ورزقكم من الطيبات» بيان لنعمة ثالثة من النعم المذكورة فى هذه الآية .

---

(١) سورة الروم الآية ٢١ (٢) تفسير ابن كثير حـ ٢ ص ٥٧٧

(٣) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٢ ص ٥٨٦

أى : ورزقكم — سبحانه — من الطيبات التى تستلذونها وتشتهونها ، وقد أحل لكم التمتع بها فضلا منه وكرما .

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بتأنيب الذين يؤثرون الغى على الرشد فقال — تعالى — « أفبا الباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون »

والباطل يشمل كل إعتقاد أو قول أو فعل يخالف الحق والرشاد والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والفاء معطوفة على مقدر . والمعنى : أيجحدون نعم الله — تعالى — فيؤمنون بالباطل ، ويكفرون بكل ما سواه من الحق والهدى والرشاد .

وفى تقديم الباطل على الفعل « يؤمنون » إشارة إلى أنهم قد إختلط الباطل بدمائهم فأصبحوا لا يؤمنون إلا به ، ولا ينقادون إلا له .

والمراد بنعمة الله عموم النعم التى أنعم الله بها عليهم ، والتى لا تعد ولا تحصى .

وفى تقديم النعمة وتوسيط ضمير الفصل إشعار بأن كفرهم بالنعمة مستمر وإنكارهم لها لا ينقطع ، لأنهم « إستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . . »

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد ذكرت الناس بعجائب خلقهم وبأطوار حياتهم ، وبتفاوت أرزاقهم ، وببعض نعم الله — تعالى — عليهم لعلهم عن طريق هذا التذكير يفيئون إلى رشدهم ، ويخلصون العبادة لخالقهم — سبحانه — ، ويستعملون نعمه فيما خلقت له .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك لونا من ألوان العقول المنحرفة عن الطريق الحق ، كما ساقت مثلين للرب الخالق العظيم ، وللمملوك العاجز الضعيف ، لعل فى ذلك عبرة لمن يعتبر ، وهداية لمن يريد الصراط المستقيم ، فقال — تعالى — :

« ويعبدونَ من دونِ اللهِ مالاَ يملِكُ لهم رِزْقاً من السمواتِ والأرضِ شيئاً ولا يستطِيعونَ (٧٣) فلاَ تضرِبُوا للهِ الأمثالَ ، إنَّ اللهَ يعلمُ وأنتُم لا تعلمون (٧٤) ضربَ اللهُ مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدرُ على شيء ، ومَنْ رزقناهُ منَّا رزقاً حسَناً فهُوَ ينفِقُ منه سِرًّا وجَهْراً ، هَلْ يستوُونَ الحمدُ للهِ بَلْ أكثرُهُم لا يَعلمُون (٧٥) وضَربَ اللهُ مثلاً رجُلينِ : أحدُهُما أبكمُ لا يقدِرُ على شيء وهو كَلٌّ علَى مولاَهُ ، أينَما يوجِّهْه لا يأتِ بخيرٍ . هل يستوِي هو ومَنْ يأمُر بالعدلِ وهُوَ على صراطٍ مستقيمٍ (٧٦) » .

والمراد بقوله ـ سبحانه ـ : « ويعبدون من دون الله .... » كل معبود سوى الله ـ تعالى ـ من صنم أو وثن أو غير ذلك من المعبودات الباطلة .

والجملة الكريمة داخلة تحت مضمون الاستفهام الانكارى ، ومعطوفة عليه ؛ وهو قوله ـ تعالى ـ : أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون »

أى أن هؤلاء الجاحدين لنعم الله ـ تعالى ـ ، بلغ من جهالتهم وسفاهاتهم أنهم يؤمنون بالباطل ، ويكفرون بالحق ، ويعبدون من دون الله ـ تعالى ـ أصناما وأوثانا لا تملك لعابدها رأى شيء من الرزق ، فهى لا تنزل مطرا من السماء ولا تخرج نباتا من الأرض ، ولا تستطيع أن تنفع أو تضر ...

و « ما » فى قوله ـ تعالى ـ « مالا يملك ... » كناية عن معبوداتهم الباطلة فهى مفردة لفظا ، مجموعة معنى .

والتنكير فى قوله ـ سبحانه ـ « رزقا » للإشعار بقلته وتفاهته ، وأن معبوداتهم لا تملك لهم أى شيء من الرزق ، حتى ولو كان تافها حقيرا .

وقوله « شيئا » منصوب على المصدر ، أى : ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم ملكا ، أى شيئا من الملك .

والضمير فى قوله « ولا يستطيعون » يعود إلى « ما » وجمع بصيغة العقلاء وبناء على زعمهم الفاسد ، من أن هذه الأصنام فى إمكانها النفع والضر .

وجاءت جملة « ولا يستطيعون » بعد قوله - تعالى - ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض .. » لتأكيد عجز هذه المعبودات عن فعل أى شىء فهى لا تملك شيئا ، وليس فى إستطاعتها أن تملك لأنها ليست أهلا لذلك .

وقوله - سبحانه - « فلا تضربوا لله الأمثال .. » نهى منه - سبحانه - عن أن يشبه فى ذاته أو صفاته بغيره ، وقد جاء هذا النهى فى صورة الالتفات من الغائب إلى المخاطب للاهتمام بشأن هذا النهى ، والفاء لترتيب النهى على ما عدد من النعم التى وردت فى هذه السورة والتى لم ينته الحديث عنها بعد .

والأمثال : جمع مثل وهو النظير والشبيه لغيره ، ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - ، لمورده - وهو الذى ورد فيه أولا .

وضرب الأمثال : لتوضيح الشىء الغريب ، وتقريب المعنى المعقول من المحسوس ، وعرض ما هو غائب فى صورة ما هو مشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

وقوله - تعالى - « إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون » تعليل لهذا النهى عن ضرب الأمثال لله - عز وجل -

أى : فلا تتجاسروا ، وتتطاولوا ، وتضربوا لله - تعالى - الأمثال ، كما يضرب بعضكم لبعض ، فإن الله - تعالى - هو الذى يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك .

قال الزجاج : ورد أن المشركين كانوا يقولون : إن إله العالم أجل من أن يعبده الواحد منا . فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب ، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك ، وأولئك الأكابر يخدمون الملك ، فهوا عن ذلك »(١)

ثم وضح لهم - سبحانه - كيف تضرب الأمثال ، فساق مثلين حكيمين يدلان على وحدانية الله - تعالى - وقدرته :

أما المثل الأول فيتجلى فى قوله - عز وجل - : ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء . . . »

وأما المثل الأول فيتجلى فى قوله - عز وجل - ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء . . . »

أى : ذكر الله - تعالى - وبين ووضح لكم مثلا تستدلون به على وحدانيته - سبحانه - ، وهو أن هناك عبدا رقيقا مملوكا لغيره ، وهذا العبد لا يقدر على شىء من التصرفات حتى ولو كانت قليلة .

وقوله - سبحانه - « عبدا » بدل من « مثلا » و « مملوكا » صفه للعبد . ووصف - سبحانه - العبد بأنه مملوك، ليحصل الامتياز بينه وبين الحر ،لأن كليهما يشترك فى كونه عبدا لله - تعالى -

ووصفه أيضا - بأنه لا يقدر على شىء للتمييز بينه وبين المكاتب والعبد المأذون له فى التصرف ، لأنهما يقدران على بعض التصرفات .

هذا هو الجانب الأول من المثل . أما الجانب الثانى فيتجلى فى قوله - تعالى - : ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا . . . »

قال الآلوسى : و « من » فى رزقناه » نكرة موصوفة ، ليطابق عبدا فإنه

---

(١) تفسير فتح القدير للشيخ صديق حسن خان جـ ٥ ص ٢٧٣

نكرة موصوفة - أيضا - ، وقيل إنها موصولة ،والأول إختيار الأكثرين
اى : حرا رزقناه بطريق الملك ، والالتفات إلى التكلم - فى « رزقناه » -
للاشعار باختلاف حال ضرب المثل والرزق ... » [1]

أى : ذكر الله - تعالى لكم لتتعظوا وتتفكروا ، حال رجلين :
أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شىء ، والثانى حر مالك رزقه الله - تعالى -
رزقا واسعا حلالا حسنا ، « فهو » أى هذا الحر « ينفق على غيره من هذا
الرزق الحسن « سرا وجهرا » وإختار - سبحانه - ضمير العظمة فى قوله
« رزقناه » للاشعار بكثرة هذا الرزق وعظمته ، ويزيده كثرة وعظمة
قوله - تعالى - بعد ذلك « مِنَّا » أى : من عندنا وحدنا وليس من
عند غيرنا .

ووصف - سبحانه - الرزق بالحسن ، للاشارة إلى أنه مع كثرته فهو
حلال طيب مستحسن فى الشرع وفى نظر الناس .

وقال - سبحانه - « فهو ينفق .. » بصيغة الجملة الأسمية ، للدلالة على
ثبوت هذا الانفاق ودوامه .

وقوله « سرا وجهرا » منصوبان على المصدر ، أى أنفاق سر وجهر ، أو
على الحالية ، أى فهو ينفق منه فى حالتى السر والجهر .

والمراد أنه إنسان كريم ، لا يبخل بشىء مما رزقه الله ، بل ينفق منه فى
عموم الأحوال ، وعلى من تحسن معه النفقة سرا ، وعلى من تحسن معه
النفقه جهرا .

هذان هما الجانبان المتقابلان فى هذا المثل . والفرق بينهما واضح وعظيم
عند كل ذى قلب سليم ،ولذا جاء بعدهما بالاستفهام الإنكارى التوبيخى فقال:

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ١٤ ص ١٩٥

« هل يستوون » ؟ أى : هل يستوى فى عرفكم أو فى عرف أى عاقل هذا العبد المملوك العاجز الذى لايقدر على شىء . . . مع هذا الإنسان الحر المالك الذى رزقه الله — تعالى — رزقا واسعا حلالا ، فشكر الله عليه ، واستعمله فى وجوه الخير .

إنه مما لاشك فيه أنهما لايستويان حتى فى نظر من عنده أدنى شىء من عقل .

ومادام الأمر كذلك ، فكيف سويتم — أيها المشركون الجهلاء — فى العبادة ، بين الخالق الرازق الذى يملك كل شىء ، وبين غيره من المعبودات الباطلة التى لاتسمع ولا تبصر ، ولا تعقل ، ولا تملك شيئا . . .

وقال — سبحانه — « هل يستوون » مع أن المتقدم اثنان ، لأن المراد جنس العبيد والأحرار ، المدلول عليهما بقوله « عبدا » ومن رزقناه » .

فالمقصود بالمثل كل من اتصف بهذه الأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لافردان معينان .

وقوله : « الحمد لله » ثناء منه — سبحانه — على ذاته ، حيث ساق — سبحانه هذه الأمثال الواضحة للتمييز بين الحق والباطل .

أى : قل — أيها الإنسان المؤمن العاقل — « الحمد » كله « لله » — تعالى — على إرشاده لعباده المؤمنين ، وتعليمهم كيف يقذفون بحقهم على باطل أعدائهم فإذا هو زاهق .

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بقوله (بل أكثرهم لايعلمون) أى : بل أكثر هؤلاء الكافرين الضالين ، لايعلمون كيف يميزون بين الحق والباطل لانطماس بصائرهم ، واستيلاء الجحود والحسد والعناد على قلوبهم .

وقال — سبحانه — (بل أكثرهم . .) للاشعار بأن من هؤلاء الكافرين من

يعلم الحق ويعرفه كما يعرف أبناءه ، ولكن الهوى والغرور والتقليد الباطل .. حال بينه وبين أتباع الحق .

هذا هو المثال الأول الذى ذكره الله ـ تعالى ـ للاستدلال به على بطلان التسوية بين عباده الله ـ تعالى ـ الخالق لكل شىء ، والمالك لكل شىء .. وبين عبادة غيره من الأصنام والجمادات التى لاتخلق شيئا ، ولا تملك شيئا ، ولا تضر ولا تنفع ..

أما المثال الثانى فهو أشد وضوحا من سابقه على وحدانية الله ـ تعالى ـ ورحمته بعباده ، وعلى الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، ويتجلى هذا المثال فى قوله ـ عز وجل ـ : (وضرب الله مثلا ، رجلين أحدهما أبكم ، لايقدر على شىء ، وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لايأت بخير ...) .

أى : وذكر الله ـ تعالى ـ مثلا آخر لرجلين ، (أحدهما أبكم) أى : لايستطيع النطق أو الكلام ، ضعيف الفهم والتفهيم لغيره .

(لايقدر على شىء) أى : لايقدر على فعل شىء من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره .

(وهو) أى هذا الرجل (كل على مولاه) أى : حمل ثقيل ، وهم كبير على مولاه الذى يتولى شئونه من طعام وشراب وكساء وغير ذلك. وهذا بيان لعدم قدرته على القيام بمصالح نفسه ، بعد بيان عدم قدرته على القيام بفعل أى شىء على الإطلاق .

قال القرطبى : قوله (وهو كل على مولاه) أى ثقل على وليه وقرابته ، ووبال على صاحبه وابن عمه . وقد يسمى اليتيم كلا لثقله على من يكفله ، ومنه قول الشاعر :

أكول لمال الكل قبل شبابه ... إذا كان عظم الكلّ غير شديد(١)

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٤٩

فالكَلُّ هو الإنسان العاجز الضعيف الذي يكون محتاجا إلى من يرعى شئونه .

وقوله « أينما يوجهه لا يأت بخير » أي : أن هذا الرجل حيثما يوجهه مولاه وكافله لقضاء أمر من الأمور يعود خائبا ، لعجزه ، وضعف حيلته . وقلة إدراكه . . .

فأنت ترى أن الله — تعالى — قد وصف هذا الرجل بأربع صفات ، تدل على سوء فهمه، وقلة حيلته ، وثقله على ولي أمره ، وإنسداد طرق الخير في وجهه . . . .

هذا هو الجانب الأول من المثل ، أما الجانب الثاني فيتجلى في قوله — تعالى — : « هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم »

أي : « هل يستوي هو » أي هذا الرجل الأبكم العاجز . . . مع رجل آخر « يأمر » غيره بالعدل « وهو » أي هـذا الرجل الآخر في نفسه « على صراط مستقيم » أي : على دين قويم ، وخلق كريم فقد جمع بذلك بين فضيلتين جليلتين : نفعه لغيره ، وصلاحه في ذاته .

لاشك أن هـذين الرجلين لا يستويان في عقل أي عاقل ، إذ أن أولهما أبكم عاجز خائب . . . وثانيهما منطيق ، ناصح لغيره ، جامع لخصال الخير في نفسه .

ومادام الأمر كذلك فكيف سويتم - أيها المشركون الضالون المكذبون - في العبادة بين الله - تعالى - وهو الخالق لكل شيء ، وبين تلك الأصنام التي لاتسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابديها شيئا

أو كيف سويتم بين المؤمن الجامع لكل مكرمة ، وبين الكافر الغبي الأبله الذي آثر الغي على الرشد ، فتكون الآية الكريمة مسوقة لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر .

وقد قابل - سبحانه - الأوصاف الأربعة للرجل الأول ، بهذين الوصفين للرجل الثانى ، لأن حاصل أوصاف الأول أنه غير مستحق لشىء ، وحاصل وصفى الثانى أنه مستحق لكل فضل وخير .

وقوله « ومن يأمر بالعدل . . . » معطوف على الضمير المستتر فى قوله « هل يستوى . . . »

وجملة « وهو على صراط مستقيم » فى محل نصب على الحال .

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد ساقتا مثلين واضحين، لبيان الفرق الشاسع بين ذات الله - تعالى - الخلاق العليم ، الرزاق الكريم . . . وبين تلك المعبودات الباطلة التى أشركها الضالون فى العبادة مع الله - عز وجل -

أو بين المؤمن الذى هو على بصيرة من أمره ، وبين الكافر الذى استحب العمى على الهدى .. أو بين الحق فى وضوحه وجماله وجلاله : وبين الباطل فى ظلامه وقبحه وحسنه . . هذا ، وما ذكره بعضهم من أن المثلين فى الآيتين الكريمتين ، قد وردا فى أشخاص معينين من المؤمنين أو الكافرين، لا يعول عليه ، لضعف الروايات التى وردت فى ذلك ، ولأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال الآلوسى ما ملخصه : وما روى من أن الأبكم أبو جهل والآمر بالعدل عمار ، أو بالأبكم أبي بن خلف ، والآمر بالعدل عثمان بن مظعون لا يصح إسناده .... »(١)

وبهذين المثلين تكون السورة الكريمة قد أقامت أعظم الأدلة وأسطعها على صحة قوله - تعالى - قبل ذلك : « وقال الله لا تتخذوا إلهين إثنين إنما هو إله واحد .... »

ثم ساقت السورة بعد ذلك مايدل على إحاطة علمه - سبحانه - بكل شىء ، وعلى شمول قدرته ، وعلى سابغ نعمته ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٩٧!

« ولله غيبُ السَّموات والأرض ، وما أمرُ الساعة إلا كَلَمْح البَصرِ أو هُوَ أقربُ ، إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير (٧٧) واللهُ أخرجكُم منْ بطونِ أُمهاتِكُم لا تعلمونَ شيئاً ، وجَعلَ لكم السمعَ والأبصارَ والأفئِدةَ لعلكُم تشكُرونَ (٧٨) ألَمْ يرَوْا إلى الطيرِ مسخَّراتٍ في جَوِّ السماءِ ما يُمسِكُهُنَّ إلا اللهُ ، إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنونَ (٧٩) واللهُ جَعل لكُم من بيوتِكُم سكَناً ، وجعلَ لكم من جلودِ الأنعامِ بيوتاً تَستَخِفُونَهَا يوم ظَعْنِكُم ويومَ إقامتِكُم، ومن أصوافِها وأَوْبَارِهَا وأَشْعَارِهَا أثاثاً ومتاعاً إلى حينٍ (٨٠) واللهُ جَعلَ لكم مما خلقَ ظِلالاً وجعلَ لكُم من الجبالِ أكناناً ، وجعلَ لكُم سَرابِيلَ تقيكُم الحرَّ وسرابيلَ تقيكُم بأْسَكُم، كذلكَ يتمُّ نعمتَه عليكُم لعلكُم تُسلِمُون(٨١) فإنْ تولَّوا فإنَّما عليكَ البلاغُ المبينُ (٨٢) يعرفُونَ نعمةَ اللهِ ثم يُنكِرونَهَا وأكثرُهُم الكافرونَ (٨٣) » .

والمراد فالغيب في قوله – سبحانه – « ولله غيب السموات والأرض .... » ما لاتدركه الحواس ، ولا تحيط بكنهه العقول ، لأنه غائب عن مدارك الخلائق .

والكلام على حذف مضاف ، والتقدير : لله – تعالى – وحده ، علم جميع الأمور الغائبة عن مدارك المخلوقين ، والتي لا سبيل لهم إلى معرفتها لا عن طريق الحس ، ولا عن طريق العقل

ومن كانت هذه صفته ، كان مستحقا للعبادة والطاعة ، لا تلك المعبودات الباطلة التي لاتعلم من أمرها ، أو من أمر غيرها شيئا .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وما أمر الساعه إلا كلمح البصر أو هو أقرب .:» بيان لسرعة نفاذ أمره بدون مهله .

والساعة فى الأصل : إسم لمقدار قليل من الزمان غير معين . والمراد بها هنا يوم القيامة وما يحدث فيه من أهوال .

وسمى يوم القيامه بالساعة : لوقوعه بغته ، أو لسرعة مايقع فيه من حساب أو لأنه على طول زمنه يسير عند الله ـ تعالى ـ

واللمح : النظر الذى هو فى غاية السرعه . يقال لمحه لمحا ولمحانا إذا رآه بسرعة فائقة ولمح البصر: التحرك السريع لطرف العين من جهة إلى جهة، أو من أعلى إلى أسفل .

و « أو » هنا للتخيير بالنسبة لقدرة الله ـ تعالى ـ أو للاضراب .

أى : ولله ـ تعالى ـ وحده علم جميع ماغاب فى السموات والأرض من أشياء ، وما أمر قيام الساعه فى سرعته وسهولته ، وما يترتب عليه من أماتة وأحياء ، وحساب ، وثواب وعقاب . . . ما أمر ذلك كله إلا كتحرك طرف العين من جهة إلى جهة ، أو هو ـ أى أمر قيامها ـ أقرب من ذلك وأسرع ، بحيث يكون فى نصف هذا الزمان أو أقل من ذلك ، لأن قدرتنا لا يعجزها شىء ، قال ـ تعالى ـ : « إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون »

والمقصود من هذه الجملة الكريمة، بيان سرعة تأثير قدرة الله ـ عز وجل ـ متى توجهت إلى شىء من الأشياء .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمه بما يؤكد شمول قدرته فقال ـ تعالى : « إن الله على كل شىء قدير » . أى : إن الله ـ تعالى ـ لايعجز قدرته شىء سواء أكان هذا الشىء يتعلق بأمر قيام الساعه فى أسرع من لمح البصر ... أو بغير ذلك من أشياء .

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك أنواعا من نعمه على عباده فقال : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا »

أى : والله - تعالى - وحده هو الذى أخرجكم - أيها الناس - من بطون أمهاتكم إلى هذه الحياه ، وأنتم لاتعلمون شيئاً لا من العلم الدنيوى ولا من العلم الدينى . ولا تعرفون ما يضركم أو ينفعكم والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا .. »

وجملة « لاتعلمون شيئا » حال من الكاف فى « أخرجكم »

وقوله - سبحانه - « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » نعمة ثانية من نعمه - سبحانه - التى لاتحصى .

أى : أن من نعمه - تعالى - أنه أخرجكم من بطون أمهاتكم - بعد أن مكثتم فيها شهورا تحت كلاءته ورعايته - وأنتم لاتعرفون شيئا ، وركب فيكم بقدرته النافذه ، وحكمته البالغة ، « والسمع » الذى تسمعون به ، والبصر الذى بواسطته تبصرون ، « والأفئدة » التى عن طريقها تعقلون وتفهمون ، لعلكم بسبب كل هذه النعم التى أنعمها عليكم ، تشكرونه حق الشكر ، بأن تخلصوا له العبادة والطاعة ، وتستعملوا نعمه فى مواضعها التى وجدت من أجلها .

قال الجمل : وجملة : « وجعل لكم السمع والأبصار ... » إبتدائية ، أو معطوفة على ما قبلها ، والواولا تقتضى ترتيبا ، فلاينافى أن هـذا الجعل قبل الإخراج من البطون . ونكتة تأخيره - أى الجعل - أن السمع ونحوه من آلات الإدراك ، إنما يعتد به اذا أحس الإنسان وأدرك وذلك لايكون الا بعد الاخراج . وقدم السمع على البصر ، لأنه طريق تلقى الوحى ، أو لأن ادراكه أقدم من إدراك البصر . وافراده - أى السمع - باعتبار كونه مصدرا فى الأصل ... »(١)

وقال الإمام ابن كثير . وهذه القوى والحواس تحصل الإنسان على التدريج

---

(١) حاشية الجمل علا الجلالين حـ ٢ صـ ٥٨٩

قليلا قليلا حتى يبلغ أشده . وإنما جعل ـ تعالى ـ هذه الحواس فى الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه ، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه كما جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : يقول تعالى ـ من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب . وما تقرب إلى عبدى بشىء أفضل مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه .

فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن دعانى لأجيبنه ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بد له منه » .

فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة ، صارت أفعاله كلها لله ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله أى : لما شرعه الله له ...[1]

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : « قل هو الذى أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون »[2] .

ثم حض ـ سبحانه ـ عباده على التفكر فى مظاهر قدرته فقال ـ تعالى ـ : « ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله ... »

والطير : جمع طائر كركب وراكب . و « مسخرات » من التسخير بمعنى التذليل والانقياد أى : ألم ينظر هؤلاء الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى فى العبادة ، إلى الطيور وهن يسبحن فى الهواء المتباعد بين الأرض والسماء ، مايمسكهن فى حال قبضهن وبسطهن لأجنحتهن إلا الله ـ تعالى ـ ، بقدرته الباهرة ، وبنواميسه التى أودعها فى فطرة الطير .

إنهم لو نظروا نظر تأمل وتعقل ، لعلموا أن المسخر لهن هو الله الذى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٥٧٩ (٢) سورة الملك الآية ٢٤

لامعبود بحق سواه وفى قوله ـ تعالى ـ «مسخرات» إشارة إلى أن طيرانها فى الجو ليس بمقتضى طبعها ، وإنما هو بتسخير الله تعالى لها وبسبب ما أوجد لها من حواس ساعدتها على ذلك ، كالأجنحة وغيرها . وأضاف — سبحانه — الجو إلى السماء لارتفاعه عن الأرض ، ولاظهار كمال قدرته — سبحانه — .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : «إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون» .

أى : إن فى ذلك التسخير والتذليل للطير على هذه الصفة «لآيات» بينات على قدرة الله ـ تعالى ـ ووحدانيته ، «لقوم يؤمنون» بالحق ، ويفتحون قلوبهم له ويسمون بأنفسهم عن التقاليد الباطل .

ثم ساقت السورة الكريمة ألوانا من النعم ، منها مايتعلق بنعمة المسكن فقال — تعالى ـ : «والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ...» .

قال القرطبى : قوله تعالى: «جعل لكم» معناه صير ، وكل ماعلاك فأظلك فهو سقف وسماء ، وكل ما أقلك فهو أرض ، وكل ماسترك من جهاتك الأربع فهو جدار ، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت ؛ وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس فى البيوت وقوله : «سكنا» أى : تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة ...»(١)

والحق أن نعمة السكن فى البيوت والاستقرار فيها ، والشعور بداخلها بالأمان والاطمئنان ، هذه النعمة لا يقدرها حق قدرها ، إلا أولئك الذين فقدوها ، وصاروا يعيشون بلا مأوى يأويهم ، أومنزل يجمع شتاتهم . .

والتعبير بقوله عز وجل «سكنا» فيه مافيه من السمو بمكانة البيوت التى يسكنها الناس .

فالبيت مكان السكينة النفسية ، والراحة الجسديه، هكذا يريده الاسلام ، ولا يريده مكانا للشقاق والخصام ، لأن الشقاق والخصام ينافى كونه «سكنا» .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٥٢

والبيت له حرمته التى جعل الاسلام من مظاهرها . عدم اقتحامه بدون استئذان ، وعدم التطلع إلى ما بداخله ، وعدم التجسس على من بداخله .

وصيانة حرمة البيت - كما أمر الاسلام - تجعله « سكنا » آمنا ، يجد فيه أصحابه كل ما يريدون من الراحة النفسية والسعورية ..

وقوله - تعالى - : «وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم » بيان لنعمة أخرى تتمثل فى البيوت الخفيفة المتنقلة ، بعد الحديث عن البيوت الثابتة المستقره .

والأنعام جمع نعم . وتشمل الإبل والبقر والغنم ، ويدخل فى الغنم المعز .
والظعن بسكون العين وفتحها - التحول والانتقال والرحيل من مكان إلى آخر طلبا للكلأ ، أو لمساقط الغيث . أو لغير ذلك من الأغراض ..
أى : ومن نعمه أيضا أنه أوجد لكم من جلود الأنعام بيوتا «تستخفونها » أى : تجدونها خفيفة « يوم ظعنكم » أى : يوم سفركم ورحيلكم من موضع إلى آخر « ويوم إقامتكم » فى مكان معين بحيث يمكنكم أن تنصبوها لتر تاحوا بداخلها ، بأيسر السبل ، وذلك كالقباب والخيام والأخبية ، وغير ذلك من البيوت التى يخف حملها .

ثم ختم - سبحانه - الآية بإبراز نعمة ثالثة ، تتمثل فيما يأخذونه من الأنعام فقال - تعالى - : « ومن أصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها ، أثاثا ومتاعا إلى حين » .

والأثاث : متاع البيت الكثير ، وأصله من أث الشىء بفتح الهمزة وتشديد الثاء مع الفتح إذا كثر وتكاثف ، ومنه قول الشاعر .

وفرعٍ يزين المتن أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كقنو النخلة المتعثكل(١)

---

(١) الفرع : الشعر التام . والمتن : ما عن يمين الرأس وشماله . والفاحم : الشديد السواد . والأثيث : الكثير المتكاثف . والمتعثكل : الذى دخل بعضه فى بعض لكثرته . راجع تفسير القرطبى حـ ١٠ صـ ١٥٤

ويشمل جميع أصناف المال كالفرش وغيرها .

والمتاع : ما يتمتع به من حوائج البيت الخاصة كأدوات الطعام والشراب ، فيكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام .

وقيل : هما بمعنى واحد . والعطف لتنزيل تغاير اللفظ بمنزلة تغاير المعنى .

أى : ومن أصواف الغنم ، وأوبار الإبل ، وأشعار المعز ، تتخذون لأنفسكم « أثاثا » كثيرا تستعملونه فى مصالحكم المتنوعه ، كما تتخذون من ذلك ما تتمتعون به فى بيوتكم فى معاشكم « إلى حين » أى : إلى وقت معين قدره الله ـ تعالى ـ لكم فى تمتعكم بهذه الأصواف والأوبار والأشعار .

وبعد الحديث عن نعمة البيوت والأنعام جاء الحديث عن نعمة الظلال والجبال واللباس ، فقال ـ تعالى ـ : « والله جعل لكم مما خلق ظلالا ... »

والظلال : جمع ظل ، وهو ما يستظل به الإنسان .

أى : والله ـ تعالى ـ بفضله وكرمه جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد ، كالأبنية والأشجار ، وغير ذلك من الأشياء التى تستظلون بها .

وقوله ـ تعالى ـ وجعل لكم من الجبال أكنانا ... » نعمة ثانية .

والأكنان جمع كن ـ بكسر الكاف ـ وأصله السترة ، والجمع أكنان وأكنة ، ومنه قوله ـ تعالى ـ . « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ... » أى فى أستار وأغطية فلا يصل إليها قولك ...

والمراد بالأكنان هنا : المغارات والأسراب والكهوف المنحوتة فى بطون الجبال .

أى : وجعل لكم ـ سبحانه ـ من الجبال مواضع تستترون فيها من الحر أو البرد أو المطر ، أو غير ذلك من وجوه انتفاعكم بتلك الأكنان .

وقوله ـ سبحانه ـ « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم » نعمة ثالثة .

والسرابيل : جمع سربال وهى كل ما يتسربل به ، أى يلبسه الناس للتستر والوقاية كالقمصان والثياب والدروع وغيرها .

أى : وجعل لكم من فضله وكرمه ملابس تتقون بها ضرر الحر وضرر البرد ، وملابس أخرى هى الدروع وما يشبهها - تتقون بها الضربات والطعنات التى تسدد إليكم فى حالة الحرب .

وقال - سبحانه - « تقيكم الحر » مع أنها تقى من الحر والبرد ، اكتفاء بذكر احد الضدين عن الآخر ، أو اكتفى بذكر الحر لأنه الأهم عندهم ، إذ من المعروف أن بلاد العرب يغلب عليها الحر لا البرد .

قال صاحب الكشاف : لم يذكر البرد ، لأن الوقاية من الحر أهم عندهم ، وقلما يهمهم البرد لكونه يسيرا محتملا ، وقيل : مايقى من الحريق من البرد ، فدل ذكر الحر على البرد »(١) .

وقال القرطبى : قال العلماء : فى قوله - تعالى - « وسرابيل تقيكم بأسكم » دليل على اتخاذ الناس عدة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء . وقد لبسها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حروبه ... »(٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » أى : كذلك الإتمام السابغ للنعم التى أنعم بها - سبحانه - على عباده يتم نعمته عليكم المتمثلة فى نعم الدين والدنيا ، لعلكم بذلك تسلمون وجوهكم لله - عز وجل - ، وتدخلون فى دين الإسلام عن اختيار واقتناع ، فإن من شاهد كل هذه النعم ، لم يسعه إلا الدخول فى الدين الحق .

ثم سلى الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه فقال : « فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين »

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٢٦

(٢) « القرطبى ج ١٠ ص ١٦٠

وجواب الشرط محذوف ، والتقدير : فإن استمر هؤلاء المشركون فى إعراضهم عن دعوتك ، بعد هذا البيان والامتنان ، فلا لوم عليك ، فأنت عليك البلاغ الواضح ونحن علينا محاسبتهم ، ومعاقبتهم بما يستحقون من عقاب

وقوله ـ سبحانه ـ : «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون» استئناف مسوق لبيان الموقف الجحودى الذى وقفه المشركون من نعم الله ـ تعالى ـ

والمراد بالكفر فى قوله ـ تعالى ـ «وأكثرهم الكافرون» الستر لنعم الله عن معرفة لها ، وعمطها عن تعمد وإصرار .

أى : أن هؤلاء المشركين ، يعرفون نعم الله التى عددها فى هذه السورة، كما أنهم يعترفون بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله ، ولكنهم ينكرون هذه النعم بأفعالهم القبيحة ، وأقوالهم الباطلة ، كقولهم هذه النعم من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا الأصنام ، أو كقولهم: هذه النعم ورثناها عن آبائنا..

وجاء التعبير «ثم» لاستبعاد الإنكار بعد المعرفة بالنعم ، فإن من شأن العالم بالنعمة أن يؤدى الشكر لمسديها ، وأن يستعملها فيما خلقت له.

وقوله «وأكثرهم الكافرون» أى : وأكثر هؤلاء الضالين ، جاحدون لنعم الله عن علم بها لا عن جهل ، وعن تذكر لا عن نسيان .

وشبيه بهذه الجملة قوله ـ تعالى ـ : «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ...» .

قال صاحب فتح البيان : وعبر هنا بالأكثر فى قوله ـ تعالى ـ «وأكثرهم الكافرون» والمراد الكل ، لأنه قد يذكر الأكثر ويراد به الجميع ، أو أراد بالأكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم ، أو أراد كفر الجحود ، ولم يكن كفر كلهم كذلك ، بل كان كفر أقلهم عن جهل ، وكفر أكثرهم بسبب تكذيبهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنادا أو حسدا ...»[1] .

---

(١) تفسير فتح البيان جـ ٥ ص ٢٨٣ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا ألوانا من نعم الله – تعالى – على عباده، وأدلة متعددة على وحدانيته وقدرته، وجانبا من موقف الكافرين من هذه النعم . .

ثم تحدثت السورة الكريمة بعد ذلك عن حال الظالمين يوم القيامه وعن الأقوال التى يقولونها عندما يرون أصنامهم فى هذا اليوم العصيب ...

قال تعالى – :

« ويَوْمَ نبعثُ مِن كلِّ أمةٍ شهيداً ثم لا يُؤذَنُ للذينَ كفرُوا ولا هم يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وإذَا رَأَى الذينَ ظلَموا العذابَ فلا يخفَّفُ عنهُم ولا هُمْ يُنْظَرونَ (٨٥) وإذَا رأَى الذينَ أشركُوا شركاءهُم قالُوا ربَّنـاَ هؤلاء شركاؤنا الذينَ كنَّا ندعُو من دُونِك، فألقَوْا إليهم القولَ إنكُم لكاذِبُونَ (٨٦) وأَلقَوْا إلى اللهِ يومَئذٍ السَّلَمَ وضَلَّ عنهُم ما كانُوا يفتَرُون (٨٧) الذين كفرُوا وصدُّوا عن سبيلِ اللهِ زدناهُم عذاباً فوقَ العذابِ بما كانُوا يُفْسِدون (٨٨) ويومَ نبعثُ فى كلِّ أمةٍ شهيداً عليهم مِنْ أنفُسِهم، وجئنا بك شهيداً على هؤلاء، ونزَّلنـاَ عليكَ الكتابَ تِبْياناً لكلِّ شىءٍ، وهُدًى ورحمةً وبُشْرَى للمسلمينَ (٨٩) » .

قال الإمام الرازى : اعلم أنه – تعالى – لما بين من حال القوم، أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها، وذكر – أيضا – من حالهم أن أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد، فذكر حال يوم القيامه . فقال :

« ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ... » وذلك يدل على أن أولئك الشهداء يشهدون عليهم بذلك الإنكار، وبذلك الكفر . والمراد بهؤلاء الشهداء :

الأنبياء، كما قال ـ تعالى ـ : فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا »[١]

والمعنى : واذكر ـ أيها العاقل لتعتبر وتتعظ ـ « يوم نبعث فى كل أمة » أى : جماعة من الناس، «شهيدا» يشهد للمؤمن بالإيمان ويشهد على الكافر بالكفر

قال ابن عباس شهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان والتصديق، وعليهم بالكفر والتكذيب .

وقوله : « ثم لا يؤذن للذين كفروا » بيان المصير السىء الذى ينتظر هؤلاء الكافرين يوم القيامة .

أى : ثم لا يؤذن للذين كفروا يوم القيامة فى الاعتذار، عما كانوا عليه فى الدنيا من عقائد زائفة، وأقوال باطلة، وأفعال قبيحة، كما قال تعالى ـ فى سورة أخرى : « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون »[٢]

أو المعنى : ثم لا يؤذن لهم فى الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من عقائد سليمة وأعمال صالحة، لأنهم قد تركوها ولا عودة لهم إليها .

أى : ثم لا يؤذن لهم فى الكلام، بعد أن ثبت بطلانه، وقامت عليهم الحجه والتعبير بثم للاشعار بأن مصيبتهم بسبب عدم قبول أعذارهم، أشد من مصيبتهم بسبب شهادة الأنبياء عليهم ..

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى « ثم » هذه ؟

قلت : معناها أنهم يبتلون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها، وهو أنهم يمنعون الكلام، فلا يؤذن لهم فى إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة[٣]

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٢٤٢
(٢) سورة المرسلات الآيتان ٣٦ ، ٣٧
(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٦

وقوله ـ سبحانه ـ « ولا هم يستعتبون » تيئيس آخر لهم فى الحصول على شيء من رحمة الله ـ تعالى ـ

أى : لا يؤذن لهم فى الاعتذار ، ولا يقبل منهم أن يزيلوا عتب ربهم ، أى : غضبه وسخطه عليهم ، لأن العتاب إنما يطلب لأجل معاودة الرضا من للعاتب ، وهؤلاء قد انسد عليهم هذا الطريق ، لأن الله ـ تعالى ـ قد سخط عليهم سخطا لا مجال لإزالته ، بعد أن أصروا على كفرهم فى الدنيا وماتوا على ذلك.

قال القرطبي : قوله « ولا هم يستعتبون » أى لا يكلفون أن يرضوا ربهم لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون .

وأصل الكلمة من العتب ـ بفتح العين وسكون التاء ـ وهى الموجدة. يقال: عتَب عليه يعتِب،إذا وجد عليه، فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه، قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب . والاسم العتبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب .

قال النابغة :

فإن كنتُ مظلوما فعبدا ظلمتَه ... وإن كنتَ ذا عُتبَى فمثلك يُعتِب[1]

وبذلك نرى الآية الكريمة قد نفت عن الذين كفروا قبول أعذارهم ، وقبول محاولتهم ارضاء ربهم عما كانوا عليه من كفر وزيغ فى الدنيا .

ثم نفى ـ سبحانه ـ عنهم ـ أيضا ـ تخفيف العذاب أو تأخيره فقال: «وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون» .

أى : وإذا أبصر الذين ظلموا العذاب الذى أعد لهم فى الآخرة بسبب ظلمهم وكفرهم فى الدنيا ، فزعوا وخافوا ، ولكن خوفهم وفزعهم لن يغير

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٣ .

من الأمر شيئا ، إذ لا يخفف عنهم العذاب بسبب خوفهم أو فزعهم ، ولاهم يمهلون أو يؤخرون عنه .

وعلق — سبحانه — الرؤية بالعذاب ، للاشعار بأن فجيعتهم الكبرى كانت عند إبصاره ومشاهدته .

ثم حكى — سبحانه — بعض مايدور بينهم وبين معبوداتهم الباطلة يوم القيامة ، فقال — تعالى — : « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ، قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك .... » .

قال القرطبي : قوله — تعالى — « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم » أى : أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها ، وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يوردوهم النار . وفى صحيح مسلم : « من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ... »(١)

وقال الآلوسى : والمراد بشركائهم : كل من اتخذوه شريكا له — عز وجل — من صنم ، ووثن ، وشيطان ، وآدمى ، وملك ... وإضافتهم إلى ضمير المشركين لهذا الاتخاذ — أى لاتخاذهم إياهم شركاء لله فى العبادة — أو لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم وأنعامهم .. »(٢)

أى : وإذا أبصر المشركون يوم القيامة شركاءهم الذين أشركوهم مع الله — تعالى — فى العبادة ، « قالوا » أى المشركون على سبيل التحسر والتفجع ياربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا فى الدنيا نعبدهم من دونك ، ونتقرب بهم إليك ، فلا تجعل ياربنا العذاب علينا وحدنا بل خففه أو ارفعه عنا فهؤلاء الشركاء هم الذين أضلونا .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٣ .
(٢) تفسير الآلوسى ح ١٤ ص ٢٠٨ — بتصرف وتلخيص — .

قال أبو مسلم : ومقصود المشركين بهذا القول . إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللا بذلك واسترواحا ، مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لامحاله ، ولكن الغريق يتعلق بكل ماتقع يده عليه »(١) .

وقوله - تعالى - : « فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون » حكاية لما رد به الشركاء على المشركين .

أي : فرد أولئك الشركاء من الأصنام وغيرها على المشركين بقولهم : إنكم لكاذبون - أيها المشركون - في إحالتكم الذنب علينا ، فإننا مادعوناكم لعبادتنا ، ولا أجبرناكم على الإشراك بالله - تعالى - ، ولكنكم أنتم الذين اخترتم هذا الطريق المعوج، تقليدا لآبائكم، واستجابة لأهوائكم وشهواتكم، وإيثارا للباطل على الحق ومارد به الشركاء على المشركين هنا . قد جاء مايشبهه في آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا »(٢) .

وقوله - تعالى - : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم : وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ... »(٣) .

قال القرطبي : وقوله - تعالى - « فألقوا إليهم القول ... » أي : ألقت إليهم الآلهة القول ، أي : نطقت بتكذيب من عبدها . بأنها لم تكن آلهة ، ولا أمرتهم بعبادتها ، فينطق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار »(٤) .

---

(١) تفسير فتح البيان حـ ٥ ص ٢٨٤ للشيخ صديق حسن خان .
(٢) سورة مريم الآيتان ٨٣ ، ٨٤ .
(٣) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .
(٤) تفسير القرطبي حـ ١٠ ص ١٦٣ .

وقال الجمل : فإن قلت : كيف أثبت للأصنام نطقا هنا ، ونفاه عنها فى قوله - تعالى - فى سورة الكهف : « ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ... »

فالجواب : أن المثبت لهم هنا النطق بتكذيب المشركين فى دعوى عبادتهم لها ، والمنفى عنهم فى الكهف النطق بالإجابة إلى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تنافى »(١) .

والتعبير بقوله - تعالى - « فألقوا إليهم القول ... » يشعر بأن الشركاء قد ردوا على المشركين قولهم بسرعة وبدون إبطاء . حيث أتى - سبحانه - بالفاء فى قوله « فألقوا » ، واشتملت جملة « إنكم لكاذبون » على جملة من المؤكدات ، لإلجام المشركين ، وتكذيبهم فى قولهم تكذيبا قاطعا لا يحتمل التأويل .

ولذا وجدنا المشركين يعجزون عن الرد على شركائهم ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : « وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

أى : وألقى المشركون يوم القيامة « السلم » أى : الاستسلام والخضوع والانقياد ، لقضاء الله - تعالى - العادل فيهم ، وغاب وذهب عنهم ما كانوا يفترونه ويزعمونه فى الدنيا من أن آلهتهم ستشفع لهم ، أو ستنفعهم يوم القيامة .

وقيل : إن الضمير فى قوله - تعالى : « وألقوا » يعود على المشركين وشركائهم . أى . استسلم العابدون والمعبودون وانقادوا لحكم الله الواحد القهار فيهم .

ثم بين - سبحانه - مصير الذين لم يكتفوا بالكفر . بل ضموا إليه رذائل

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٩٢ .

أخرى فقال ـ تعالى ـ : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون » أى : الذين لم يكتفوا بكفرهم ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم « صدوا » غيرهم ومنعوه « عن سبيل الله » أى : عن اتباع الصراط المستقيم ، والطريق القويم وهو طريق الإسلام ..

هؤلاء الأشقياء الذين فعلوا ذلك : « زدناهم عذابا » شديدا « فوق العذاب » الذى يستحقونه « بما كانوا يفسدون » : أى : بسبب فسادهم فى الأرض وكفرهم بالحق ، وصدهم الناس عن اتباعه .

وهذه الزيادة فى عذابهم ، وردت آثار عن بعض الصحابة فى بيانها ، ومن ذلك ماروى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ينهشونهم فى جهنم »[1] .

قال ابن كثير : وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم »[2] .

ثم أكد ـ سبحانه ـ أمر البعث ، وأنه آت لاريب فيه ، فقال ـ تعالى ـ : « ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم ... »

والمراد بالشهيد هنا : كل نبى بعثه الله ـ تعالى ـ لأمة من الأمم السابقة كنوح ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء السابقين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

والظرف « يوم » متعلق بمحذوف تقديره : اذكر .

والمعنى : واذكر ـ أيها العاقل لتتعظ وتعتبر ـ يوم القيامة ، يوم نبعث فى كل أمة من الأمم السابقة ، نبيها الذى أرسل إليها فى الدنيا ، ليشهد عليها الشهادة الحق ، بأن يشهد لمؤمنها بالإيمان ، ولكافرها بالكفر .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ١٠٧

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨١ .

وقوله - سبحانه - « من أنفسهم » أى : من جنسهم وبيئتهم ، ليكون أتم للحجة ، وأقطع للمعذرة ، وأدعى إلى العدالة والإنصاف .

قال الآلوسى : ولا يرد لوط - عليه السلام - فإنه لما تأهل فيهم وسكن معهم عد منهم - أيضا - .

وقال ابن عطيه : يجوز أن يبعث الله شهداء من الصالحين مع الأنبياء - عليهم السلام - .

وقد قال بعض الصحابة : إذا رأيت أحدا على معصية فانهه فإن أطاعك وإلا كنت شهيدا عليه يوم القيامة »(١) .

وقوله - سبحانه - « وجئنا بك شهيدا على هؤلاء » خطاب للنبى - صلى الله عليه وسلم - على التشريف والتكريم .

والمراد بهؤلاء : أمته - صلى الله عليه وسلم - .

أى : وجئنا بك - أيها الرسول الكريم - يوم القيامة شهيدا على هؤلاء الذين أرسلك الله - تعالى - لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وإيثار لفظ المجىء على البعث ، لكمال العناية بشأنه - صلى الله عليه وسلم - .

قال ابن كثير قوله « وجئنا بك شهيدا على هؤلاء » يعنى أمتك . أى اذكر ذلك اليوم وهوله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم ، والمقام الرفيع . وهذه الآية شبيهة بالآية التى أنتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صدر سورة النساء ، فلما وصل إلى قوله - تعالى - « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « حسبك » . فقال ابن مسعود : فالتفت فإذا عيناه - صلى الله عليه وسلم - تذرفان - أى بالدموع - ... »(٢) .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٢١٢

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٢

والمراد بشهادته على أمته - صلى الله عليه وسلم - : تصريحه بأنه قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح لأمته، وتزكيته لأعمال الصالحين منها، ورجاؤه من الله - تعالى - في هذا اليوم العصيب أن يغفر للعصاة من هذه الأمة.

ويرى بعضهم أن المراد بهؤلاء في قوله «وجئنا بك شهيدا على هؤلاء»: أي: على الأنبياء السابقين وأممهم.

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة، ولأن آية سورة النساء «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد» تؤيده.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان ما نزله عليه من وحي فيه الشفاء للصدور، والموعظة للنفوس فقال - تعالى - : «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين».

والتبيان: مصدر يدل على التكثير. قالوا: ولم يجيء من المصادر على هذه الزنة إلا لفظان لفظ التبيان، ولفظ التلقاء.

أي: «ونزلنا عليك» - أيها الرسول الكريم - «الكتاب» الكامل الجامع وهو القرآن الكريم «تبيانا».

أي: بيانا بليغا شاملا «لكل شيء» على سبيل الإجمال تارة، وعلى سبيل التفصيل تارة أخرى.

وقوله «وهدى ورحمة وبشرى المؤمنين» صفات أخرى للكتاب.

أي: أنزلنا عليك القرآن ليكون تبيانا لكل شيء، وليكون هداية للناس إلى طريق الحق والخير، ورحمة لهم من العذاب، وبشارة لمن أسلموا وجوههم لله - تعالى - وأحسنوا القول والعمل، لا لغيرهم ممن آثروا الكفر على الإيمان، والغي على الرشد.

قال الجمل ماملخصه : وقوله : « تبيانا لكل شيء » أى بيانا بليغا ، فالتبيان أخص من مطلق البيان على القاعدة أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى .

وهذا التبيان إما فى نفس الكتاب ، أو بإحالته على السنة لقوله - تعالى - « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، أو بإحالته على الإجماع كما قال - تعالى - « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى . . . » أو على القياس كما قال : فاعتبروا ياأولى الأبصار ، والاعتبار النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس .

فهذه أربعة طرق لايخرج شيء من أحكام الشريعة عنها ، وكلها مذكورة فى القرآن ، فكان تبيانا لكل شيء ، فاندفع ماقيل : كيف قال الله - تعالى - « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » ونحن نجد كثيرا من أحكام الشريعة لم يعلم من القرآن نصا ، كعدد ركعات الصلاة، ومقدار حد الشرب، ونصاب السرقة وغير ذلك ... »(١) .

° ° °

وبعد أن مدح — سبحانه — القرآن الكريم ، بأن فيه تبيان كل شيء ، وأنه هداية ورحمة وبشرى للمسلمين ، أتبع ذلك بآيات كريمة أمرت المسلمين بأمهات الفضائل ، وبجمال مكارم الأخلاق ، ونهتهم عن الفواحش والرذائل لتكون كالدليل على مافى هـــذا الكتاب من تبيان وهدى ورحمة فقال - تعـــالى - :

« إِنَّ اللَّهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِى القُربَى ، وَيَنْهى عن الفحشاء والمنكرِ والبَغْيِ يعِظُكم لعلكم تذكَّرونَ (٩٠) وأوفُوا بعهدِ

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٩٣

اللهِ إذَا عاهَدْتُم ، ولا تنقضُوا الأيمَانَ بعد توكيدِهَا ، وقد جعلتم اللهَ عليكُم كفيلاً ، إنَّ اللهَ يعلَمُ ما تفعلُونَ (٩١) ولا تكونُوا كالتى نقَضَتْ غزْلَها مِنْ بَعْدِ قوةٍ أنْكاثاً ، تتخِذُونَ أيمَانَكُم دَخَلاً بينكم، أن تكونَ أمةٌ هى أرْبَى مِنْ أمةٍ ، إنما يبلُوكُم اللهُ به ، وليُبَيِّننَّ لكم يومَ القيامةِ ما كنْتُم فيه تخْتلِفونَ (٩٢) ولو شاءَ اللهُ لجعَلكُم أمَّةً واحدةً ، ولكِنْ يُضِلُّ مَنْ يشاء ويهْدِى مَنْ يشاء ، ولتُسألُنَّ عما كنتُم تعملُونَ (٩٣) » .

قال القرطبي ماملخصه : قوله ـ تعالى ـ : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان أختلف العلماء فى تأويل العدل والإحسان ، فقال ابن عباس : العدل : لا إله إلا الله ، والإحسان : أداء الفرائض . وقيل العدل : الفرض . والإحسان : النافلة ، وقال على بن أبى طالب : العدل : الإنصاف . والإحسان : التفضل .

وقال ابن العربى : العدل بين العبد وربه : إيثار حقه ـ تعالى ـ على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر . واما العدل بينه وبين نفسه فمنعه مافيه هلاكها . . . وأما العدل بينه وبين غيره فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قل أو كثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه . . .

وأما الإحسان فهو مصدر أحسن يحسن إحسانا . ويقال على معنيين : أحدهما : متعد بنفسه ، كقولك : أحسنت كذا ،أى : حسنته وأتقنته وكملته، وهو منقول بالهمزة من حسن الشىء. وثانيهما : متعد بحرف جر ، كقولك: أحسنت إلى فلان ، أى : أوصلت إليه ماينتفع به . وهو فى هذه الآية مراد بالمعنيين معا ...»[1]

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٦٦ .

ومن هذا الكلام الذى نقلناه بشىء من التلخيص عن الإمام القرطبى ، يتبين لنا أن العدل هو أن يلتزم الإنسان جانب الحق والقسط فى كل أقواله وأعماله ، وأن الإحسان يشمل إحسان الشىء فى ذاته سواء أكان هذا الشىء يتعلق بالعقائد أم بالعبادات أم بغيرهما ، كما يشمل إحسان المسلم إلى غيره ،

فالإحسان أوسع مدلولا من العدل ؛ لأنه إذا كان العدل معناه: أن تعطى كل ذى حق حقه ، بدون افراط أو تفريط ، فإن الإحسان يندرج تحته أن تضيف إلى ذلك العفو عمن أساء إليك ، والصلة لمن قطعك ، والعطاء لمن حرمك . . .

وإيثار صيغة المضارع فى قـــوله « إن الله يأمر ... » لإفادة التجدد والاستمرار . ولم يذكر ـ سبحانه ـ متعلقات العدل والإحسان ليعم الأمر جميع مايعدل فيه ، وجميع مايجب إحسانه وإتقانه من أقوال وأعمال ، وجميع ماينبغى أن تحسن إليه من إنسان أو حيوان أو غيرهما .

وقوله ـ تعالى ـ « وإيتاء ذى القربى » فضيلة ثالثة معطوفة على ماقبلها من عطف الخاص على العام ؛ إذ هى مندرجة فى العدل والإحسان .

وخصها ـ سبحانه ـ بالذكر اهتماما بأمرها ، وتنويها بشأنها ، وتعظيما لقدرها .

والإيتاء : مصدر بمعنى الإعطاء ، وهو هنا مصدر مضاف لمفعوله .

والمعنى : إن الله ـ تعالى ـ يأمركم ـ أيها المسلمون ـ أمرا دائما وواجبا ، أن تلتزموا الحق والإنصاف ، فى كل أقوالكم وأفعالكم وأحكامكم ، وأن تلتزموا التسامح والعفو والمراقبة لله ـ تعالى ـ فى كل أحوالكم .

كما يأمركم أن تقدموا لأقاربكم على سبيل المعاونة والمساعدة ، ما تستطيعون تقديمه لهم من خير وبر ..

لأن هذه الفضائل متى سرت بينكم ، نلتم السعادة فى دينكم ودنياكم ،

إذ بالعدل ينال كل صاحب حق حقه ، وبالإحسان يكون التحاب والتواد والتراحم ، وبصلة الأقارب يكون التكافل والتعاون ...

وبعد أن أمر ـ سبحانه ـ بأمهات الفضائل ، نهى عن رءوس الرذائل فقال ـ تعالى ـ : « وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ... »

والفحشاء : كل ما اشتد قبحه من قول أو فعل . وخصها بعضهم بالزنا .

والمنكر : كل ما أنكره الشرع بالنهى عنه، فيعم جميع المعاصى والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها .

والبغى : هو تجاوز الحد فى كل شىء يقال : بغى فلان على غيره ، إذا ظلمه وتطاول عليه .

وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد ...

أى : كما أمركم ـ سبحانه ـ بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، فإنه ـ تعالى ـ ينهاكم عن كل قبيح وعن كل منكر ، وعن كل تجاوز لما شرعه الله ـ عز وجل ـ .

وذلك لأن هذه الرذائل ماشاعت فى أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا ، وأمرها فرطا ، والفطرة البشرية النقية تأبى الوقوع أو الاقتراب من هذه الرذائل ، لأنها تتنافى مع العقول السليمة ، ومع الطباع القويمة .

ومهما روج الذين لم ينبتوا نباتا حسنا لتلك الرذائل ، فإن النفوس الطاهرة ، تلفظها بعيدا عنها ، كما يلفظ الجسم الأشياء الغريبة التى تصل إليه .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : « يعظكم لعلكم تذكرون » أى : ينبهكم ـ سبحانه ـ أكمل تنبيه وأحكمه إلى ما يصلحكم عن طريق اتباع ما أمركم به وما نهاكم عنه ، لعلكم بذلك تحسنون التذكر لما ينفعكم، وتعملون بمقتضى ما علمكم ـ سبحانه ـ .

هذا ، وقد ذكر المفسرون فى فضل هذه الآية كثيرا من الآثار والأقوال،

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة ... قال : بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى - صلى الله عليه وسلم - فأراد أن يأتيه ، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا له : أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه . قال : فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه . فانتدب رجلان فأتيا النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالا له : نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « أما أنا فمحمد بن عبد الله . وأما ما أنا ، فأنا عبد الله ورسوله » .

ثم تلا عليهم هذه الآية : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ... » الآية .

فقالوا : ردد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا له : أبى أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب .. وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الأمر رءوسا ، ولا تكونوا فيه أذنابا »(١) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أعظم آية فى كتاب الله « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ... »

وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشر : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. » وأكثر آية فى كتاب الله تفويضا « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ... »

وأشد آية فى كتاب الله رجاء : « ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ... »(٢)

ثم أمرهم - سبحانه - بالوفاء بالعهود فقال : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم .. » والعهد : ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ، كاليمين والوصية وما يشبههما .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٣ .

(٢) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٢٨٩ .

وعهد الله : أوامره ونواهيه وتكاليفه الشرعية التى كلف الناس بها ، والوفاء بعهد الله ـ تعالى ـ يتأتى بتنفيـــذ أوامره وتكاليفه ، وإجتناب مانهى عنه .

قال القرطبى : قوله ـ تعالى ـ : « وأوفوا بعهد الله .... » لفظ عام لجميع مايعقد باللسان ، ويلتزمه الإنسان من بيع أوصلة ، أو موائقة فى أمر موافق للديانة .

وهذه الآية مضمن قوله ـ تعالى ـ « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ..» لأن المعنى فيها : افعلوا كذا ، وانتهوا عن كذا ، فعطف على ذلك التقدير .
وقد قيل إنها نزلت فى بيعه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الإسلام .
وقيل : نزلت فى التزام الحلف الذى كان فى الجاهلية ، وجاء الإسلام بالوفاء به ـ كحلف الفضول ـ .
والعموم يتناول كل ذلك ... »[١]
والمعنى . إن الله يأمركم ـ أيها المسلمون ـ بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى . ويأمركم ـ أيضا ـ بالوفاء بالعهود التى التزمتم بها مع الله ـ تعالى ـ أو مع الناس ..
وخص ـ سبحانه ـ الأمر بالوفاء بالعهد بالذكر ـ مع أنه داخل فى المأمورات التى اشتملت عليهـا الآية السابقة كما أشار إلى ذلك القرطبى فى كلامه السابق ـ لأن الوفاء بالعهود من آكد الحقوق وأوجبها على الإنسان.

والآيات التى وردت فى وجوب الوفاء بالعهود كثيرة ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا »[٢] .
وقوله ـ تعالى ـ . « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون »[٣]

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٦٩ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٣٤ .
(٣) سورة البقرة الآية ٤٠ .

ومن الأحاديث التي وردت في ذلك مارواه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال: آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان »[1] .

وقوله — سبحانه — : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها . . . » تأكيد للأمر بالوفاء ، وتحذير من الخيانة والغدر :

والنقض في اللغة : حقيقة في فسخ ماركب بفعل يعاكس للفعل الذي كان به التركيب . واستعمل هنا على سبيل المجاز في إبطال العهد .

والأيمان : جمع يمين . وتطلق بمعنى الحلف والقسم . وأصل ذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا توثيق عهودهم بالقسم يقسمونه ، ووضع كل واحد من المتعاهدين يمينه في يمين صاحبه .

أي : كونوا أوفياء بعهودكم ، ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، أي : بعد توثيقها وتغليظها عن طريق تكرارها بمرة ومرتين، أو عن طريق الإتيان فيها ببعض أسماء الله — تعالى — وصفاته .

وقوله — تعالى — « بعد توكيدها » للإشعار بأن نقض الأيمان وإن كان قبيحا في كل حالة ، فهو في حالة توكيد الأيمان وتغليظها أشد قبحا .

ولذا قال بعض العلماء : وهذا القيد لموافقة الواقع ، حيث كانوا يؤكدون أيمانهم في المعاهدة ، وحينئذ فلا مفهوم له ، فلا يختص النهي عن النقض بحالة التوكيد ، بل نقض اليمين منهي عنه مطلقا . أو يراد بالتوكيد القصد، ويكون احترازا عن لغو اليمين . وهي الصادرة عن غير قصد للحلف »[2]

وقال الإمام ابن كثير ماملخصه : ولا تعارض بين هذه الآية ، وبين قوله — صلى الله عليه وسلم — فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : « إني والله إن

---

(١) رياض الصالحين الإمام النووي ص ٣٠٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٢ ص ٥٩٤ .

شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها ، إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها . - وفى رواية - وكفرت عن يمينى ، لأن هذه الأيمان المراد بها فى الآية : « الداخلة فى العهود والمواثيق ، لا الأيمان التى هى واردة فى حث أو منع ... »(١)

والخلاصة ، أن الآية الكريمة تنهى المؤمن عن نقض الأيمان نهيا عاما ، إلا أن السنة النبوية الصحيحة قد خصصت هذا التعميم بإباحة نقض اليمين إذا كانت مانعة من فعل خير ، ويؤيد هذا التخصيص قوله - تعالى -: « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ... »(٢)

وجملة « وقد جعلتم الله عليكم كفيلا .. » حال من فاعل « تنقضوا » ، وهى مؤكدة لمضمون ماقبلها من وجوب الوفاء بالعهود ، والنهى عن نقضها .

والكفيل : من يكفل غيره ، أى : يضمنه فى أداء ماعليه .

أى : ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، والحال أنكم قد جعلتم الله - تعالى - ضامنا لكم فيما التزمتم به من عهود ، وشاهدا ورقيبا على أقوالكم .

فالجملة الكريمة تحذر المتعاهدين من النقض بعد أن جعلوا الله - تعالى - كفيلا عليهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بهذا التهديد الخفى فقال - تعالى - « إن الله يعلم ماتفعلون » .

أى : إن الله - تعالى - يعلم ماتفعلون من الوفاء او النقض ، وسيجازيكم بما تستحقون من خير أو شر ، فالمراد من العلم لازمه ، وهو المجازاة على الأعمال .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٣ .

(٢) راجع تفسير هذه الآية فى تفسيرنا لسورة البقرة ص ٦٥٨ .

ثم ضرب ـ سبحانه ـ مثلا لتقبيح نقض العهـــد ، فقال ـ تعالى ـ : ولا تـكونوا كالتى نقضت غزلها من قوة أنـكاثا » .

وقوله : « غزلها » أى : مغزولها ، فهو مصدر بمعنى المفعول . والفعل منه غزل يغزل ـ بكسر الزاى ـ من باب ضرب . يقال غزلت المرأة الصوف أو القطن غزلا .

والجار والمجرور فى قوله « من بعد قوة » متعلق بالفعل « نقضت » أى : نقضته وأفسدته من بعد إبرامه وإحكامه .

و « أنـكاثا » حال مؤكدة من « غزلها » ، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، بتضمين الفعل نقضت معنى صيرت أو جعلت .

والأنـكاث : جمع نـكث ـ بكسر النون ـ ، بمعنى منكوث أى منقوض . وهو ما نقض وحل فتله ليغزل ثانيا ، والجمع أنـكاث كحمل وأحمال .

يقال : نـكث الرجل العهد نـكثا ـ من باب قتل ـ إذا انقضه ونبذه، ومنه قوله ـ تعالى ـ « ومن نـكث فإنما ينـكث على نفسه » .

قال ابن كثير : هذه امرأة خرقاء كانت بمـكة ، كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه .

وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده . وهذا أرجح وأظهر سواء أكان بمـكة امرأة تنقض غزلها أم لا »(١)

والمعنى : كونوا ـ أيها المسلمون ـ أوفياء بعهودكم ، ولا تنقضوها بعد إبرامها ، فإنـكم إن نقضتموها كان مثلـكم كمثل تلك المرأة الحمقاء ، التى كانت تفتل غزلها فتلا محـكما ، ثم تنقضه بعد ذلك ، وتتركه مرة أخرى قطعـــا منـكوثة محلوله . .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ صـ٥٨٤ .

فالجملة الكريمة تحقر فى كل جزئية من جزئياتها ، حال من ينقض العهد ، وتشبهه على سبيل التنفير والتقبيح بحال امرأة ملتاثة فى عقلها ، مضطربة فى تصرفاتها ....

وقوله - سبحانه - « تتخذون أيمانكم دخلا بينكم . أن تكون أمة هى أربى من أمة ... »

إبطال للأسباب التى كان يتخذها بعض الناس ذرائع ومبررات لنقض العهود .

والدخل - بفتح الخاء - : المكر والغش والخديعة . وهو فى الأصل اسم للشىء الذى يدخل فى غيره وليس منه ... »

قال الراغب : والدخل كناية عن الفساد والعداوة المستبطنة ، كالدغل ، وعن الدعوة فى النسب ... ومنه قيل : شجرة مدخولة - أى ليست من جنس الأشجار التى حولها »(١) وقوله « أن تكون أمة ... » متعلق بتتخذون .

وقوله « أربى » مأخوذ من الربو بمعنى الزيادة والكثرة . يقال : ربى الشىء يربو إذا زاد وكثر .

والمعنى : لاتكونوا مشبهين لامرأة هذا شأنها ، حالة كونكم متخذين أيمانكم وأقسامكم وسيلة للغدر والخيانة ، من أجل أن هناك ، جماعة أوفر عددا وأكثر مالا من جماعة أخرى .

قال القرطبى : قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة أخرى كبيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ، ورجعت إلى هذه الكبرى ، فقال - تعالى - : لاتنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى ، أو أكثر أموالا ...

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ١٦٦

وقال الفراء : المعنى : لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم ، أو لقلتكم وكثرتهم وقد عززتموهم بالإيمان »[1]

وقال ابن كثير : قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك »[2] .

والخلاصة ، أن الآية الكريمة تدعو إلى وجوب الوفاء بالعهود فى جميع الأحوال ، وتنهى عن اللجوء إلى الذرائع الباطلة ، من أجل نقض العهود ، إذ الإسلام لا يقر هذه الذرائع وتلك المبررات ، بدعوى أن هناك جماعة أقوى من جماعة ، أو دولة أعز من دولة ، وإنما الذى يقره الإسلام هو مراعاة الوفاء بالعهود ، وعدم اتخاذ الإيمان وسيلة للغش والخداع .

والضمير المجرور فى قوله « إنما يبلوكم الله به » يعود على مضمون الجملة المتقدمة وهى قوله ـ تعالى ـ « أن تكون أمة هى أربى من أمة »

أى : إنما يبلوكم الله ويختبركم بكون أمة أربى من أمة ، لينظر أتفون بعهودكم أم لا . وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : « إنما يبلوكم الله به » الضمير لقوله : « أن تكون أمة ... » لأنه فى معنى المصدر . أى : إنما يختبركم بكونهم أربى ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله ، وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم ، وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم »[3] .

ويجوز أن يعود إلى ما أمر الله به من الوفاء بالعهد ، فيكون المعنى :

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٠ صـ١٧١ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ صـ ٥٨٤ .
(٣) تفسير الكشاف جـ٢ صـ ٦٢١ .

إنما يبلوكم الله ويختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهود ، ومن النهى عن النقض ليظهر لكم المطيع من العاصى ، وقوى الإيمان من ضعيفه .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أن مرد الفصل بين العباد فيما اختلفوا فيه إليه - تعالى - وحده ، فقال : « وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » فيجازى أهل الحق بما يستحقون من ثواب ، ويجازى أهل الباطل بما هم أهله من عقاب .

ثم بين - سبحانه - أن قدرته لا يعجزها شيء ، فقال - تعالى - «ولو شاء الله لجعلكم » أيها الناس « أمة واحدة » متفقة على الحق « ولكن » لحكم يعلمها ولا تعلمونها ، ولسنن وضعها فى خلقه « يضل من يشاء » إضلاله لاستحبابه العمى على الهدى ، ولإيثاره الغى على الرشد « ويهدى من يشاء » هدايته لحسن استعداده ، وسلامة اختياره ، ونهيه النفس عن الهوى .

« ولتسألن » أيها الناس يوم القيامة سؤال محاسبة ومجازاة « عما كنتم تعملون » فى الدنيا ، فيثيب الطائعين بفضله ، ويعاقب العصاة بعدله .

وبعد أن أمر - سبحانه - بالوفاء بالعهود ونهى عن نقضها بصفة عامة ، أتبع ذلك النهى عن الحنث فى الإيمان بصفة خاصة ، فقال - تعالى - :

« ولا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُم دَخَلاً بينكم ، فَتَزِلَّ قَدَمٌ بعدَ ثُبوتِها ، وتذُوقُوا السُّوءَ بما صَدَدْتُم عن سبيلِ اللهِ ولكُم عذابٌ عظيمٌ (٩٤) ولا تشتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثمناً قليلاً ، إنَّما عِندَ اللهِ هو خيرٌ لكُم إن كنتُم تعلَمُون (٩٥) ما عِندَكُم يَنفَدُ وما عِندَ اللهِ باقٍ ، ولنجزِيَنَّ الذينَ صَبرُوا أجرَهم بأحسَنِ ما كانُوا يعمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صالِحًا مِنْ ذكَرٍ أو أُنثَى وهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيِّبةً ، ولَنَجزِيَنَّهم أجرَهم بأحْسَنِ ما كانُوا يعمَلُون (٩٧) » .

فقوله - سبحانه - « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم » تصريح بالنهى

عن اتخاذ الأيمان من أجل الغش والخديعة ، بعد النهى عن نقض العهود بصفة عامة .

أى : ولا تتخذوا - أيها المؤمنون - الحلف بالله - تعالى - ذريعة إلى غش الناس وخداعهم واستلاب حقوقهم ، فقد جرت عادة الناس أن يطمئنوا إلى صدق من يقسم بالله - تعالى - ، فلا تجعلوا هذا الاطمئنان وسيلة للكذب عليهم ، ولإفساد مابينكم وبينهم من مودة .

ثم رتب - سبحانه - على هذا النهى مامن شأنه أن يردع النفوس عن اتخاذ الأيمان دخلا فقال : « فتزل قدم بعد ثبوتها » وأصل الزلل الخروج عن الطريق السليم . يقال : زل فلان يزل زللا وزلولا ، إذا دحضت قدمه ولم تصب موضعها الصحيح أى : لاتتخذوا أيمانكم وسيلة للخديعة والإفساد بين الناس ، فتزل أقدامكم عن طريق الإسلام بعد ثبوتها عليها ، ورسوخها فيها ، قالوا : والجملة الكريمة مثل يضرب لكل من وقع فى بلية ومحنة ، بعد أن كان فى عافية ونعمة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وحدت القدم ونكرت ؟ قلت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق . بعد أن ثبتت عليه ، فكيف بأقدام كثيرة[1] ؟

وقوله « وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله » بيان لما يصيبهم من عذاب دنيوى بسبب اتخاذ أيمانهم دخلا بينهم .

أى : وتذوقوا السوء وهو العذاب الدنيوى من المصائب والخوف والجوع ، بسبب صدوركم وإعراضكم عن أوامر الله ونواهيه ، أو بسبب صدكم لغيركم عن الدخول فى دين الله ، حيث رأى منكم مايجعله ينفر منكم ومن دينكم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ صـ ٤٢٧

والتعبير بتذوقوا فيه إشارة إلى أن العذاب الدنيوى الذى سينزل بهم بسبب اتخاذهم أيمانهم دخلا بينهم ، سيكون عـــذابا شديدا يحسون آلامه إحساسا واضحا ، كما يحس الشارب للشىء المر مرارته ، ويتذوق آلامه .

قال ابن كثير : حذر الله ـ تعالى ـ عباده عن اتخاذ الأيمان دخلا ، أى : خديعة ومكرا ، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها ، مثل لمن كان على الاستقامة وحاد عنها ، وزل عن طريق الهدى ، بسبب الأيمان الحانثة ، المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول فى الإسلام(١) .

وقوله « ولكم عذاب عظيم » بيان لما يصيبهم من عذاب أخروى بسبب اتخاذهم أيمانهم دخلا .

أى : ولكم فى الآخرة عذاب عظيم ، لا يعلم مقدار شدته وهوله إلا الله ـ عز وجل ـ . فأنت ترى أن الآية الكريمة قد رتبت على اتخاذ الأيمان دخلا ، انقلاب حالة الإنسان من الخير إلى الشر ، ونزول العذاب الدنيوى والأخروى به .

ثم نهاهم ـ سبحانه ـ عن أن يبيعوا دينهم بدنياهم ، فقال ـ تعـــالى ـ : « ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا » .

والاشتراء هنا : استعارة للاستبدال ، والذى استبدل به الثمن القليل هو الوفاء بعهد الله .

والمراد بعهد الله ـ تعالى ـ : أوامره ونواهيه التى كلفنا بالتزامها والعمل بمقتضاها .

والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها وزينتها من الأموال وغيرها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٥٨٥

والمعنى : ولا تستبدلوا بأوامر الله ـ تعالى ـ ونواهيه ، عرضا قليلا من أعراض الدنيا الزائلة ، بأن تنقضوا عهودكم فى مقابل منفعة دنيوية زائلة .

وليس وصف الثمن بالقلة فى قوله « ثمنا قليلا » من الأوصاف المخصصة للنكرات ، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل فى مقابل عدم الوفاء بالعهد ، إذ لا يكون إلا قليلا وإن بلغ مابلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله ـ تعالى ـ .

ورحم الله الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : « ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا » أى : لاتعتاضوا عن الإيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ماعند الله هو خير له(١) .

ثم رغبهم ـ سبحانه ـ فيما عنده فقال : « إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون » .

أى : إن ما ادخره الله ـ تعالى ـ لكم من ثواب عظيم ، وأجر جزيل ، وحياة طيبة ، هو خـــير لكم من ذلك الثمن القليل الذى تتطلعون إليه ، وتنقضون العهود من أجله ، إن كنتم من أهل العلم والفطنة ، الذين يؤثرون الباقى على الفانى .

قال الآلوسى : قوله « إن كنتم تعلمون » أى : إن كنتم من أهل العلم والتمييز . فالفعل منزل منزلة اللازم . وقيل : متعد ، والمفعول محذوف ، وهو فضل مابين العوضين ، والأول أبلغ ومستغن عن التقدير »(٢) .

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى ترغيبهم فى العمل بما يرضيه ترغيبا آخر فقال: « ماعندكم ينفد وماعند الله باق » .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٥

(٢) تفسير الآلوسى ج ٤ ص ٢٢٤

أي : ماعندكم من متاع الدنيا وزهرتها يفنى وينقضى ويزول ، وماعند الله ـ تعالى ـ فى الآخرة من عطاء باق لايفنى ولا يزول ، فآثروا مايبقى على ماينفد يقال : نفد الشيء ـ بكسر الفاء ـ ينفد ـ بفتحها ـ نفادا ونفودا ، إذا ذهب وفنى .

ثم بشر ـ سبحانه ـ الصابرين على طاعته بأعظم البشارات فقال : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

أي : ولنجزين الذين صبروا على طاعتنا ، واجتنبوا معصيتنا ، ووفوا بعهودنا ، بجزاء أفضل وأكرم مما كانوا يعملونه فى الدنيا من خيرات وطاعات .

وأكد ـ سبحانه ـ هذه البشارة بلام القسم ، ونون التوكيد ، لترغيبهم فى الثبات على فضيلة الصبر ، وعلى الوفاء بالعهد .

قال الجمل ماملخصه : وقوله « أجرهم » مفعول ثان لنجزى . وقوله « بأحسن » نعت لمحذوف ، أي : بجزاء أحسن من عملهم الذى كانوا يعملونه فى الدنيا ، والباء بمعنى على[1] .

ثم بين ـ سبحانه ـ حسن عاقبة المؤمنين الذين يحرصون على العمل الصالح فقال ـ تعالى ـ : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

أي : من عمل عملا صالحا ، بأن يكون خالصا لوجه الله ـ تعالى ـ وموافقا لما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سواء أكان هذا العامل المؤمن ذكرا أو أنثى ، فلنحيينه حياة طيبة ، يظفر معها بصلاح البال ، وسعادة الحال .

وقال ـ سبحانه ـ « من ذكر أو أنثى » مع أن لفظ « من » فى قوله « من عمل » يتناول الذكور والإناث ، للتنصيص على النوعين ، حتى يكون أغبط لهما ، ولدفع ماقد يتوهم من أن الخطاب للذكور وحدهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ صـ ٥٩٦

ولذا قال صاحب الكشاف : فإن قلت « من » متناول فى نفسه للذكر والأنثى فما معنى تبيينه بهما ؟ قلت : هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين ، إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للذكور ، فقيل « من ذكر أو أنثى » على التبيين ليعم الموعد النوعين جميعا »[١] .

وقيد - سبحانه - العامل بكونه مؤمنا فقال : « وهو مؤمن » ، لبيان أن العمل لا يكون مقبولا عند الله - تعالى - إلا إذا كان مبنيا على العقيدة الصحيحة ، وكان صاحبه يدين بدين الإسلام ، وقد أوضح القرآن هذا المعنى فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

والمراد بالحياة الطيبة فى قوله - تعالى - : « فلنحيينه حياة طيبة » الحياة الدنيوية التى يحياها المؤمن إلى أن ينقضى أجله .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: هذا وعد من الله - تعالى - لمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى ، بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا .. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت . وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال . وعن على بن أبى طالب أنه فسرها بالقناعة .

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه[٢] .

وقيل المراد بالحياة الطيبة هنا : الحياة الأخروية ، وقد صدر الشيخ

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٢٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٥

الآلوسى تفسيره بهذا الرأى فقال ماملخصه : قوله ـ تعالى ـ « فلنحيينه حياة طيبة » والمراد بالحياة الطيبة التى تكون فى الجنة . إذ هناك حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم، وسعادة بلا شقاوة . . . فعن الحسن: لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة .

وقال شريك : هى حياة تكون فى البرزخ . . وقال غير واحد هى فى الدنيا »[1] .

ويبدو لنا أن تفسير الحياة الطيبة هنا بأنها الحياة الدنيوية أرجح ، لأن الحياة الأخروية جاء التصريح بها بعد ذلك فى قوله ـ تعالى ـ « ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

فلو فسرنا الحياة الطيبة بالحياة الأخروية لكان فى الآية الكريمة مايشبه التكرار ، ولكننا لو فسرناها بالحياة الدنيوية لكانت الآية الكريمة مبنية لجزاء المؤمنين فى الدارين .

وأيضا فإن قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ السابق : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا » يشير إلى أن المراد بالحياة الطيبة ، الحياة الدنيوية ، لأن من نال الفلاح نال حياة طيبة .

وعلى ذلك يكون المعنى الإجمالى للآية الكريمة : من عمل عملا صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة فى الدنيا ، يظفر معها بالسعادة وصلاح البال ، والأمان والاطمئنان ؛ أما فى الآخرة فسنجزيه جزاء أكرم وأفضل مما كان يعمله فى الدنيا من أعمال صالحة .

قال صاحب الكشاف قوله : « حياة طيبة » يعنى فى الدنيا ، وهو الظاهر لقوله « ولنجزينهم » وعدهم الله ثواب الدنيا والآخرة ، كقوله : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٥٨٥

وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرا كان أو معسرا ، يعيش عيشا
يا ، إن كان موسرا فلا مقال فيه ، وإن كان معسرا فمعه ما يطيب عيشه
و القناعة والرضا بقسمة الله .

وأما الفاجر فأمره على العكس . إن كان معسرا فلا إشكال فى أمره ،
ن كان موسرا . فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه[١] .

° ° °

ثم أشار - سبحانه - إلى أن من الأعمال الصالحة ، أن يستعيذ المسلم عند
اءته للقرآن الكريم ، من الشيطان الرجيم ، فقال - تعالى - :

« فإذَا قرأتَ القرآنَ ، فاستعِذْ باللهِ من الشيطانِ الرَّجيمِ (٩٨) إنَّه
سَ له سلطانٌ على الذينَ آمنُوا وعَلَى ربِّهم يتوكَّلُونَ (٩٩) إنَّما
طانُه على الذينَ يتولَّونَه والذينَ هُمْ بهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) » .

والمراد بقوله - تعالى - « فإذا قرأت القرآن ... » أى فإذا أردت قراءته .
لكلام على حذف الإرادة ، وذلك لأن المعنى الذى طلبت من أجله الاستعاذة
و دفع وسوسة الشيطان يقتضى أن يبدأ القارىء بها - أى بالاستعاذة -
، القراءة لا بعدها وشبيه بهذه الآية فى حذف الإرادة لدلالة المقام عليها
له - تعالى - « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم
، المرافق ... »[٢] أى : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا .

وقوله - تعالى - : « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون »[٣]
: أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٢٨
(٢) سورة المائدة الآية ٦ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٤ .

والمعنى : فإذا أردت ـ أيها المسلم ـ قراءة القرآن « فاستعذ بالله » : أى فاستجر بالله ؛ والتجىء إلى حماه « من الشيطان الرجيم » .

قال ابن كثير : والشيطان فى لغة العرب ، كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شىء ، وهو مشتق من شطن بمعنى بعد ، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر ، وبعيد بفسقه عن كل خير ... »[١] :

والرجيم بزنة فعيل بمعنى مفعول . أى : أنه مرجوم ومطرود من رحمة الله ـ تعالى ـ .

قال بعض العلماء : وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة ، مع أنه قد أمر بها على وجه العموم فى جميع الشئون ، لأن القرآن مصدر هداية والشيطان مصدر ضلال ، فهو يقف للانسان بالمرصاد فى هذا الشأن على وجه خاص ، فيثير أمامه ألوانا من الشكوك فيما يفيد من قراءته ، وفيما يقصد بها ، فيفوت عليه الانتفاع بهدى الله وآياته . فعلمنا الله ـ تعالى ـ أن نتقى ذلك كله بهذه الاستعاذة التى هى فى الواقع عنوان صادق ، وتعبير حق ، عن امتلاء قلب المؤمن بمعنى اللجوء إلى الله . وقوة عزيمته فى طرد الشيطان ووساوسه ، واستقبال هدايته بقلب طاهر ، وعقل واع وإيمان ثابت »[٢] .

وكيفية الاستعاذة أن يقول القارىء عند إرادة قراءته للقرآن ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ فقد تضافرت الروايات عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه الصيغة .

قال الآلوسى . وروى الثعلبى والواحدى أن ابن مسعود قرأ على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ،

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٤ .

(٢) تفسير القرآن الكريم ص ١٦ لفضيلة الإمام الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت .

فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : يابن أم عبد قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هكذا أقرأني جبريل ......[١] .

وقال صاحب تفسير آيات الأحكام : والأمر بها - أي بالاستعاذة - للندب عند الجمهور .

وعن الثوري أنها واجبة . وظاهر الآية يؤيده ، إذ الأمر للوجوب . والجمهور يقولون : صرفها عن الوجوب ما ورد من أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يعلمها للأعرابي - أي الذي سأله عن كيفية الصلاة - وأيضا فقد روى أنه كان - صلى الله عليه وسلم - يتركها .... »[٢] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن وسوسة الشيطان لا أثر لها على المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » أي إن الشيطان مهما تمرد وعتى « ليس له سلطان » أي : ليس له تسلط واستيلاء واستحواذ بالقهر والغلبة ، على نفوس الذين آمنوا بالله - تعالى - حق الإيمان والذين هم عليه - تعالى - وحده يتوكلون ويعتمدون لا على غيره .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى - « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » وقوله - تعالى - : إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا » .

وبعد أن نفى - سبحانه - أن يكون للشيطان سلطان على نفوس المؤمنين الصادقين ، أثبت - سبحانه - أن تسلط الشيطان إنما هو على نفوس الضالين، فقال - تعالى - إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون » .

---

(١) تفسير الآلوسي ج ١٤ ص ٢٢٨ .

(٢) تفسير آيات الأحكام ص ٥٢ ج ٣ . لفضيلة الشيخ محمد علي السايس - رحمه الله - .

أي : إنما تسلط الشيطان وتأثيره على الضالين الفاسقين الذين « يتولونه » أي : يتقربون منه ، ويجعلونه واليا عليهم ، فيحبونه ويطيعونه ويتبعون خطواته .

فقوله « يتولونه » من الولى - بفتح الواو وسكون اللام - بمعنى القرب والنصرة وقوله ، والذين هم به مشركون » أي : والذين هم بسبب الشيطان وإغوائه لهم ، مشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة .

فالضمير فى « به » يعود إلى الشيطان ، والباء للسببية .

ويرى بعضهم أن الضمير فى « به » يعود على الله - تعالى - ، وأن الباء للتعدية ، فيكون المعنى : إنما سلطان الشيطان على الذين يطيعونه ، والذين هم بالله - تعالى - مشركون .

قالوا ، والأول أرجح لاتحاد الضمائر فيه ، ولأنه هو المتبادر إلى الذهن .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، تأمر المؤمنين بأن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ، عند قراءتهم للقرآن الكريم ، كما نراها تبشرهم بأنه لا سلطان للشيطان عليهم ما داموا معتصمين بحبل الله - تعالى - ومنفذين لأوامره ، ومعتمدين عليه .

* * *

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض الأقاويل التى قالها المشركون عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وعن القرآن الكريم ، ورد عليها بما يخرس ألسنتهم فقال تعالى :

« وإِذَا بدَّلنَا آيةً مكانَ آيةٍ ، واللهُ أعلمُ بما يُنزِّلُ ، قالُوا إنَّما أنت مفترٍ ، بل أكثرهم لا يعلمُون (١٠١) قل نزَّلَه روحُ القدُسِ مِنْ ربِّكَ

بالْحقِّ ليثبِّتَ الذينَ آمنُوا ، وهُدًى وبُشْرَى للمُسْلِمينَ (١٠٢) ولقدْ نعلم أنهُم يقولُون إنمَا يعلِّمهُ بشَر ، لسانُ الذى يلحدُونَ إليه أعجمِيٌّ ، وهذا لسانٌ عَرَبِيٌّ مبينٌ (١٠٣) إنّ الذينَ لا يؤمِنُونَ بآياتِ اللّهِ لا يهديهُم اللّهُ ولهم عذابٌ أليمٌ (١٠٤) إنمَا يفتَرِي الكذبَ الذينَ لا يؤمِنُونَ بآياتِ اللّهِ وأُولئكَ هُم الكاذِبُونَ (١٠٥) » .

وقوله - تعالى - : « وإذا بدلنا آية مكان آية ... » التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه . فتبديل الآية رفعها بآية أخرى .

وجمهور المفسرين على أن المراد بالآية هنا : الآية القرآنية . وعلى أن المراد بتبديلها نسخها .

قال صاحب الكشاف : تبديل الآية مكان الآية هو النسخ ، والله - تعالى - ينسخ الشرائع بالشرائع ، لأنها مصالح ، وما كان مصلحة بالأمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة . والله - تعالى - عالم بالمصالح والمفاسد ، فيثبت مايشاء ، وينسخ ما يشاء بحكمته ... »[1] .

وقال الجمل : قوله - تعالى - « وإذا بدلنا آية مكان آية ... » وذلك أن المشركين من أهل مكة قالوا : إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - يسخر بأصحابه. يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ، ما هذا إلا مفترى يتقوله من تلقاء نفسه فأنزل الله - تعالى - : « وإذا بدلنا آية مكان آية ... » والمعنى : وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر »[2] .

وقال الآلوسى : قوله - تعالى - « وإذا بدلنا آية مكان آية » أى : وإذا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٨ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٩٨ .

نزلنا آية من القرآن مكان آية منه . وجعلنا بدلا منها بأن نسخناها بها ...»[١].

ومنهم من يرى أن المراد بالآية هنا « الآية الكونية » أى المعجزة التي أتى بها كل نبي لقومه وأن المراد بتبديلها : الإتيان بمعجزة أخرى سواها .

قال الشيخ القاسمي عند تفسيره لهذه الآية : وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين . كآية موسى وعيسى وغيرهما من الآيات الكونية الآفاقية ، بآية أخرى نفسية علمية ، وهي كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل ...

فبدلت تلك ـ وهى الآيات الكونية ـ بآية هو كتاب العلم والهدى من نبي أمي ـ صلى الله عليه وسلم ... »[٢]

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : « قل نزله روح القدس من ربك ... » يدل دلالة واضحة على أن المراد بالآية ، الآية القرآنية :

وقوله ـ سبحانه ـ « والله أعلم بما ينزل » جملة معترضة بين الشرط وجوابه للمسارعة إلى توبيخ المشركين وتجهيلهم .

أى : والله ـ تعالى ـ أعلم من كل مخلوق بما هو أصلح لعباده ، وبما ينزله من آيات ، وبما يغير ويبدل من أحكام ، فكل من الناسخ والمنسوخ منزل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة . « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

وقوله ـ تعالى ـ « قالوا إنما أنت مفتر » جواب الشرط ، وهو حكاية لما تفوهوا به من باطل وبهتان : وقوله « مفتر » من الافتراء وهو أشنع أنواع الكذب .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٢٣١ .

(٢) تفسير القاسمي ج ١٠ ص ٣٨٥٨

أى : قال المشركون للنبى - صلى الله عليه وسلم - عند تبديل آية مكان آية : إنما أنت يامحمد تختلق هذا القرآن من عند نفسك ، وتفتريه من إنشائك واختراعك . . .

وقوله - تعالى - « بل أكثرهم لايعلمون » تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم عما أصابه منهم .

أى : لاتهتم - أيها الرسول الكريم - بما قاله هؤلاء المشركون فى شأنك وفى شأن القرآن الكريم ، فإن أكثرهم جهلاء أغبياء ، لايعلمون فى تبديلنا للآيات من حكم ، ولا يفقهون من أمر الدين الحق شيئا .

وقال - سبحانه - « بل أكثرهم لايعلمون » للإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق وتدركه ، ولكنها تنكره عنادا وجحودا وحسدا للرسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ماآتاه الله من فضله .

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - الرد الذى يقذفه على باطلهم فيزهقه فقال :

« قل نزله روح القدس من ربك بالحق ، ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين » وروح القدس : هو جبريل - عليه السلام - ، والإضافة فيه إضافة الموصوف إلى الصفة .

أى : الروح المقدس . ووصف بالقدس لطهارته وبركته . وسمى روحا لمشابهته الروح الحقيقى فى أن كلا منهما مادة الحياة للبشر ، فجبريل من حيث مايحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب ، والروح تحيا به الأجسام .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين ، إن هذا القرآن الذى تزعمون أننى افتريته ، قد نزل به الروح الأمين على قلبى من عند ربى ، نزولا ملتبسا بالحق الذى لايحوم حوله باطل ، ليزيد المؤمنين ثباتا فى إيمانهم وليكون هداية وبشارة لكل من أسلم وجهه لله رب العالمين .

وفى قوله « من ربك » تكريم وتشريف للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث اختص ـ سبحانه ـ هذا النبى الكريم بإنزال القرآن عليه ، بعد أن رباه برعايته ، وتولاه بعنايته .

وقوله « بالحق » فى موضع الحال : نزله إنزالا ملتبسا بالحكمة المقتضية له ، بحيث لا يفارقها ولا تفارقه .

وقوله «ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين» بيان للوظيفة التى من أجلها نزل القرآن الكريم ، وهى وظيفة تسعد المؤمنين وحدهم، أما الكافرون فهم بعيدون عنها .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك مقولة أخرى من مقولات المشركين فقال ـ تعالى ـ : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ... »

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : يقول ـ تعالى ـ مخبرا عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء : إن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بياعا يبيع عند الصفا ، وربما كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء ، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف إلا اليسير من العربية ...

وعن عكرمة وقتادة كان اسم ذلك الرجل يعيش ... وعن ابن عباس كان اسمه بلعام ، وكان أعجمى اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام فأنزل الله هذه الآية »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٦ .

والمعنى : ولقد نعلم ـ أيها الرسول الكريم ـ علما مستمرا لا يغرب عنه شيء، ما يقوله المشركون فى شأنك ، من أنك تتعلم القرآن من واحد من البشر .

قال الآلوسى : وإنما لم يصرح القرآن باسم من زعموا أنه يعلمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أنه أدخل فى ظهور كذبهم ، للإيذان بأن مدار خطئهم ، ليس بنسبته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى التعلم من شخص معين ، بل من البشر كائنا من كان ، مع كونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ معدنا لعلوم الأولين والآخرين »[1] .

وقوله ـ تعالى ـ : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » رد عليهم فيما زعموه وافتروه .

والمراد باللسان هنا : الكلام الذى يتكلم به الشخص ، واللغة التى ينطق بها .

وقوله « يلحدون » من الإلحاد بمعنى الميل . يقال لحد وألحد ، إذا مال عن القصد ، وسمى الملحد بذلك ، لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها .

والأعجمى : نسبة إلى الأعجم ، وهو الذى لا يفصح فى كلامه سواء أكان من العرب أم من العجم . وزيدت فيه ياء النسب على سبيل التوكيد .

والمعنى : لقد كذبتم ـ أيها المشركون ـ كذبا شنيعا صريحا ، حيث زعمتم أن الرسول الله عليه وسلم ـ يعلمه القرآن بشر ، مع أن لغة هذا الإنسان الذى زعمتم أنه يعلم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لغة أعجمية ، ولغة هذا القرآن لغة عربية فى أعلى درجات البلاغة والفصاحة ، فقد أعجزكم بفصاحته وبلاغته ، وتحداكم وأنتم أهل اللسن والبيان أن تأتوا بسورة من مثله .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٣٢ .

نخبروني بربكم، من أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا التنزيل، وما حواه من العلوم، فضلا عن أن ينطق به، فضلا عن أن يكون معلما له !!

ثم هدد - سبحانه - المعرضين عن آياته بقوله: « إن الذين لا يؤمنون بآيات الله » الدالة على وحدانيته - سبحانه -، وعلى صدق نبيه - صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عنه.

« لا يهديهم الله » إلى طريق الحق في الدنيا، بسبب زيغهم وعنادهم وإيثارهم الغي على الرشد.

« ولهم » في الآخرة « عذاب أليم » جزاء إصرارهم على الباطل، وإعراضهم عن الآيات التي لو تأملوها واستجابوا لها لاهتدوا إلى الصراط المستقيم.

ثم بين - سبحانه - أن افتراء الكذب لا يصدر عن المؤمنين فضلا عن الرسول الأمين، وإنما يصدر عن الكافرين فقال - تعالى -: « إنما يفتري الكذب » أي يختلقه ويخترعه « الذين لا يؤمنون بآيات الله » الدالة على وحدانيته وعلى وجوب إخلاص العبادة له، وعلى صدق رسله، وعلى صحة البعث يوم القيامة، لأن عـــدم إيمانهم بذلك يجعلهم لا يخافون عقابا، ولا يرجون ثوابا.

« وأولئك » الكافرون بما يجب الإيمان به « هم الكاذبون » في قولهم عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - « إنما يعلمه بشر » وفي قولهم « إنما أنت مفتر » ، وفي غير ذلك من أقوالهم الباطلة، التي حاربوا بها دعوة الحق.

قال بعض العلماء: ولا يخفى ما في الحصر بعد القصر من العناية بمقامه - صلوات الله عليه -، وقد كان أصدق الناس وأبرهم ... بحيث كانوا يلقبونه بالصادق الأمين.

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان فقال له - من بين ما قال -:

هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قال : لا . فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله ـ تعالى ـ .

وفى هذه الآية دلالة على أن الكذب من أكبر الكبائر ، وأفحش الفواحش ، والدليل عليه أن كلمة « إنما » للحصر .

وروى أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا ثم قرأ هذه الآية[١] .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك حكم من أكره على النطق بكلمة الكفر ، وحكم من استحب الكفر على الإيمان فقال ـ تعالى ـ :

« مَنْ كفَر باللهِ مِنْ بعدِ إيمانِه ، إلاَّ من أُكْرِهَ وقلبُه مطمئنٌ بالإيمانِ ، ولكنْ مَنْ شرحَ بالكفرِ صدْرًا فعليهِمْ غضبٌ من اللهِ ولهُم عذابٌ عظيمٌ (١٠٦) ذلِكَ بأنَّهُم استحبُّوا الحياةَ الدُّنيا على الآخرةِ ، وأنَّ اللهَ لا يَهْدِي القومَ الكافرينَ (١٠٧) أولئكَ الذينَ طبَعَ اللهُ على قلوبِهم وسمعِهم وأبصارِهِم ، وأولئكَ هُمُ الغافِلونَ (١٠٨) لا جَرمَ أنهم فى الآخرةِ هم الخاسِرُون (١٠٩) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله ـ تعالى ـ : « من كفر بالله من بعد إيمانه ... » روايات منها قول الآلوسي : روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية ، على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ... ثم قتلوها وقتلوا ياسرا ، وهما أول شهيدين فى الإسلام . وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه . فقيل يارسول الله ، إن عمارا قد كفر . فقال

(١) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٦١ .

- صلى الله عليه وسلم - : كلا ، إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه .

فأتى عمار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يبكى ، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمسح عينيه وقال له : مالك ، إن عادوا فعدلهم بما قلت . وفى رواية أنه قال له : كيف تجد قلبك ؟ قال مطمئن بالإيمان قال - صلى الله عليه وسلم - إن عادوا فعد . فنزلت هذه الآية ...

ثم قال الآلوسى : والآية دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه ، وإن كان الأفضل أن يتجنب عن ذلك إعزازا للدين ولو تيقن القتل ، كما فعل ياسر وسمية ، وليس ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة ، بل هو كالقتل فى الغزو كما صرحوا به ...(١) .

و « من » فى قوله « من كفر بالله » مبتدأ أو شرطية ، والخبر أو جواب الشرط محذوف والتقدير : فعليه غضب من الله ، أو فله عذاب شديد ، ويدل عليهما قوله - تعالى - بعد ذلك : ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله .

والمعنى : من كفر بالله - تعالى - من بعد إيمانه بوحدانيته - سبحانه - وبصدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - فإنه بسبب هذا الكفر يكون قد ضل ضلالا بعيدا ، يستحق من أجله العذاب المهين .

وقوله : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » استثناء متصل من الجملة السابقة أى : إلا من أكره على النطق بكلمة الكفر ، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان ، ثابت عليه ، متمكن منه .. فإنه فى هذه الحالة لا يكون ممن يستحقون عقوبة المرتد .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٢٣٧ .

قال بعض العلماء : وأما قوله : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » فهو استثناء متصل من « من » لأن الكفر أعم من أن يكون اعتقادا فقط ، أو قولا فقط ، أو اعتقادا وقولا .. وأصل الاطمئنان سكون بعد انزعاج ، والمراد به هنا : السكون والثبات على الإيمان بعد الانزعاج الحاصل بسبب الإكراه ..[1] .

وقوله : « ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب أليم » بيان لسوء مصير من استحب الكفر على الإيمان باختياره ورضاه .

و « من » فى قوله « من شرح » شرطية ، وجوابها « فعليهم غضب من الله » .

أى : حكم من تلفظ بكلمة الكفر مكرها أنه لا يعتبر مرتدا ، ولكن حكم من طابت نفوسهم بالكفر ، وانشرحت له صدورهم ، واعتقدوا صحته أنهم عليهم من الله - تعالى - غضب شديد لا يعلم مقداره إلا هو ، ولهم يوم القيامة عذاب عظيم الهول ، يتناسب مع عظيم جرمهم .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأخبار التى حكت ماتعرض له المسلمون الأولون من فتن وآلام . فقال ماملخصه : ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال - رضى الله عنه - يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها[2] .

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ٥٤ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٧ .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة » بيان للأسباب التى جعلتهم محل غضب الله ونقمته .

واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى كفرهم بعد إيمانهم ، أو إلى ماتوعدهم الله ـ تعالى ـ به من غضب عليهم ، وعذاب عظيم لهم .

أى : ذلك الذى جعلهم يرتدون عن دينهم ، ويكونون محل غضب الله ونقمته ، من أسبابه أنهم آثروا الحياة الدنيا وشهواتها على الآخرة ومافيها من ثواب .

« وأن الله » ـ تعالى ـ « لايهدى القوم الكافرين » إلى الصراط المستقيم ، لأنهم زاغوا عن الحق ، فأزاغ الله قلوبهم .

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى رذائلهم رذيلة أخرى فقال : « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وأولئك هم الغافلون » .

والطبع : الختم والوسم بطابع ونحوه على الشىء ، لكى لايخرج منه ماهو بداخله ، ولا يدخل فيه ماهو خارج عنه .

أى : أولئك الذين شرحوا صدورهم للكفر ، وطابوا به نفسا ، قد طبع الله ـ تعالى ـ على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فصارت ممنوعة من وصول الحق إليها ، وعاجزة عن الانتفاع به ، وأولئك هم الكاملون فى الغفلة والبلاهة ، إذ لا غفلة أشد من غفلة المعرض عن عاقبة أمره ، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآيات الكريمة بالحكم العادل عليهم فقال : « لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون » .

أى : لاشك ولا محالة فى أن هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان

سيكونون يوم القيامة من القوم الخاسرين ، لأنهم لم يقدموا فى دنيـاهم ماينفعهم فى أخراهم .

وكلمة « لا جرم » قد وردت فى القرآن فى خمسة مواضع ، متلوة فى كل موضع بأن واسمها ، وليس بعدها فعل .

وجمهور النحاة على أن هذه الكلمة مركبة من « لا » و « جرم » تركيب خمسة عشر ، ومعناها بعد التركيب معنى الفعل : حق ، أو ثبت ، أو مايشبه ذلك ، أى : حق وثبت كونهم فى الآخرة من الخاسرين .

والذى يتدبر هذه الآيات ، يراها قد توعدت المرتدين عن دينهم بألوان من العقوبات المغلظة ، لقد توعدتهم بغضب الله - تعالى - وبعذابه العظيم ، وبعدم هدايتهم إلى طريق الحق ، وبالطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وبالغفلة التى ليس بعدها غفلة ، وبالخسران الذى لاشك فيه يوم القيامة ، نعوذ بالله - تعالى - من ذلك .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر لطفه ورأفته لقوم هاجروا من بعد مافتنوا ، فقال - تعالى - :

« ثم إنَّ ربَّك لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعدِما فُتِنُوا ، ثم جاهَدُوا وصَبرُوا، إنَّ ربَّك مِنْ بَعْدِهاَ لغفُورٌ رحيمٌ (١١٠) يومَ تأْتِى كلُّ نفسٍ تجادِلُ عن نَفْسِها، وتُوفَّى كلُّ نَفْسٍ ماعمِلتْ وهُمْ لايُظلَمون (١١١) » .

وقوله - سبحانه - : « من بعد ما أفتنوا » أى : عذبوا وأوذوا من أجل أن يرتدوا إلى الكفر .

وأصل الفتن : إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته من رداءته ، ثم إستعمل فى الإختبار والإمتحان بالمحن والشدائد ، وبالمنح واللطائف ، لما فيه

من إظهار الحال والحقيقة ، وأكثر ما تستعمل الفتنة فى الإمتحان والمحن .
وعليه يحمل بعضهم تفسير الفتنة بالمحنة .

والمراد بهؤلاء الذين هاجروا من بعد مافتنوا - كما يقول ابن كثير - جماعة كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين فى قومهم ، فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأموالهم إبتغاء رضوان الله وغفرانه ، وإنتظموا فى سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، وصبروا ... » (١)

والمعنى : « ثم إن ربك » - أيها الرسول الكريم - تكفل بالولاية والمغفرة لهؤلاء الذين هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام ، من بعد أن عذبهم المشركون لكى يرتدوا عن دينهم .

قال الآلوسى : وقرأ ابن عامر « من بعد ما فتنوا » بالبناء للفاعل ، وهو ضمير المشركين عند غير واحد ، أى : عذبوا المؤمنين كالحضرمى ، أكره مولاه « جبرا » حتى أرتد ، ثم أسلما وهاجرا ... » (٢)

وقوله - تعالى - « ثم جاهدوا وصبروا » أى جاهدوا المشركين حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وصبروا على البلاء والأذى طلبا لرضا الله - تعالى -

والضمير فى قوله « من بعدها » يعود إلى ما سبق ذكره من الهجرة والفتنة والجهاد والصبر .

أى : أن ربك - أيها الرسول الكريم - من بعد هذه الأفعال لكثير المغفرة والرحمة لهم ، جزاء هجرتهم وجهادهم وصبرهم على الأذى .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٥٨٨
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ صـ ٢٣٩

قال الجمل فى حاشيته ماملخصه : وفى خبر «إن» فى قوله «ثم إن ربك للذين هاجروا . . .» ثلاثة أقوال أحدها : أن قوله «لغفور رحيم» وقوله «إن ربك» الثانية وأسمها تأكيد للأولى وأسمها ، فكأنه قيل : ثم إن ربك لغفور رحيم . والثانى أن الخبر هو نفس الجار بعدها، كما تقول: إن زيدا لك، أى: هو لك لا عليك، بمعنى : هو ناصرهم لاخاذلهم - وإلى هذا المعنى أشار الزمخشرى بقوله : ومعنى «إن ربك» أنه لهم لاعليهم كما يكون الملك للرجل لاعليه ، فيكون محميا منفوعا غير مضرور - والثالث : أن خبر الأولى مستغنى عنه بخبر الثانية ، يعنى أنه محذوف لفظا لدلالة ما بعده عليه (١)

وقوله - سبحانه - «يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها . . .» منصوب على الظرفية بقوله «رحيم» أو منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره أذكر . والمراد باليوم : يوم القيامة .

والمجادلة هنا بمعنى المحاجة والمدافعة، والسعى فى الخلاص من أهوال ذلك اليوم الشديد .

والمعنى : إن ربك أيها الرسول الكريم - من بعد تلك المذكورات من الهجرة والفتنة والجهاد والصبر ، لغفور رحيم ، يوم تأتى كل نفس مشغولة بأمرها، مهتمة بالدفاع عن ذاتها ، بدون التفات إلى غيرها، ساعية فى الخلاص من عذاب ذلك اليوم .

والمتأمل فى هذه الجملة الكريمة ، يراها تشير بأسلوب مؤثر بليغ إلى مايعترى الناس يوم القيامة من خوف وفزع يجعلهم لا يفكرون إلا فى ذواتهم ولا يهمهم شأن آبائهم أو أبنائهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٦٠٠

قال صاحب الكشاف فإن قلت : ما معنى النفس المضافة إلى النفس؟

قلت : يقال لعين الشيء وذاته نفسُه . وفى نقيضه غيره، والنفس الجملة كما هى ، فالنفس الأولى هى الجملة ، والثانية عينها وذاتها ، فكأنه قيل : يوم يأتى كل إنسان يجادل عن ذاته ، لا يهمه شأن غيره ، كل يقول : نفسى نفسى . ومعنى المجادلة عنها : الاعتذار عنها ، كقولهم : « ما كنا مشركين » ، وكقولهم : « هؤلاء أضلونا ... » [1]

وقوله ـ سبحانه ـ « وتوفى كل نفس ماعملت وهم لا يظلمون » بيان لمظهر من مظاهر عدل الله ـ تعالى ـ فى قضائه بين عباده .

أى : وفى هـذا اليوم تعطى كل نفس جزاء ماعملته من أعمال فى الدنيا وافيا غير منقوص ، بدون ظلم أو حيف أو ميل عن العدل والقسطاس ، ولن ينفع نفسا مجادلتها عن ذاتها ، وإعتذارها بالمعاذير الباطلة ، وإنما الذى ينفعها هو عملها .

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين ، قد بينتا بأسلوب بليغ جانبا من مظاهر فضل الله ـ تعالى ـ على عباده ، وجانبا من أهوال يوم القيامة ، ومن القضاء العادل الذى يحكم الله به بين الناس .

ثم ضرب ـ سبحانه ـ مثلا لسوء عاقبة الذين يجحدون نعم الله، ويكذبون بآياته ، فقال ـ تعالى ـ :

« وضَرَبَ اللهُ مَثلا ، قريةً كانَتْ آمِنةً مُطمئِنةً يأتيها رِزْقُها رغداً من كل مكانٍ فكفَرَتْ بأَنْعُمِ اللهِ فأَذَاقَها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يَصنَعُونَ (١١٢) ولقد جَاءهُم رسولٌ مِنهُم فكذَّبُوه ، فأَخذَهُمُ العذابُ وهم ظالِمُون (١١٣) » .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ صـ ٤٣١

والفعل ضرب « في قوله - تعالى -: وضرب الله مثلا قرية . . . » متضمن معنى جعل ، ولذا عدى إلى مفعولين .

والمثل - بفتح الثاء - بمعنى المثل - بسكونها - أى : النظير والشبيه . ويطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه لمورده الذى ورد فيه ، ثم أستعير للصفة والحال كما فى الآية التى معنا .

والمراد بالقرية : أهلها ، فالكلام على تقدير مضاف .

وللمفسرين إتجاهان فى تفسير هذه الآيه . فمنهم من يرى أن هذه القرية غير معينة ، وإنما هى مثل لكل قوم قابلوا نعم الله بالجحود والكفران .

وإلى هذا المعنى إتجه صاحب الكشاف حيث قال : قوله - تعالى - : « وضرب الله مثلا قرية . . . » أى : جعل القريه التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة . فكفروا وتولوا ، فأنزل الله بهم نقمته فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفه ، وأن تكون فى قرى الأولين قرية كانت هذه حالها ، فضرب بها الله مثلا لمكة إنذارا من مثل عاقبتها .»(١)

ومنهم من يرى أن المقصود بهذه القرية مكة ، وعلى هذا الإتجاه سار الامام إبن كثير حيث قال ما ملخصه : هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنا . . فجحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١)

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لتنكير لفظ قرية ، ولشموله الاتجاه الثانى ، لأنه يتناول كل قرية بدلت نعمة الله كفرا ، ويدخل فى ذلك كفار مكة دخولا أوليا .

فيكون المعنى : وجعل الله قرية موصوفة بهذه الصفات مثلا لكل قوم

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٦٣٩

أنعم الله عليهم بهذه النعم ، فلم يشكروا الله — تعالى — عليها ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وقوله : « كانت آمنة مطمئنة » أي : كانت تعيش فى أمان لا يشوبه خوف ، وفى سكون وإطمئنان لا يخالطها فزع أو انزعاج :

وقوله : « يأتيها رزقها رغداً من كل مكان » بيان لسعة عيشها ، أي : يأتيها ما يحتاج اليه أهلها واسعا لينا سهلا من كل مكان من الأمكنة .

يقال : رغد — بضم الغين — عيش القوم ، أي : اتسع وطاب فهو رغد ورغيد ... وأرغد القوم ، أي : أخصبوا وصاروا فى رزق واسع .

فالآية الكريمة قد تضمنت أمهات النعم : الأمان والاطمئنان ورغد العيش . قال بعضهم :

ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية

وقوله — تعالى — : « فكفرت بانعم الله » بيان لموقفها الجحودى من نعم الله — تعالى —

أي : فكان موقف أهل هذه القرية من تلك النعم الجليله ، أنهم جحدوا هذه النعم ، ولم يقابلوها بالشكر ، وإنما قابلوها بالاشراك بالله - تعالى — مُسدِي هذه النعم .

قال القرطبى : « والأنعم : جمع النعمة . كالأشد جمع الشدة . وقيل : جمع نعمى ، مثل بُؤسَى وأبؤُس » .

وقوله — سبحانه — : « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » بيان للعقوبة الأليمة التى حلت بأهلها بسبب كفرهم وبطرهم

أي : فاذاق — سبحانه — أهلها لباس الجوع والخوف ، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والجحود والعتو عن أمر الله ورسله

وذلك بان أظهر أثرهما عليهم بصورة واضحة ، تجعل الناظر اليهم لا يخفى عليه ما هم فيه من فقر مدقع ، وفزع شديد

(١) تفسير ابن كثير حـ ٢ ص ٥٨٩

ففى الجملة الكريمة تصوير بديع لما أصابهم من جوع وخوف ، حتى لكأن ماهم فيه من هزال وسوء حال ، يبدو كاللباس الذى يلبسه الإنسان ، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا يحسون أثره إحساسا عميقا .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد أجاد فى تصوير هذا المعنى فقال : « فإن قلت : الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما ؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ، فما وجه صحة إيقاعها عليه ؟

قلت : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما عس الناس منها . فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر . واذاقه العذاب . شبه مايدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من الطعم المر البشع .

وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ، ماغشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث .

وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس ، فكأنه قيل : فأذاقه ماغشيهم من الجوع والخوف . . . »[1]

ثم بين ـ سبحانه ـ رذيلة أخرى من رذائل أهل هذه القرية الكافرة بأنعم الله فقال : « ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه » .

أى : ولقد جاء إلى أهل هذه القرية رسول من جنسهم ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأمرهم بطاعة الله وشكره ، ولكنهم كذبوه وأعرضوا عنه .

والتعبير بقوله « جاءهم » يدل على أن هذا الرسول وصل إليهم وبلغهم رسالة ربه ، دون ان يكلفهم الذهاب إليه ، أو البحث عنه .

والتعبير بالفاء فى قوله « فكذبوه » يشعر بأنهم لم يتمهلوا ولم يتدبروا دعوة

---

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٣٩ .

هـــذا الرسول ، وإنما قابلوها بالتكذيب السريع بدون روية ، مما يدل على غباوتهم وانطماس بصيرتهم .

وقوله — تعالى — « فأخذهم العذاب وهم ظالمون » بيان للعاقبة السيئة التى حاقت بهم .

أي : فكانت نتيجة تكذيبهم السريع لنبيهم . أن أخذهم العذاب العاجل الذي استأصل شأفتهم ، والحال أنهم هم الظالمون لأنفسهم ، لأن هذا العذاب ما نزل بهم إلا بعد أن كفروا بأنعم الله ، وكذبوا رسوله .

هذا ، والذى يتأمل هاتين الآيتين الكريمتين يراهما وإن كانا يشملان حال كل قوم بدلوا نعمة الله كفرا ... إلا أنهما ينطبقان تمام الانطباق على كفار مكة .

وقد بين ذلك الإمام الآلوسى — رحمه الله — فقال ما ملخصه : وحال أهل مكة — سواء أضرب المثل لهم خاصة ، أم لهم ولمن سار سيرتهم كافة أشبه بحال أهل تلك القرية من الغراب بالغراب ، فقد كانوا فى حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم ، وكانت تجبى إليهم ثمرات كل شىء رزقا ، ولقد جاءهم رسول منهم تحار فى سمو مرتبته العقول - صلى الله عليه وسلم - ، فأنذرهم وحذرهم فكفروا بأنعم الله ، وكذبوه - صلى الله عليه وسلم - فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف ، حيث أصابهم بدعائه - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » ما أصابهم من جدب شديد ، فاضطروا إلى أكل الجيف ... وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، حيث كانوا يغيرون عليهم ... »[1]

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٤٤ .

ثم أمرهم ـ سبحانه ـ بأن يأكلوا مما أحله لهم ، وأن يشكروه على نعمه ، وأن يجتنبوا ما حرمه عليهم ، فقال ـ تعالى ـ :

« فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً ، واشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ والدَّمَ ولَحْمَ الْخِنْزِيرِ وما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ ولا عادٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) » .

والفاء فى قوله : « فكلوا ... » للتفريع على ما تقدم من التمثيل بالقرية التى كفرت بأنعم الله ، والتى أصابها ما أصابها بسبب ذلك .

أى : لقد ظهر لكم حال الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، ورأيتم كيف أذاقهم الله لباس الجوع والخوف ، فاحذروا أن تسيروا على شاكلتهم ، وكلوا من الحلال الطيب الذى رزقكم الله ـ تعالى ـ إياه .

واشكروا نعمة الله » التى أنعم بها عليكم ، بأن تستعملوها فيما خلقت له ، وبأن تقابلوها بأسمى ألوان الطاعة لمسديها ـ عز وجل ـ .

« إن كنتم إياه » سبحانه ـ تعبدونه حق العبادة ، وتطيعونه حق الطاعة .

ثم بين ـ سبحانه ـ ماحرمه على عباده رعاية لمصالحهم فقال : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ... »

والميتة فى عرف الشرع : ماماتت حتف أنفه ، أوقتل على هيئة غير مشروعة ، فيدخل فيها المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، وماعدا عليها السبع ...

وكان الأكل من الميتة محرما، لفساد جسمها بسبب ذبول أجزائه وتعفنها، ولأنها أصبحت بحالة تعافها الطباع السليمة لقذارتها وضررها .

والدم المحرم : هو مايسيل من الحيوان الحى كثيرا كان أم قليلا . وكذلك يحرم من دم الحيوان ماجرى منه بعد ذبحه ، وهو الذى عبر عنه القرآن بالمسفوح ...

والحكمة من تحريم الدم المسفوح ، أنه تستقذره النفوس الكريمة ، ويفضى شربه أو أكله إلى الإضرار بالنفس .

وحرمة الخنزير شاملة للحمه ودمه وشحمه وجلده . وإنما خص لحمه بالذكر ، لأنه المقصود بالأكل ، ولأن سائر أجزائه كالتابعة للحمه ...

ومن الحكم من تحريم لحم الخنزير : قذارته ، واشتماله على دودة تضر بآكله ، كما أثبت ذلك العلم الحديث .

وقوله « وما أهل لغير الله به » معطوف على ماقبله من المحرمات .

والفعل « أهل » مأخوذ من الإهلال بمعنى رفع الصوت ، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ماقربوه إلى آلهتهم ، سموا عليها أسماءها ، فيقولون : باسم اللات ، أو باسم العزى ، رافعين بذلك أصواتهم .

فأنت ترى أن تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير كان لعلة ذاتيه فى تلك الأشياء ، أما تحريم ما أهل لغير الله به ، فبسبب التوجه بالمذبوح إلى غير الله — عز وجل — .

وقوله — تعالى — : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » بيان لحالات الضرورة التى يباح للإنسان فيها أن يأكل من تلك المحرمات .

واضطر : من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشىء بشدة .

والمعنى : فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شىء من هذه المحرمات ، حالة كونه غير باغ ، أى : غير طالب للمحرم وهو يجد غيره ، أو غير طالب له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر ، « ولا عاد » أى : ولا متجاوز فى أكله مايسد

الجوع ويحفظ الحياة «فإن الله» - تعالى - «غفور» واسع المغفرة لعباده «رحيم» كثير الرحمة بهم[1].

ثم نهى - سبحانه - عن القول على الله - تعالى - بغير علم اتباعا للظن والأوهام، فقال:

«ولاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُم الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وهَذَا حرامٌ لِتَفْتَرُوا على اللهِ الكَذِبَ، إنَّ الذينَ يفتَرُونَ على اللهِ الكَذِبَ لا يفلِحُون (١١٦) متاعٌ قليلٌ ولهُم عذابٌ أليمٌ (١١٧)».

قال الآلوسى ماملخصه: قوله: «ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ..» «ما» موصولة، والعائد محذوف، أى: ولا تقولوا فى شأن الذى تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة — هذا حلال وهذا حرام — ، من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر، فضلا عن استناده إلى وحى أو قياس مبنى عليه، بل مجرد قول باللسان.

ولفظ «الكذب» منتصب على أنه مفعول به «لتقولوا» وقوله - سبحانه - «هذا حلال وهذا حرام» بدل منه ...»[2]

والمعنى: ولا تقولوا — أيها الجاهلون — للشىء الكذب الذى تصفه ألسنتكم، وتحكيه وتنطق به بدون بينة أو برهان. هذا الشىء حلال وهذا الشىء حرام.

وقد حكى الله - تعالى - عن هؤلاء الجاهلين فى آيات كثيرة، أنهم أحلوا وحرموا أشياء من عند أنفسهم ومن ذلك قوله - تعالى -: «وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزوجنا ...»

---

(١) إذا أردت التفصيل لتفسير هذه الآية فارجع إلى تفسير سورة البقرة ص ٤٠٧ للمؤلف.

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٢٤٧.

وقوله ـ سبحانه ـ : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالا وحراما ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون » .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : مامعنى وصف ألسنتهم الكذب ؟ قلت : هو من فصيح الكلام وبليغه . جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه . فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته ، وصورته بصورته ، كقولهم : وجهها يصف الجمال ، وعينها تصف السحر .. »(١) .

وقال بعض العلماء ماملخصه : ويصح أن يكون لفظ الكذب مفعولا لتصف ، وأن يكون قوله : « هذا حلال وهذا حرام » مفعولا لتقولوا .

وعلى هذا الوجه يكون فى وصف ألسنتهم الكذب ، مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب ، حتى لكأن ماهية الكذب كانت مجهولة ، فكشفت عنها ألسنتهم ووضحتها ووصفتها ونعتتها بالنعوت التى جلتها ... ومنه قول الشاعر :

أضحت يمينك من جود مُصَوَّرةً ... لا ، بل يمينك منها صُوِّر الجودُ(٢)

واللام فى قوله « لتفتروا على الكذب » هى لام الصيرورة والعاقبة ، أو هى ـ كما يقول صاحب الكشاف ـ من التعليل الذى لا يتضمن معنى الغرض ، لأن ما صدر عنهم من تحليل وتحريم دون أن يأذن به الله ، ليس الغرض منه افتراء الكذب فحسب ، بل هناك أغراض أخرى ، كظهورهم بمظهر أولى العلم ، وكحبهم للتباهى والتفاخر ..

وقوله « تفتروا » من الافتراء وهو أشنع أنواع الكذب ، لأنه اختلاق للكذب الذى لا يستند إلى شىء من الواقع .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٣٣ .

(٢) تفسير القاسمى ج ١٠ ص ٣٨٧٢ .

أى : ولا تقولوا لما تحكيه ألسنتكم من أقوال وأحكام لاصحة لها ، هذا حلال وهذا حرام ، لتنسبوا ذلك إلى الله — تعالى — كذبا وزورا.

قال الإمام إبن كثير : ويدخل فى الآية كل من إبتدع بدعة ، ليس له فيها مستند شرعى ، أو حلل شيئا مما حرم الله أو حرم شيئا مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهيه »(١)

وقال الآلوسى : وحاصل معنى الآية : لا تسموا مالم يأتكم حله ولا حرمته عن الله — تعالى — ورسوله — صلى الله عليه وسلم — حلالا ولا حراما ، فتكونوا كاذبين على الله . لأن مدار الحل والحرمة ليس إلا حكمه — سبحانه — .

ومن هنا قال : أبو نضرة : لم أزل أخاف الفتيا منذ أن سمعت هذه الآية إلى يومى هذا

وقال إبن العربى : كره مالك وقوم أن يقول المفتى : هذا حلال وهذا حرام فى المسائل الإجتهاديه . وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه . ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا وكذا ونحو ذلك »(٢)

وقوله — سبحانه — : «إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون» بيان لسوء عاقبتهم ، وخيبة مسعاهم .

أى : أن الذين يختلقون الكذب وينسبونه إلى الله — تعالى — لا يفوزون بمطلوب ، ولا يفلحون فى الوصول إلى مأمول .

وقوله — سبحانه — « متاع قليل » بيان لخسة ما يسعون للحصول اليه من

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٩٠

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٢٤٨

منافع الدنيا . وهو خبر لمبتدأ محذوف أي : متاعهم في الدنيا متاع قليل ، لأنهم عما قريب سيتركونه لغيرهم بعد رحيلهم عن هذه الدنيا .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم في الآخرة فقال : « ولهم عذاب أليم » أي : ولهم في الآخرة عذاب شديد الألم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » وقوله - تعالى - : « ومن كفر فأمتعه قليلا ، ثم إضطره إلى عذاب النار وبئس المصير »

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن ما حرمه على اليهود من طيبات ، كان بسبب ظلمهم وبغيهم ، وأن رحمته - تعالى - تسع العصاة متى تابوا وأصلحوا ، فقال - تعالى - :

وَعَلَى الذينَ هادُوا حرَّمنا ما قَصَصْنَا عليكَ من قبلُ ، وما ظلَمناهُم ولكنْ كانُوا أنفُسَهم يظلِمُونَ (١١٨) ثم إنَّ ربَّكَ للذينَ عمِلُوا السُّوءَ بجهالةٍ ، ثم تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلكَ وأصلَحُوا ، إنَّ ربَّكَ مِنْ بَعدِها لغفورٌ رحيمٌ (١١٩) » .

قال إبن كثير - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما أرخص فيه عند الضرورة وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر ، ذكر - سبحانه - بعد ذلك ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج ، فقال : « وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ... »

أي : في سورة الأنعام في قوله : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو

الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون »(١)

والمعنى : وعلى اليهود بصفة خاصة ، دون غيرهم من الأمم ، حرمنا بعض الطيبات التي سبق أن بيناها لك في هذا القرآن الكريم ، وما كان تحريمنا إياها عليهم إلا بسبب بغيهم وظلمهم .

وفي الآية الكريمة إبطال لمزاعمهم ، حيث كانوا يقولون : لسنا أول من حرمت عليه هذه الطيبات ، وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم وغيرهما من جاء بعدهما .

وقوله : « من قبل » متعلق بحرمنا ، أو بقصصنا .

وبذلك يتبين أن ما حرمه الله — تعالى — على الأمة الإسلامية ، كالميتة والدم ولحم الخنزير .. كان من باب الرحمة بها ، والحرص على مصلحتها ... أما ما حرمه — سبحانه — على اليهود ، فقد كان بسبب بغيهم وظلمهم .

وقوله — تعالى — « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » بيان لمظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - في معاملته لعباده

أي وما ظلمنا هؤلاء اليهود بتحريم بعض الطيبات عليهم ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم ، حيث تركوها تسير في طريق الشيطان ، ولم يوقفوها عند حدود الله - تعالى - ، فاستحقوا بسبب ذلك ما إستحقوا من عقوبات .

وصدق الله إذ يقول : « إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون »(٢)

وقوله - سبحانه - « ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ... » بيان لسعة رحمته - سبحانه - بعباده ، ورأفته بهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٠

(٢) سورة يونس الآية ٤٤

والمراد بالجهالة : الجهل والسفه اللذان يحملان صاحبهما على إرتكاب ما لا يليق بالعقلاء ، وليس المراد بها عدم العلم .

قال مجاهد : كل من عصى الله - تعالى - عمدا أو خطأ فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته .

وقال ابن عطية : الجهالة هنا بمعنى تعدى الطور ، وركوب الرأس : لاحسن العلم .

ومنه ما جاء فى الخبر : « اللهم إنى أعوذ بك من أن أجهل ، أو يجهل على »

ومنه قول الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين (١)

والمعنى : ثم إن ربك - أيها الرسول الكريم - ، لكثير الغفران والرحمة لأولئك الذين عملوا الأعمال السيئة ، بدافع الجهل والسفه والطيش وعدم تدبر العواقب ، ثم إنهم بعد ذلك تابوا توبة صادقة عن تلك الأعمال السيئة ، ولم يكتفوا بذلك بل أصلحوا من شأن أنفسهم ، حيث أوقفوها عند حدود الله - تعالى - وأجبروها على تنفيذ أوامره ، وإجتناب نواهيه .

قال الآلوسى : والتقييد بالجهالة قيل : لبيان الواقع ، لأن كل من يعمل السوء لا يعمله إلا بجهالة .

وقال العسكرى : ليس المعنى أنه - تعالى - يغفر لمن يفعل السوء بجهالة ، ولا يغفر لمن عمله بدون جهالة ، بل المراد وأن جميع من تاب فهذه سبيله . وإنما خص من يعمل السوء بجهالة ، لأن أكثر من يأتى الذنوب يأتيها بقلة

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ صـ ٢٤٩

فكر فى عاقبة الأمر ، أو عند غلبة الشهوة ، أو فى جهالة الشباب : فذكر الأكثر على عادة العرب فى مثل ذلك . »[١]

واسم الإشارة فى قوله « ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا » يعود إلى الأعمال السيئة التى عملوها قبل التوبة والإصلاح

أى : ثم تابوا توبة صادقة من بعد أن عملوا ما عملوا من سيئات، وأصلحوا نفوسهم فهيئوها للسير على الطريق المستقيم

والضمير فى قوله — « إن ربك من بعدها . » يعود إلى التوبة وما يصاحبها من فعل للطاعات ومن إجتناب للسيئات

أى : إن ربك — أيها الرسول الكريم — من بعد هذه التوبة النصوح ، لكثير المغفرة والرحمة للتائبين

والتعبير — بثم — فى قوله « ثم إن ربك للذين . ثم تابوا من بعد ذلك . » لبيان الفرق الشاسع بين رحمة الله — تعالى — بعباده ، وبين ما يصدر عن بعضهم من كفران وإرتكاب للمعاصى ; وبين المصرين على فعل السوء ، وبين التائبين عنه .

وكرر — سبحانه — « ان ربك » مرتين فى الآية الواحدة ، لتأكيد الوعد واظهار كمال العناية بإنجازه

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله — تعالى — : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ، ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما »[٢]

ثم مدح — سبحانه — خليله ابراهيم مدحا عظيما ، وبشره بالعطاء الذى

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ١٤ صـ ٢٤٩

(٢) سورة النساء الآية ١٧

يسعده فى دنياه وآخرته ، وأمر نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - باتباع ملة أبيه ابراهيم ، فقال - تعالى - :

« إنَّ إبراهيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلهِ حَنيفاً، ولم يكُ من المشركينَ (١٢٠) شاكِراً لأنعُمِهِ اجتباهُ وهَداهُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ (١٢١) وآتيناهُ فى الدُّنيا حسنةً وإنَّهُ فى الآخِرةِ لَمِنَ الصالحِينَ (١٢٢) ثم أوحَينا إليكَ أنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ من المشركينَ (١٢٣) إنَّما جُعِلَ السَّبتُ على الذينَ اختلفُوا فيهِ ، وإن ربَّكَ ليحكُمُ بَيْنَهُم يومَ القيامَةِ فيما كانُوا فيه يختلِفُونَ (١٢٤) » .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف خليله ابراهيم - عليه السلام - بجملة من الصفات الفاضلة . والمناقب الحميدة

وصفه أولا - بأنه « كان أمة »

ولفظ «أمة» يطلق فى اللغة بإطلاقات متعددة ، منها : الجماعة ، كما فى قوله - تعالى - « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون »[1] أى : جماعة من الناس ..»

ومنها : الدين والملة ، كما فى قوله - تعالى - : « إنا وجدنا آباءنا على أمة .. »[2] أى : على دين وملة .

ومنها : الحين والزمان كما فى قوله - تعالى - : « ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة .. »[3] .

---

(١) سورة القصص الآية ٢٣

(٢) سورة الزخرف الآية ٢٢

(٣) سورة هود الآية ٨

أى : إلى زمان معين . .

والمراد بقوله – تعالى – « إن إبراهيم كان أمة . . » أى : كان عنده من الخير ما كان عند أمة . أى جماعة كثيرة من الناس . وهذا التفسير مروى عن ابن عباس .

وقال مجاهد : سمى – عليه السلام – أمة لانفراده بالإيمان فى وقته مدة ما .

وفى صحيح البخارى أنه قال لزوجته سارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيرى وغيرك » .

ويصح أن يكون المراد بقوله – تعالى – «إن إبراهيم كان أمة . . » أى: كان إماما يقتدى به فى وجوه الطاعات . وفى ألوان الخيرات ، وفى الأعمال الصالحات ، وفى إرشاد الناس إلى أنواع البر ، قال – تعالى – : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما . . »(١)

ووصفه – ثانيا – بأنه كان « قانتا لله » أى : مطيعا لله ، خاضعا لأوامره ونواهيه ، من القنوت وهو الطاعة مع الخضوع .

ووصفه – ثالثا – بأنه كان « حنيفا » أى : مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق . من الحنف بمعنى الميل والاعوجاج ، يقال : فلان برجله حنف أى اعوجاج وميل .

ومنه قول أم الأحنف بن قيس وهى تداعبه :

والله لولا حنف برجله ما كان فى فتيانكم من مثله

ووصفه – رابعا – بأنه منزه عن الإشراك بالله – تعالى – فقال : « ولم يك من المشركين » .

أى : ولم يكن إبراهيم – عليه السلام – من الذين أشركوا مع الله – تعالى –

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٤

آلهه أخرى فى العباده أو الطاعة ، أو فى أى امر من الأمور ، بل أخلص عبادته لخالقه - عز وجل - .

وقال - كما حكى القرآن عنه - : « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين »[1] .

ووصفه - خامسا - بقوله - سبحانه - : « شاكرا لأنعمه » أى : معترفا بفضل الله - تعالى - عليه ، ومستعملا نعمه فيما خلقت له ، ومؤديا حقوق خالقه فيها . قال - تعالى - : « وإبراهيم الذى وفى » أى : قام بأداء جميع ما كلفه الله به .

وبعد أن مدح - سبحانه - إبراهيم بتلك الصفات الجامعة لمجامع الخير ، أتبع ذلك ببيان فضله - تعالى - عليه فقال : « اجتباه » أى اختاره واصطفاه للنبوة . من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والاختيار .

واجتباء الله - تعالى - لعبده معناه : اختصاصه ذلك العبد بخصائص ومزايا يحصل له عن طريقها أنواع من النعم بدون كسب منه .

« وهداه إلى صراط مستقيم » أى : وأرشده إلى الطريق القويم ، الذى دعا الصالحون ربهم أن يرشدهم إليه ، حيث قالوا فى تضرعهم : « أهدنا الصراط المستقيم » وهو طريق الإسلام .

« وآتيناه فى الدنيا حسنة » أى : وجمعنا له خير الدنيا من كل مايحتاج المؤمن إليه ليحيا حياة طيبة ، كهدايته إلى الدين الحق ، ومنحه نعمة النبوة ، وإعطائه الذرية الصالحة ، والسيرة الحسنة ، والمال الوفير .

وقد أشار القرآن الكريم إلى جانب من هذه النعم ، كما فى قوله - تعالى - : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين »[2] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٩ .
(٢) سورة الشعراء الآية ٨٤

وكما فى قوله - تعالى - : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . . . »[1]

« وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » أى : وإنه فى الدار الآخرة لمندرج فى عباد الله الصالحين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، والذين كانت لهم جنات الفردوس نزلا .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم التى منحها لخليله إبراهيم ، بأمر نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يتبع ملة أبيه إبراهيم - عليه السلام - فقال - تعالى - : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

والمراد بملة إبراهيم : شريعته التى أمره الله - تعالى - باتباعها فى عقيدته وعبادته ومعاملاته ، وهى شريعة الإسلام ، التى عبر عنها آنفا بالصراط المستقيم فى قوله - تعالى - « اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » .

والمراد باتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - له فى ذلك : الاقتداء به فى التوحيد وفى أصول الدين، الثابتة فى كل الشرائع ، لا الفروع الشرعية التى تختلف من شريعة إلى أخرى ، بحسب المصالح التى يريدها الله - تعالى - لعباده .

أى : ثم أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم - بأن تتبع فى عقيدتك وشريعتك « ملة إبراهيم حنيفا » أى : شريعته التى هى شريعة الإسلام .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : « ثم أوحينا إليك . . . » : فى « ثم » هذه ما فيها من تعظيم منزلة - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وإجلال محله ، والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة ، وأجل ما أولى من النعمة ، اتباع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ملته ، من جهة أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة ، من بين سائر النعوت

---

(1) سورة مريم الآية ٤٩

التي أثنى الله عليه بها »[1] .

وقال القرطبي : وفي هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل المفضول فيما يؤدي إلى الصواب ، ولا درك على الفاضل في هذا ، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - أفضل الأنبياء ، وقد أمر بالاقتداء بهم ، قال - تعالى - « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ... » وقال - سبحانه - هنا « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ... »[2]

وقوله « حنيفا » حال من إبراهيم ، أي : من المضاف إليه ، وصح ذلك لأن المضاف هنا وهو « ملة » كالجزء من المضاف إليه وهو إبراهيم من حيث صحة الاستغناء بالثاني عن الأول ، لأن قولك : أن اتبع إبراهيم حنيفا . كلام تام . . .

وقد أشار ابن مالك - رحمه الله - إلى هذا المعنى بقوله :

ولا تجز حالا من المضاف له   إلا إذا اقتضى المضاف عمله
أو كان جزء ماله أضيفا   أو مثل جزئه فلا تحيفا

وقوله - سبحانه - : « وما كان من المشركين » تنزيه لإبراهيم - عليه السلام - عن أي لون من ألوان الإشراك بالله - تعالى - .

أي : وما كان إبراهيم - عليه السلام - من المشركين مع الله - تعالى - آلهة أخرى لا في عقيدته ولا في عبادته ولا في أي شأن من شئونه .

وفي ذلك رد على المشركين الذين زعموا أنهم على ملة إبراهيم ، ورد - أيضا - على اليهود والنصارى الذين زعموا أن إبراهيم - عليه السلام - كان على ملتهم .

قال - تعالى - : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان

(1) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٤   (2) تفسير القرطبي جـ   ص

حنيفا مسلما وما كان من المشركين »[1] .

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ حقيقة عقيدة إبراهيم ، ومدحه بجملة من الصفات الجليلة ، وبين جانبا من مظاهر فضله ـ سبحانه ـ عليه ، أتبع ذلك ببيان أن تحريم العمل فى يوم السبت أمر خاص باليهود ، ولا علاقة له بشريعة إبراهيم أو بشريعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال ـ تعالى ـ : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه . . . »

والمراد بالسبت : اليوم المسمى بهذا الاسم ، وأصله ـ كما يقول ابن جرير ـ الهدوء والسكون فى راحة ودعة ، ولذلك قيل للنائم مسبوت لهدوئه وسكون جسده واستراحته ، كما قال ـ جل ثناؤه ـ : « وجعلنا نومكم سباتا » أى : راحة لأبدانكم . . . »[2]

والكلام على حذف مضاف ، والمعنى : إنما جعل تعظيم يوم السبت ، والتخلى فيه للعبادة ، « على الذين اختلفوا فيه » وهم اليهود ، حيث أمرهم نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ بتعظيم يوم الجمعة ، فخالفوه واختاروا السبت .

قال الجمل ما ملخصه : قوله ـ سبحانه ـ : « على الذين اختلفوا فيه » أى : خالفوا نبيهم ، حيث أمرهم : أن يعظموا يوم الجمعة بالتفرغ للعبادة فيه ، وشدد عليهم بتحريم الاصطياد فيه : فليس المراد بالاختلاف أن بعضهم رضى ، وبعضهم لم يرض ، بل المراد به امتناع الجميع ـ حيث قالوا لا نريد يوم الجمعة ، واختاروا السبت ـ .

ثم قال : وفى معنى الآية قول آخر . قال قتادة : إن الذين اختلفوا فيه هم اليهود ، حيث استحله بعضهم وحرمه بعضهم ، فعلى هذا القول يكون معنى قوله « إنما جعل السبت . . . »

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٧ (٢) تفسير ابن جرير الطبرى جـ ١٤ ص ٣٢٧

أى : وبال يوم السبت ولعنته «على الذين اختلفوا فيه» ، وهم اليهود ، حيث استحله بعضهم فاصطادوا فيه ، فعذبوا ومسخوا .. وثبت بعضهم على تحريمه فلم يصطد فيه ، فلم يعذبوا ... والقول الأول أقرب إلى الصحة »(١)

وقال الإمام ابن كثير . وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم ـ أى أهل الكتاب ـ أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم ـ أى يوم الجمعة ـ فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد»(٢) .

ثم بين ـ سبحانه ـ حكمه العادل فيهم فقال : «وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون»

أى : وإن ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ ليحكم بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة ، بأن ينزل بهم العقوبة التى يستحقونها بسبب مخالفتهم لنبيهم ، وإعراضهم عن طاعته فيما أمرهم به من تعظيم يوم الجمعة .

ويصح أن يكون المعنى : وإن ربك ليحكم بحكمه العادل بين هؤلاء اليهود الذين اختلفوا فى شأن يوم السبت ، حيث استحله بعضهم ، وحرمه البعض الآخر ، فيجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت إبراهيم ـ عليه السلام ـ مدحا عظيما ، وذكرت جانبا من المآثر التى أكرمه الله ـ تعالى ـ بها ، وبرأته مما ألصقه به المشركون وأهل الكتاب من تهم باطلة ، ودعاوى كاذبة .

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بتلك الآيات الجامعة لآداب الدعوة إلى الله ، والهادية إلى مكارم الأخلاق ، فقال ـ تعالى ـ

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٠٥ (٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩١

« ادعُ إلى سَبيـلِ رَبِّكَ بالحِـكْمَةِ والموعظةِ الحسَنةِ ، وجادِلْهم بالتى هِيَ أحسَنُ ، إن ربكَ هو أعـلمُ بمَنْ ضلّ عن سَبيلِه وهُوَ أعلمُ بالمهتدينَ (١٢٥) وإنْ عاقبتم فعاقبُوا بمثلِ ما عُوقِبتُم به ، ولَئِنْ صبَرتم لهوَ خيرٌ للصابِرينَ (١٢٦) واصبِرْ وما صبرُكَ إلا باللهِ ولا تحزَنْ عليهمْ ولا تكُ فى ضَيْقٍ ممَّا يمكُرونَ (١٢٧) إن اللهَ معَ الذينَ اتقَّوْا ، والذينَ هُمْ مُحْسِنُون (١٢٨) » .

والخطاب فى قـوله ـ تعالى ـ : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة » للرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدخل فيه كل مسلم يصلح للدعوة إلى الله ـ عزوجل ـ

أى : إدع ـ أيها الرسول الكريم ـ الناس « إلى سـبيل ربك » أى : إلى دين ربك وشريعته التى هى شريعة الإسـلام « بالحكمه » أى : بالقول المحكم الصحيح ، والموضح للحق ، المزيل للباطل ، الواقع فى النفس أجمل موقع .

وحذف ـ سبحانه ـ مفعول الفعـل « أدع » للدلالة على التعميم ، أى ، أدع كل من هو أهل للدعوة إلى سبيل ربك .

وأضاف ـ سبحانه ـ السبيل اليه ، للاشارة إلى أنه الطريق الحق ، الذى من سار فيه سعد وفاز ، ومن إنحرف عنه شقى وخسر .

وقوله ـ تعـالى ـ : « والموعظة الحسـنه » وسيلة ثانية للدعوة إلى الله ـ تعالى ـ .

أى : وأدعهم ـ أيضا ـ إلى سبيل ربك بالأقوال المشتملة على العظات والعبر التى ترقق القـلوب ، وتهذب النفوس ، وتقنعهم بصحه ماتدعوهم اليه ، وترغبهم فى الطاعة لله ـ تعـالى ـ وترهبهم من معصيته ـ عز وجل ـ وقوله ـ تعـالى ـ : « وجادلهم بالتى هى أحسن » بيان لوسيلة ثالثة من وسائل الدعوة السليمة .

أي : وجادل المعاند منهم بالطريقة التى هى أحسن الطرق وأجملها ، بأن تكون مجادلتك لهم مبنية على أحسن الإقناع ، وعلى الرفق واللين وسعة الصدر فإن ذلك أبلغ فى إطفاء نار غضبهم ، وفى التقليل من عنادهم ، وفى إصلاح شأن أنفسهم ، وفى إيمانهم بأنك انما تريد من وراء مجادلتهم ، الوصول الى الحق دون أى شىء سواه .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد رسمت أقوم طرق الدعوة الى الله ـ تعالى ـ وعينت أحكم وسائلها ، وأنجعها فى هداية النفوس .

أنها تأمر الدعاة فى كل زمان ومكان أن تكون دعوتهم الى سبيل الله لا الى سبيل غيره ، الى طريق الحق لا طريق الباطل أنها تأمرهم ـ أيضا ـ أن يراعوا فى دعوتهم أحوال الناس ، وطباعهم ، وسعة مداركهم ، وظروف حياتهم ، وتفاوت ثقافتهم ...

وأن يخاطبوا كل طائفة بالقدر الذى تسعه عقولهم ، وبالأسلوب الذى يؤثر فى نفوسهم ، وبالطريقة التى ترضى قلوبهم وعواطفهم .

فمن لم يقنعه القول المحكم ، قد تقنعه الموعظة الحسنة ، ومن لم تقنعه الموعظة الحسنة . قد يقنعه الجدال بالتى هى أحسن .

ولذلك كان من الواجب على الدعاة الى الحق ، أن يتزودوا بجانب ثقافتهم الدينية الأصيلة الواسعة ـ بالكثير من ألوان العلوم الأخرى كعلوم النفس والإجتماع والتاريخ ، وطبائع الأفراد والأمم ... فإنه ليس شىء أنجع فى الدعوة من معرفة طبائع الناس وميولهم ، وتغذية هذه الطبائع والميول بما يشبعها من الزاد النافع ، وبما يجعلها تقبـــل على فعل الخير ، وتدبر عن فعل الشر .

وكما أن أمراض الأجسام مختلفة ، ووسائل علاجها مختلفة ـ أيضـا ـ ، فكذلك أمراض النفوس متنوعة . ووسائل علاجها متباينة .

فمن النـاس من يكون علاجه بالمقالة المحكمة : ومنهم من يكون علاجه بالعبارة الرقيقة الرقيقة التي تهز المشاعر ، وتثير الوجدان ، ومنهم من يكون علاجه بالمحاورة والمناقشة والمناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن ، لأن الإنسانية لها كبرياؤها وعنادها ، وقلما تتراجع عن الرأي الذي آمنت به . إلا بالمجادلة بالتي هي أحسن . والحق . أن الدعاة إلى الله - تعالى - إذا فقهوا هذه الحقائق فتسلحوا بسلاح الإيمان والعلم ، وأخلصوا لله - تعالى - القول والعمـل ، ونظروا إلى أنجع الأساليب في الدعوة إلى الله،وخاطبوا الناس على قدر عقولهم واستعدادهم . . نجحوا في دعوتهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال الآلوسي : وإنما تفاوتت طرق دعوته - صلى الله عليه وسلم - لتفاوت مراتب الناس ، فمنهم خواص ، وهم أصحاب نفوس مشرقة ، قوية الاستعداد لإدراك المعـاني ، مائلة إلى تحصيل اليقين على إختلاف مراتبه ، وهؤلاء يدعون بالحكمة .

ومنهم عوام ، أصحاب نفوس كدرة ضعيفة الاستعداد ، شديدة الإلف بالمحسوسات ، قوية التعلق بالرسوم والعادات ، قاصرة عن درجة البرهان ، لـكن لاعناد عندهم ، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة :

ومنهم من يعاند ويجـادل بالباطل ليدحض به الحق ، لمـا غلب عليه من تقليد الأسلاف ، ورسخ فيه من العقائد الباطلة ، فصار بحيث لا تنفعه المواعظ والعبر ، بل لابد من إلقان الحجر بأحسن طرق الجدال ، لتلين عريكته ، وتزول شكيمته ، وهؤلاء الذين أمر - صلى الله عليه وسلم - بجدالهم بالتي هي أحسن » (١)

وقوله - سبحانه - « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعـلم بالمهتدين » بيان لـكمال علم الله - تعالى - وإحاطته بكل شيء ، وارشاد للدعاة

---

(١) تفسير الآلوسي حـ ١٤ ص ٢٥٤

فى شخص نبيهم - صلى الله عليه وسلم - إلى أن عليهم أن يدعو الناس بالطريقة التى بينها - سبحانه - لهم ، ثم يتركوا النتائج له - تعالى - يسيرها كيف يشاء .

والظاهر أن صيغة التفضيل « أعلم » فى هذه الآية وأمثالها ، المراد بها مطلق الوصف لا المفاضلة ، لأن الله - تعالى - لايشاركه أحد فى علم أحوال خلقه ، من شقاوة وسعادة ، وهداية وضلال .

والمعنى : ان ربك - أيها الرسول الكريم - هو وحده العليم بمن ضل من خلقه عن صراطه المستقيم ، وهو وحده العليم بالمهتدين منهم الى السبيل الحق وسيجازى كل فريق منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ومادام الأمر كذلك ، فعليك - أيها الرسول الكريم - أن تسلك فى دعوتك إلى سبيل ربك ، الطرق التى أرشدك إليها ، من الحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، « ومن كان فيه خير - كما يقول صاحب الكشاف - كفاه الوعظ القليل ، والنصيحة اليسيرة ، ومن لاخير فيه عجزت عنه الحيل ، وكأنك تضرب منه فى حديد بارد »[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - أنجع أساليب الدعوة إلى سبيله فى حالة المسالمة والمجادلة بالحجة والبرهان ، أتبع ذلك ببيان ماينبغى على المسلم أن يفعله فى حالة الاعتداء عليه أو على دعوته فقال - تعالى - : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ... »

أى : وإن أردتم معاقبة من ظلمكم واعتدى عليكم ، فعاقبوه بمثل مافعله بكم ، ولاتزيدوا على ذلك ، فإن الزيادة ظلم يبغضه الله - تعالى - .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى ماهو أسمى من مقابلة الشر بمثله فقال : « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٥ .

والضمير فى قوله «لهو» يعود إلى المصدر فى قوله «صبرتم»، والمصدر إما أن يراد به الجنس فيكون المعنى : ولئن صبرتم فالصبر خير للصابرين ، وأنتم منهم.

وإما أن يراد به صبرهم الخاص فيكون المعنى : ولئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل ، لصبركم خير لكم ، فوضع - سبحانه - الصابرين موضع لكم على سبيل المدح لهم ، والثناء عليهم بصفة الصبر .

هذا ، وقد ذكر جمع من المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت فى أعقاب غزوة أحد ، بعد أن مثل المشركون بحمزة - رضى الله عنه - .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : روى الحافظ البزار عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقف على حمزة ابن عبد المطلب حين استشهد . فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه .

وقد مثل المشركون به . فقال - صلى الله عليه وسلم - : رحمة الله عليك، لقد كنت وصولا للرحم ، فعولا للخيرات . والله لولا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع . أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك . فنزلت هذه الآية . فكفر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن يمينه .

ثم قال ابن كثير بعد روايته لهذا الحديث : وهذا إسناد فيه ضعف لأن أحد رواته وهو «صالح بن بشير المرى» ضعيف عند الأئمة . وقال البخارى هو منكر الحديث .

ثم قال ابن كثير - رحمه الله - : وروى عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه عن أبى بن كعب ، قال: لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلا، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لئن كان لنا يوم مثل هذا اليوم من المشركين لنمثلن بهم ، فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم. فنادى مناد أن رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - قد أمن الأبيض والأسود إلا فلانا وفلانا - فاسا سماهم - ، فنزلت الآية .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « نصبر ولا نعاقب »(١) .

والذى نراه أن الآية الكريمة - حتى ولو كان سبب نزولها ماذكر - إلا أن التوجيهات التى اشتملت عليها صالحة لكل زمان ومكان ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وعلى رأس هذه التوجيهات السامية التى اشتملت عليها : دعوة المسلمين إلى التزام العدالة فى أحكامهم ، وحضهم على الصبر والصفح مادام ذلك لا يضر بمصلحتهم ومصلحة الدعوة الإسلامية .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ،فمن عفا وأصلح فأجره على الله . . . »(٢)

ثم أمر - سبحانه - بالصبر أمرا صريحا ، بعد أن بين حسن عاقبته فقال : « واصبرو ماصبرك إلا بالله . . .

أى : واصبر - أيها الرسول الكريم - على أذى قومك ، وماصبرك فى حال من الأحوال بمؤت ثماره المرجوة منه،إلا بتوفيق الله - تعالى - لك ، وبتثبيته إياك ، ومادام الأمر كذلك فالجأ إليه وحده , واستعن به - سبحانه - فى كل أمورك ، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال .

ثم نهاه - سبحانه - عن الحزن بسبب كفر الكافرين ، فإن الهـــداية والإضلال بقدرة الله وحده فقال- تعالى- : « ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » .

أى ولا تحزن بسبب كفر الكافرين ، وإصرارهم على ذلك ، وإعراضهم

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص٥٩٦ .

(٢) سورة الشورى الآية ٤٠ .

عن دعوتك ، ولا يضيق صدرك بمكرهم ، فإن الله - تعالى - ناصرك عليهم ، ومنجيك من شرورهم .

وقوله - تعالى - : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » تعليل لما سبق من أمره بالصبر ، ومن نهيه عن الحزن وضيق الصدر .

أى : إن الله - تعالى - بعونته وتأييده مع الذين اتقوه فى كل أحوالهم ، وصانوا أنفسهم عن كل مالا يرضاه ، ومع الذين يحسنون القول والعمل ، بأن يؤدوهما بالطريقة التى أمر الإسلام بها ، ومن كان الله - تعالى - معه ، سعد فى دنياه وفى أخراه .

وقد قيل لبعض الصالحين وهو يحتضر : أوص . فقال : إنما الوصية من المال . ولا مال لى ، ولكنى أوصيكم بالعمل بخواتيم سورة النحل .

وبعد : فهذه سورة النحل ، وهذا تفسير لها . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد طنطاوى

المدينة المنورة : مساء الثلاثاء ٢٧/١٢/١٤٠٣هـ

الموافق ٤/١٠/١٩٨٣م

فهرس إجمالى لتفسير « سورة النحل »